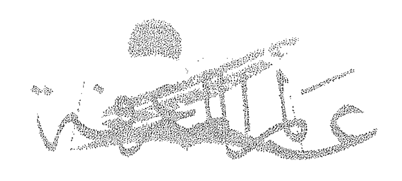


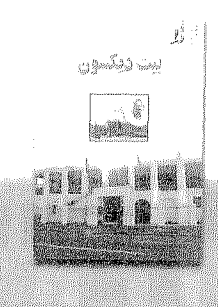


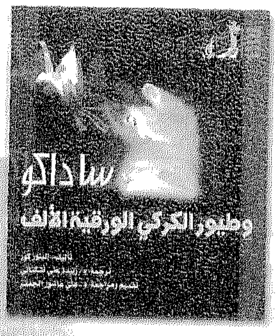
312
فبراير
2005

جغرافية الفكر

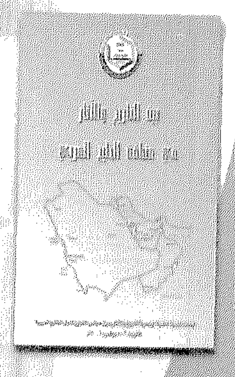
كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف... ولماذا؟

تأليف: ريتشارد إي. نيسبت
ترجمة: شوقي جلال

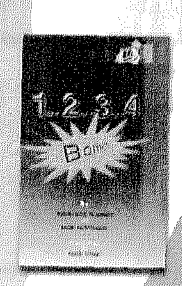


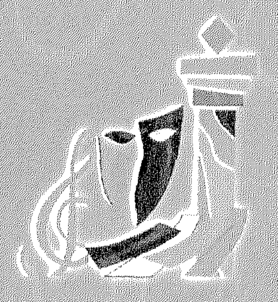












المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

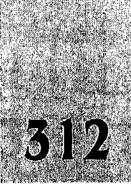


أحدث الإصدارات غير الدورية



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923-1990

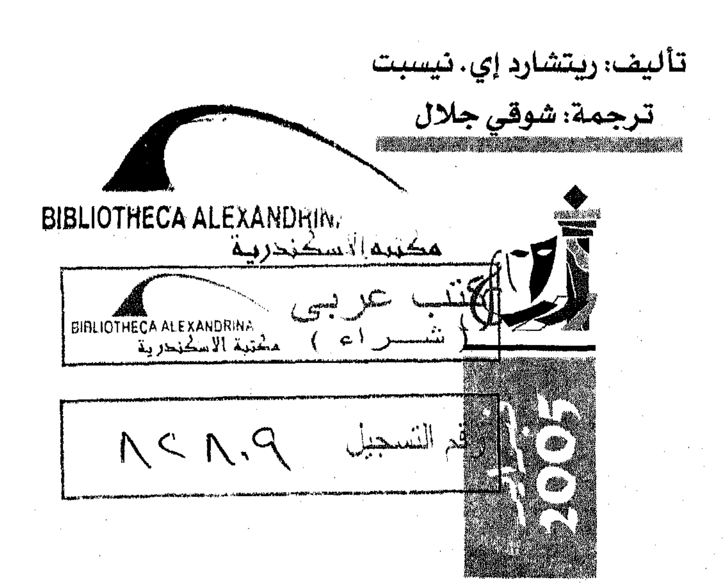


جغرافية الفكر

كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف... ولماذا؟

تأليف: ريتشارد إي. نيسبت

ترجمة: شوقي جلال





سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

أ. بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي
bdrifai@nccal.org.kw

هيئة التحرير:

د. فؤاد زكريا/ المستشار

د. خلدون حسن النقيب

د. عبداللطيف البدر

د. خليفة عبدالله الوقيان

د. فريدة محمد العوضي

د. عبدالله الجسمي

د. ناجي سعود الزيد

د. فلاح المديرس

أ. جاسم السعدون

مدير التحرير

هدى صالح الدخيل
alam_almarifah@h

تنفيذ

وحدة الإنتاج

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**15** د.ك
للمؤسسات	**25** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**17** د.ك
للمؤسسات	**30** د.ك

الدول العربية

للأفراد	**25** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**50** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**100** دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب: *28613* - الصفاة - الرمز البريدي*13147*
دولة الكويت
تليفون : ٢٤٣١٧٠٤ (٩٦٥)
فاكس : ٢٤٣١٢٢٩ (٩٦٥)
الموقع على الإنترنت:
www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 99906 - 0 - 153 -4

رقم الإيداع (٢٠٠٥/٠٠٠٠١)

العنوان الأصلي للكتاب

The Geography of thought

How Asians And Westerners Think Differently ... And Why?

By

Richard E. NISBETT

Free press, New York 2003.

طبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

مطابع السياسة - الكويت

ذو الحجة ١٤٢٥ - فبراير ٢٠٠٥

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

المحتوى



مقدمة المترجم

«أرى في هذا الحصاد الجديد الفريد من الدراسة عن الغرب وعن الشرق الأقصى دعوة لنا نحن العرب لكي نتأمل واقعنا الثقافي وتراثنا في ضوء دراسة عقلانية نقدية تجريبية»

المترجم

هل البشرية في سبيلها إلى تغيير أسس وقوانين الفكر جذريا؟ هل أصبح لزاما مراجعة أسس الفكر أو التفكير الإنساني؟ إحدى مسلمات فكر التنوير الغربي أن أنماط الفكر البشري واحدة أينما كان البشر في الغرب أم في الشرق. وساد هذا الاعتقاد كقانون حاكم للفكر، وإن طبيعة الفكر البشري كونية أو كلية. معنى هذا أن الناس أينما كانوا وأيًّا ما كانت ثقافاتهم يفكرون ويستقرئون ويستدلون وفق منهج ومنطق واحد؛ ويصنفون الوجود ويرونه ويدركونه على نحو نمطي واحد.

عشنا قرونا نؤمن بأن العقل ـ الفكر واحد بين البشر، وأن منهج التفكير الصحيح أو المنطق واحد في كل زمان ومكان، ورؤيتنا للعالم واحدة. وظلت السيادة للفكر الصوري الأرسطي، منذ الإغريق، بوصفه القاعدة والمرجعية، ثم ظهرت معه ومن بعده، منذ عصر النهضة، مدارس منطقية إضافة إليه وتحديدا لمجال تطبيقه دون أن تنفي أو تعدل بعض أسسه ومبادئه. ذلك من مثل قانون أو مبدأ عدم التناقض الذي يفيد أن القضية لا تكون صادقة وزائفة في آن واحد،



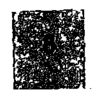
ويمتنع أن يوجد الشيء وألا يوجد في آن واحد؛ أو من حيث علاقة الجزء بالكل والقول بأن العالم مؤلف من أجزاء، وأجزاء اليوم هي أجزاء الأمس والغد. ناهيك عن القول بالحتمية والموقف من الفعالية الإنسانية.

ولكن هل آن لنا أن نسمع ونقرأ عن نهاية أو ما بعد مدارس المنطق الغربية وتظهر مدارس جديدة لمنطق جديد؟

إن النظرة الاستقصائية النقدية لعالمنا تكشف عن أن العالم، مع مفتتح القرن الواحد والعشرين، أصبح ظاهرة فريدة جديدة غير مسبوقة، ظاهرة حبلى بالتناقضات والنذر والبشائر، وكذلك بتحولات نوعية في مسيرة تطور البشرية. ولقد كان القرن العشرون جسرا نحو عالم جديد كل الجدة من حيث الآفاق والقدرات والإمكانات والإنجازات والفعاليات التي تهيأت للبشرية.

شهد القرن العشرون أخطر ثورة ثقافية، ثورة كونية الأبعاد والأصداء، لا تزال آثارها آخذة في الامتداد والتسارع حتى ليمكن القول إن الفكر الإنساني يشهد بدايات تحول جذري من حيث الأسس والنطاق والمناهج. النظرة السريعة تؤكد أن العالم الآن يعاني مخاض تحول جذري؛ إننا نعيش مرحلة انتقال، أو لنقل مرحلة فراغ انتقالي من طور إلى طور، فراغ مرحلة انتقال من تقليد سابق إلى تقليد لاحق. هذه المرحلة ساحة تفاعل بين تناقضات جديدة عميقة على الطريق نحو طور نوعي جديد... وضاعف من هذه الثورة الثقافية أنها اقترنت بتطورات علمية وتكنولوجية، وكأنهما معا على موعد لتمتد الآثار إلى أبعاد الكوكب، ولكي تنفذ إلى أعماق الوعي الإنساني، وتضعان البشرية مع مستهل ثورة كونية في الفكر والثقافة والاتصال والعلوم.

وتتجلى أهم أبعاد الثورة العلمية والتقانية في ثورة الاتصالات والمعلومات وثورة المعرفة، من حيث الكم المنتج ومن حيث الكيف الذي تبذل العقول المنتجة للفكر جهدها لصوغه نسقيا وملء الفراغ الحادث. وأضحت البشرية تدرك أن ما كان حتى بضعة عقود فكرا حداثيا بات تقليدا باليا ويلزم عليه إفساح الطريق لفكر جديد ونظريات جديدة. ويعني هذا أن البشرية إزاء مهام تاريخية جديدة، وهي صياغة ثورية إبداعية لنظريات تنسق الحصاد الجديد وتفسر الرؤى الجديدة وتتنبأ بما تحمله الأيام من تأثيرات. ويلح أهل الفكر المستنير على ضرورة أن تنضو البشرية عنها ثوب التقليد على طريق التكيف والملاءمة ـ فكرا وعملا ـ مع واقع متطور جديد؛ وأن تصوغ فلسفة تنويرية جديدة، وبناء محيط عقلي كوكبي ملتزم بقيم جديدة وفكر إنساني أصيل جامع بين البشر من دون تمييز.



وتواكب هذا الواقع والوضع جهود جديرة بأن نصفها بأنها جهود فاصلة تدعو إلى أن العالم كله بصدد أن يمثل مخا كوكبيا واحدا متآزر الفعالية والجهد يتعين أن يكون أداة تكيف لمصلحة الإنسانية جمعاء. ويدعو هؤلاء إلى ضرورة التزام نهج كوكبي جديد في إبداع واستثمار المعارف الجديدة في إطار من التعاون البشري والفعالية الفردية والاجتماعية معا، والمشتركة بين الناس على قدم المساواة. وعلاوة على الجهود من أجل ظهور مخ كوكبي، يدور الحديث عما يسمى المصادر المفتوحة على نطاق شبكة فضائية كوكبية للمعلومات، أي إتاحة مصادر المعرفة لجميع أهل الفكر والإنتاج عبر الشبكة الفضائية (الإنترنت) على صعيد العالم. ويرى هؤلاء أن هذه سبيلنا الوحيدة لخلق تضامن عالمي وتعاون إنساني في ظل من الشفافية لبناء مجتمعات ينتفي فيها طغيان أحد على آخر، فيما عدا العاطلين من قدرات الإبداع والإنتاج.

وتجسدت أيضا الثورة الثقافية الكونية التي انطلقت مع انتصاف القرن العشرين في اتساع نطاق حركة التحرر الوطني ونتائج ذلك ثقافيا. استعادت شعوب ومجتمعات كثيرة حريتها في آسيا وأفريقيا وفي أمريكا الجنوبية. وشرعت غالبية هذه الشعوب في بذل الجهد وفق استراتيجيات واضحة لكي تستعيد ذاكرتها التاريخية وثقافاتها التقليدية والتكيف مع حضارة العصر. وفرضت هذه الجهود قضية الهوية القومية في سياق جديد تأسيسا على رؤى نقدية لفكر الغرب. لم تكن حقبة التحرر الوطني مجرد تحرر سياسي أو اقتصادي فقط، بل حقبة شك في كل ما صاغه الغرب عن هذه المجتمعات، تاريخا وثقافة، وهي الحقبة المعروفة باسم ما بعد الكولونيالية. وبدأت الغالبية في إعادة كتابة تاريخها من وجهة نظرها ليمثل هذا ثروة إضافية نقدية لفكر الغرب. وانطلقت على طريق البحث عن الذات وتأكيدها كثقافة تاريخية وفعل عصري إبداعي متطور في ضوء تأويلات جديدة، لتغدو ثقافة عصرية وامتدادا حضاريا وثيق الصلة بالتطور الاجتماعي والتكيف مع البعد العالمي الجديد. وظهرت نظريات نقدية تحدثنا عن النسبية الثقافية ضد الرؤية الغربية المطلقة عن ثقافة الحداثة كثقافة واحدة كلية مطلقة.

وأصبح العالم ساحة صراع فكري ضد السرديات الكبرى على لسان منهج جديد يحمل اسم «ما بعد المودرنزم»، أو كما شاع عنه «ما بعد الحداثة»، وزخرت الساحة برؤى نقدية للفكر الحداثي الغربي ويصفه البعض بالفكر



الغربي التقليدي. وتهاوت نظريات وفلسفات وقوانين صاغت إدراكاتنا وعقولنا. وأصبحنا نعيش عصر النهايات والما بعد.. نهاية السرديات الكبرى.. ما بعد المودرنزم.. نهاية الاشتراكية.. نهاية الفلسفة.. نهاية القوميات... إلى آخر ذلك داخل سياق من فراغ البحث عن جديد يكفل مرحليا سداد الرأي والرؤية لعالم متداخل. عولمة لعالم بات قرية، ولكن بلا ضابط أو قوانين.

وتهيأت بفضل الثورة الثقافية الكونية وبفضل التطورات العلمية والتقانية فرص الاطلاع على ثقافات الشعوب من زوايا جديدة ووفق مناهج بحث علمي... معنى الثقافة وتطورها وتنوعها والإبداع الثقافي وكيف نفكر وأسس التفكير مع اختلاف الزمان والمكان. وأدى هذا الوضع الكوكبي إلى زيادة الشفافية وعرفت الشعوب بعضها بعضا، وإن اقترن هذا الواقع بنقيضه، إذ تكثفت العداوات الإثنية والثقافية... واقع جمع بين انفتاح وانغلاق في آن واحد.. انفتاح إعلامي وثقافي وعلمي وثورات انغلاق ثقافي على الذات. وردة إلى ما يعرف بالأصولية أو السلفية هي ردة دفاعية عن الذات. وصاغت هذه الإنجازات والتناقضات معالم ظاهرة جديدة لعالم جديد يستلزم منهجا بحثيا جديدا وفكرا جديدا.

وإذا كان الاتصال هو أساس الاجتماع ومنطلق نشوء الرمز ـ اللغة مع ظهور الـ «هومو سابينس» أو الإنسان العاقل منذ قرابة مائتي ألف سنة، ثم كان الاتصال المكتوب ثورة جديدة لطور جديد، فإن لنا أن نتوقع أن تكون ثورة الاتصالات الجديدة إيذانا بنقلة كيفية في مجالات كثيرة: الاجتماع واللغة ـ الفكر.. الفنون، وظهور منظومة ذهنية جديدة.

فتحت حركات التحرر الوطني والبعث الجديد لشعوب الشرق وأمريكا الجنوبية مجالات بحثية جديدة تكشف عن أن الإنسان/المجتمع/العالم ظاهرة جديدة. عكف علماء الغرب وعلماء المستعمرات السابقة على دراسة هذه الظاهرة في مجالات الثقافة والفكر وتطورهما في الزمان والمكان. وقالوا ورثت الإنسانية عن الغرب صياغات أو نظريات عن العالم وميتافيزيقا العالم والمعتقدات الأساسية عن طبيعة العالم. وطرحوا أسئلة كثيرة هي من وحي الواقع الجديد المتنوع. كيف نفكر؟ وإلى أي حد تمثل عمليات الفكر بعض معتقداتنا عن طبيعة العالم باعتبار هذه العمليات أدواتنا المعرفية التي نفهمها في ضوء معتقداتنا؟ كيف نشأت الثقافة وكيف تطورت وتنوعت زمانا ومكانا؟ وإلى أي حد ثقافتنا الاجتماعية مسؤولة عن نهجنا في التفكير ورؤية وتفسير ظواهر الواقع؟ كيف أنا



كفرد أو نحن كمجتمع نفهم ونرى أنفسنا حياة ودورا وفعالية وعلاقات؟ ما المحددات للرؤية وللفهم في ضوء معتقداتنا السائدة؟ ما القانون الحاكم لوجود وحركة وشكل الموضوعات؟ هل نصوغه في اتساق مع معتقداتنا ورؤيتنا عن العالم، باعتبار الموضوعات كيانات لها ذاتيتها أو هويتها المستقلة، أم باعتبار الموضوعات بعض سياق شامل متطور، وأن الحركة حركة المنظومة كلها في سياقها أو مع سياقها؟ هل عادات أو أنماط التفكير والاستدلال عند البشر واحدة لأنها حاكمة لنا الآن وتصبغ رؤانا؟ كيف نفهم الآخرين المختلفين عنا ثقافة، وكيف يفهموننا من خلال العدسات الثقافية؟ وكيف لنا أن نتفاهم ونحن في عالم أصبح قرية؟ هل يمكن أن نغير عادات تفكيرنا؟ وهل المنطق هو عادات تفكير وليس قوانين كلية؟ هل يمكن، في ضوء بحوث التنوع الثقافي، فرض ثقافة واحدة تكون لها الهيمنة على شعوب العالم من دون اعتبار لدور التاريخ والتفاعل الإيكولوجي على نحو ما تسعى قوة عالمية لفرض هيمنتها الثقافية باسم الدعوة إلى التجانس الثقافي العالمي والانضواء تحت ما تظنه الثقافة الأسمى وقد أصبح العالم قرية؟

في ظل هذه التساؤلات والتناقضات والتطورات العلمية والعالمية عكف باحثون قليلون جدا على دراسة العالم - الظاهرة الجديدة. ونذكر كمثال كتاب «جغرافية الفكر» تأليف عالم النفس الثقافي ريتشارد نيسبيت أحد هذه الجهود البحثية العلمية الرائدة. والكتاب فريد جديد في موضوعه ونتائجه. إنه كما وصفه البعض صيحة انتباه أو دعوة استيقاظ للبشرية كي تصحو من سُبات فكري أو غفلة فكرية امتدت قرونا لتفهم حقيقة جديدة عن الفكر البشري. ويحاول المؤلف الإجابة عن تلك التساؤلات التي تشكل محورا مهما لدراسة الفكر والتي أسلفنا بعضا منها.

ويخلص الكتاب إلى نتائج تشكل في مجموعها قواعد جديدة لرؤية نقدية بناءة لثقافة الغرب وللثقافات جميعا في الشرق والغرب على حد سواء وصولا إلى تفاهم مشترك وإلى فهم جديد.. فهم نقدي جديد لذواتنا الاجتماعية في التاريخ، ولقضايانا الساخنة عن الهوية والتراث... إلخ، وفهم نقدي جديد لتحولات عالم بات صغيرا جدا تكثف فيه الزمان والمكان.. وتكاثفت وتكافأت فيه النقائض التي تكاد تصدع وعي ووجود الإنسان.. يعيش الإنسان بوعيه وفكره عالما تلاشت فيه حدود التباعد والغربة بفضل ثورة الاتصالات، ولكنه يلوذ بنفسه وبذاته العرقية، وبتاريخه دفاعا أو دفعا خشية الذوبان، أو خشية تلاشي ذات تاريخية هي حصاد تكوينه الاجتماعي التاريخي أو أساس شعوره بكيانه في الزمان والمكان.

ويكشف الكتاب تمايز أنماط التفكير وتباين قواعده وقوانينه بفعل ثقافات هي حصاد تفاعل إيكولوجي بين الإنسان/المجتمع والبيئة، أي بسبب تفاعل الإنسان - المجتمع من أجل صناعة وجوده في بيئته الطبيعية والثقافية على مدى بعدي الزمان والمكان. ويحاول البحث تجريبيا الإجابة عن شواهد عديدة ذات دلالة مثل السبب في تميز الصينيين القدامى في الجبر والحساب دون الهندسة التى كانت قلعة الإغريق. وامتد هذا التميز مع الأجيال حتى أن الطلاب الآسيويين المحدثين يثبتون تميزهم على طلاب الغرب في الرياضيات والعلم، ولكنهم دون الغربيين في المعارف ذات الطبيعة الثورية، بمعنى أنهم أميل إلى المحافظة من الغربيين. وأوضحت تجاربه أن الغربيين أقدر نسبيا من الآسيويين الشرقيين على إدراك الجزء مستقلا عن الكل، وفصل الموضوع عن الإطار المحيط به. هذا على عكس الآسيوي الشرقي الذي لا يرى الموضوع ولا يفهمه إلا في سياقه.

ومن طرائف أبحاثه التجريبية أن الأطفال في الغرب يتعلمون الأسماء أسرع من الأفعال على عكس أطفال شرق آسيا، ويسأل عن دلالة ذلك ثقافيا وبيئيا. وينزع الغربيون إلى تطبيق المنطق الصوري عند الاستدلال في شؤون حياتهم اليومية، وقد يوقعهم هذا في أخطاء. بينما ينزع أبناء شرق آسيا إلى النظر في القضايا وفهمها في إطار تناقضاتها، مما يعني اجتماع النقيضين وصولا للفهم. وساعدهم هذا على الوصول إلى الحقائق.

معنى هذا أن ما ظنناه قواعد وقوانين الفكر هي عادات وليست قوانين كلية فطرية. إنها منظومات أو أنساق ترسخت قرونا بفضل هذا التفاعل، وتباينت شرقا وغربا بسبب تباين هذا التفاعل زمانا ومكانا ومحتوى ونهجا. ينزع أبناء شرق آسيا إلى الالتزام بالجدل في الفكر أي الجمع بين النقيضين، إذ يلتزمون بالمبادئ المنطقية التي تتعارض مع النزعة الجدلية في فكر شرق آسيا. مثال ذلك قانون الهوية الذي يقرر أن الشيء هو هو وليس آخر، يؤكد قانون الهوية على الاتساق بين المواقف: «أ» هي «أ» بغض النظر عن السياق. ويحدد قانون عدم التناقض أن أ وليس أ مستحيلان معا. بينما النظرة الكلية عند أبناء شرق آسيا على النقيض من هذا، إذ ترى أن أ في سياق ما غير أ في سياق آخر.

إن ما نسميه قانون أو مبدأ عدم التناقض الذي يقرر أن الشيء ونقيضه لا يجتمعان، أو أن القضية لا تكون صوابا وخطأ في آن واحد، ليس قانونا عاما للفكر البشري كما تؤكد ذلك دراساته عن الفكر والتفكير في شرق آسيا



ومقارنته مع الفكر والتفكير في الغرب. إنه عادة ثقافية. ومن ثم يدعو إلى بذل الجهد لوضع منطق جديد. ويؤكد أن فهم العمليات الفكرية للثقافات الأخرى، والذي يفرضه فرضا واقع جديد نسميه العولمة، يمكن أن يكون بداية لفهم جديد غير ما فرضه الفكر الغربي زمانا.

ويلزم عن هذا بيان أن تغيير عادات الفكر ـ اللغة يعني تغيير رؤية الناس للعالم أو تغيير صورة العالم في الأذهان وإعادة بناء المنظومة الذهنية، وتغيير العمليات المعرفية، وهي أمور ترسخت مع معتقدات وثقافات المجتمعات. وهذا لا يعني تحجرا وجمودا وعدم قابلية للتغيير، بل هو نفي صريح لذلك. إنه تأكيد لصورة أخرى عن البشرية والفكر والتفكير، إنه انفتاح على التنوع في تطوره التاريخي. ذلك أن الإنسان والفكر كل منهما عملية حية إيكولوجية أي ثمرة لتفاعل عوامل متداخلة اجتماعية وطبيعية وثقافية، وصولا إلى بناء ما اصطلح على تسميته الموطن الملائم niche construction، الذي هو مرحلة تكيفية في مسيرة تطور مطرد. إنها شكل من أشكال التكيف التي اختلفت وتنوعت زمانا ومكانا لعوامل عديدة وقابلة للتغير بفضل أو بسبب عوامل أخرى جدت على الساحة. وحري أن نفهم في هذا الإطار معنى تباين التراث والثقافة والفكر في بعدي الزمان والمكان على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي.

ويقتضي هذا الفهم الجديد التحرر من هيمنة أطر أو أنماط فكر تقليدي غربي أو موروث وأن نفسره تفسيرا علميا نقديا. ويقتضي كذلك العمل على صوغ سياسة تعليمية هدفها بناء عقول يكون أساس تفكيرها مرونة دينامية وانفتاحا على الآخر وشفافية وقدرة منهجية على فهم المشكلات مع الإيمان بالإنسان وبمشروعية التنوع والاختلاف على صعيد فردي ومحلي وعلى صعيد كوكبي، مما يهيئ أساسا لوعي كوني، أو كما يقال صوغ محيط عقلي تنويري جديد، بناء عالم جديد أو ثورة فكرية لعقل جديد غير منغلق على ذاته، بل عقل يسع الكون برحابته تأسيسا على تفكير علمي أو عقلانية نقدية.

وأرى في هذا الحصاد الجديد الفريد من الدراسة عن الغرب وعن الشرق الأقصى دعوة لنا نحن العرب لكي نتأمل واقعنا الثقافي وتراثنا في ضوء دراسة عقلانية نقدية تجريبية. ويفتح هذا النهج مجالا واسعا لدراسة العقل أو الفكر العربي: كيف يفكر العربي؟ وكيف يرى العالم؟ وما الجذور الثقافية للمعرفة وللتفكير العربي ورصيده التاريخي الفاعل والمؤثر؟ ما المنظومة الذهنية الحاكمة



للفكر العربي وخاصية هذه المنظومة من حيث المرونة والديناميية والقدرة التفاعلية مع المتناقضات، ومن ثم القدرة على التطور والتطوير؟ وما أوجه التمايز والتميز؟ وكيف نغير عادات وأسس التفكير إن كان لازما؟ ولماذا نستسيغ فكرا دون آخر فيبقى الأول ويترسخ، بينما يذوي الآخر ويتوارى أو يندثر؟ وما أسباب معايير البقاء والتلاشي؟ لماذا مثلا شاع فكر الأشعرية أو الغزالي دون فكر ابن رشد أو ابن خلدون، بحيث تطور فكرهما على غير أرضهما أو كما يقال اغتربا عن وطنيهما delocalized؟ ولماذا اطرد نمو فكر الشيعة جغرافيا في أماكن دون غيرها؟ ولماذا اطرد فكر السُّنة جغرافيا في أماكن بذاتها؟ لماذا نرى الحقيقة أو الحق مع البعض ونصم الآذان عن آخرين؟ وما معاييرنا في ذلك وفق المنظومة الذهنية الحاكمة؟ وهل نلتزم بمعايير موضوعية يدعمها العلم؟ هل من أسباب تراثية ثقافية صاغت البنية الذهنية أم أسباب بيولوجية أم لغوية أم اقتصادية أم اجتماعية أم طبيعية أم مركب جدلي من هذا كله؟ وإلى أي مدى تدعم أو تعوّق هذه البنية الذهنية العربية حركة التطوير الحضاري؟ إذن، في ضوء هذا، ما نهج التعليم والتنشئة اللازم لنا؟ وجدير أن ننهض نحن بهذه الدراسة بدلا من أن يظل مجالها مساحة صامتة، أو بدلا من أن ينجزها غيرنا فنكون موضوعا لا ذاتا فاعلة.

إن البحوث العلمية في الشرق وفي الغرب تمضي سريعا مكثفة ومتلاحقة في محاولة لفهم جديد للإنسان على أساس علمي تطوري من حيث القدرة والإمكانات والاحتمالات والتحولات في ضوء واقع كوكبي جديد. وما أحوجنا نحن أيضا إلى أن نفهم أنفسنا أولا، وأن نفهم غيرنا على هذا النحو وبعيدا عن أطر التقليد لبناء إنسان جديد يتصف بمنظومة ذهنية جديدة قرين فعالية نشطة ومرنة واعية بالمحيط الكوكبي بكل تنوعاته وتناقضاته ثم القدرة على الحركة البناءة والتكيف المطرد وسط هذه التناقضات والتحديات والتزاما بدعوة تنويرية إنسانية شاملة... إنسان جديد وفكر جديد لعالم جديد.

شوقي جلال

القاهرة ٢٠٠٤



مقدمة المؤلف

منذ بضع سنوات مضت بدأ طالب صيني نابه يعمل معي في بحث قضايا عن علم النفس الاجتماعي والاستدلال العقلي. وذات يوم، ونحن لا نزال في بداية تعارفنا، قال لي: «هل تعرف أن الفارق بيني وبينك أنني أرى العالم دائرة وأنت تراه خطا مستقيما». ومن دون أن يقلقه ما ارتسم على وجهي بالضرورة من تعبير يفيض روعا استطرد موضحا الفكرة: «يؤمن الصينيون بالتغير المطرد أبدا، لكن مع إيمان بأن الأشياء دائما وأبدا تتحرك مرتدة إلى حالة ما كانت في البدء. إنهم يولون اهتمامهم لنطاق واسع من الأحداث، يبحثون عن العلاقات بين الأشياء، ويظنون أن لا سبيل أمامهم إلى فهم الجزء من دون فهم الكل. هذا بينما يعيش الغربيون في عالم أبسط حالا وأقل خضوعا للحتمية؛ إنهم يركزون انتباههم على موضوعات أو أناس لهم وجودهم الفردي البارز دون الصورة الأكبر؛ ويظنون أن في وسعهم التحكم في الأحداث لأنهم يعرفون القواعد والقوانين الحاكمة لسلوك الأشياء.

«إن الكتاب له دلالاته بشأن الكيفية التي يمكن بها للشرق والغرب أن يمضيا معا في علاقات أفضل، تأسيسا على فهم متبادل للفوارق الذهنية»

المؤلف



بدوت شاكا، لكن فضولي شغوف للمزيد. عشت طوال حياتي مؤمنا بنظرة كلية شمولية إلى الطبيعة والفكر البشري. التزمت المسار الغربي الطويل خطوة خطوة ابتداء من الفلاسفة التجريبيين من أمثال هيوم ولوك وميل وحتى علماء المعرفة من معاصرينا اليوم، مؤمنا بأن جميع البشر يدركون بحواسهم، ويستدلون بعقولهم بطريقة واحدة. ويسعني أن أوجز الافتراضات المشتركة التي يقوم عليها هذا التراث في المبادئ القليلة التالية:

● كل امرئ لديه ويجري العمليات المعرفية نفسها. إن رعاة القطعان في ماووري، ومن يعيشون على قطف الثمار والقنص في كونج، ومن يتعاملون مع الشبكة الدولية «الإنترنت»، جميعهم يعتمدون على الأدوات نفسها من حيث الإدراك والذاكرة، والتحليل السببي، والتصنيف الفئوي والاستدلال.

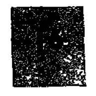
● عندما يختلف شعب في ثقافة ما عن غيره من الشعوب، من حيث المعتقدات، ليس لنا أن نرد هذا الاختلاف إلى اختلاف العمليات المعرفية، بل بسبب أنهم واجهوا جوانب مختلفة للعالم أو لأنهم تعلموا معارف أخرى.

● عمليات التفكير العقلي من «المرتبة الأعلى» تبنى على أساس القواعد الصورية للمنطق: مثال ذلك رفض الجمع بين النقيضين: القضية لا تكون صادقة وزائفة في وقت واحد.

● التفكير العقلي منفصل عن موضوع التفكير. إذ يمكن استخدام العملية نفسها للتفكير في أمور مغايرة تماما؛ وإن شيئا محددا يمكن التفكير بشأنه مستخدمين أي عدد من الإجراءات المختلفة.

وأذكر أنني قبل أن ألتقي تلميذي هذا بأكثر من عشر سنوات شاركت لي روس في تأليف كتاب يحمل عنوانا يكشف بوضوح عن مظان تعاطفي - الاستدلال البشري. لم نقل الاستدلال في الفكر الغربي (ويقينا ليس الاستدلال العقلي في جامعة أمريكية) بل قلنا «الاستدلال البشري». وشخص الكتاب ما اعتقدت أنه قواعد الاستدلال العقلي التي يستخدمها الناس في كل مكان لكي يفهموا العالم، بما في ذلك بعض القواعد التي أعتقد أنها معيبة أو قاصرة وتؤدي إلى أحكام خاطئة.

وأذكر من ناحية أخرى أنني - قبل أن ألتقي تلميذي الصيني بفترة قصيرة - كنت قد فرغت لتوي من سلسلة من الدراسات أبحث فيها عما إذا كان بالإمكان تحسين عمليات التفكير العقلي عند الناس عن طريق تعليمهم قواعد



جديدة للتفكير. وتأسيسا على افتراضاتي بشأن الكلية وشمولية التفكير وعتاد البشر في التفكير ذهبت في المبتدأ إلى الظن بأن هذا العمل سوف يكشف عن صعوبة، إن لم أقل استحالة، تغيير أنماط التفكير العقلي التي كنت أدرسها ـ حتى وإن استغرقتنا دراسات تفصيلية وممتدة في مجالات أخرى من مثل الإحصاء والاقتصاد. ولكن كم كانت دهشتي كبيرة إذ اكتشفت نتائج جوهرية للتدريب. مثال ذلك أن من تلقوا برامج محدودة عن الإحصاء تجنبوا الوقوع في كم هائل من الأخطاء في الحياة اليومية، إذ أصبح من المرجح لهم أن يردوا «إخفاق طالب الثانوي» في لعبة البيسبول إلى نكوصه وتراجعه عن المستوى المتوسط، وليس بسبب سوء حظ أو لعنة غيبية. وأصبح الأرجح لهم أن يعتبروا الاختبار الشخصي بمنزلة مثال بسيط دال على سلوك المرء، ومن ثم فإن أي قرار حكيم بإلحاق الشخص بالعمل ينبغي أن نبنيه على أساس عينة من المعلومات أوسع نطاقا يتضمنها ملف طلب العمل. وتبين أن الاقتصاديين يفكرون بشأن جميع ما يعرض لهم من أمور على نحو مختلف عن بقية الناس ـ ابتداء من اتخاذ قرار بالاستمرار في مشاهدة فيلم ممل وحتى التفكير في السياسة الخارجية – واكتشفت، علاوة على هذا، أن بالإمكان تدريب الناس في دورات تدريبية قصيرة لتغيير عاداتهم في التفكير بل وأيضا تغيير سلوكهم العقلي عندما اختبرناهم بأسلوب خفي خارج المعمل.

لهذا كله حرصت على أن أولي الطالب أذنا صاغية. وأذكر أن اسمه كايينج بنج ويدرس الآن في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. وطبيعي إذا كان بالإمكان إحداث تغيرات واضحة ومهمة في طريقة تفكير الكبار، فقد بدا من الممكن يقينا القول بأن تلقين البشر عادات فكرية متمايزة منذ الميلاد من شأنه أن يفضي إلى فوارق ثقافية شديدة جدا في عادات الفكر.

وشرعت في قراءة دراسات مقارنة عن طبيعة الفكر ألفها فلاسفة ومؤرخون وأنثروبولوجيون من الغرب والشرق على السواء. واكتشفت أن بنج مراسل صحافي أمين. ولاحظت أنه في الوقت الذي يفترض فيه علماء النفس الشمولية والطابع الكلي للبشر، وجدت باحثين كثيرين في ميادين بحث مختلفة يعتقدون أن الغربيين (ويعنون بذلك أساسا الأوروبيين والأمريكيين ومواطني الكومنولث البريطاني) وشعوب شرق آسيا (وهم أساسا شعوب الصين وكوريا واليابان) ترسخت لدى كل جانب منهم منظومات فكر مختلفة



جدا عن نظيرتها لدى الجانب الآخر على مدى آلاف السنين. علاوة على هذا اتفقت آراء هؤلاء الباحثين جوهريا بشأن طبيعة هذه الاختلافات. مثال ذلك أن غالبية من تناولوا هذه المسألة يؤمنون بأن الفكر الغربي مبني على افتراض أن سلوك الأشياء ـ الطبيعية والحيوانية والبشرية ـ يمكن فهمه في ضوء قواعد صريحة مباشرة. ولوحظ آن الغربيين يهتمون كثيرا بالتصنيف الفئوي، مما يساعدهم على معرفة أي القواعد التي يتعين تطبيقها على الموضوعات محل البحث والسؤال، كما أن المنطق الصوري له دور في حل المشكلات. وعلى العكس من هذا شعوب شرق آسيا إذ يعنون بالموضوعات في سياقها العام. إن العالم يبدو في نظر الآسيويين أكثر تعقدا مما هو عليه في نظر الغربيين، كما أن فهم الأحداث عندهم يستلزم التفكير في كم كبير من العوامل التي يؤثر بعضها في بعض بطريقة غير بسيطة ولا حتمية. وليس للمنطق الصوري دور كبير في حل المشكلة. والحقيقة أن الشخص الذي يبالغ في الاهتمام بالمنطق يمكن اعتباره لم ينضج بعد.

أما عن نفسي ـ كعالم نفس ـ فقد تبين لي أن هذه آراء ثورية في دلالاتها. فإذا كان الباحثون في الدراسات الإنسانية وفي العلوم الاجتماعية الأخرى على صواب، إذن فإن علماء المعرفة على خطأ: المعرفة البشرية ليست واحدة في كل زمان ومكان. وحتى نتحاشى استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن هذا نقول إن الباحثين في مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية طرحوا دعاوى مهمة إلى أقصى حد بشأن طبيعة الفكر. أولاها أن أبناء الثقافات المختلفة يختلف بعضهم عن بعض في «رؤاهم الميتافيزيقية» أو في معتقداتهم الأساسية عن طبيعة العالم. والثانية، أن عمليات الفكر المميزة لدى الجماعات المختلفة يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا. والثالثة أن عمليات الفكر هي جزء من المعتقدات عن طبيعة العالم: يستخدم الناس الأدوات المعرفية التي يبدو أنها تفيد معنى، أي تأسيسا على معنى العالم عندهم.

ويلفت النظر بالدرجة نفسها أن الهياكل الاجتماعية ومعنى الذات اللذين يميزان الشرقيين من الغربيين يتلاءمان تماما مع المنظومات العقيدية والعمليات المعرفية عند كل منهما. إن الطبيعة الجمعية أو التكاملية للمجتمع الآسيوي تتسق مع نظرة الآسيويين العامة والمتداخلة إلى العالم، ومع إيمانهم بأن الأحداث شديدة التعقد والتحدد بسبب عوامل كثيرة. وتبدو الطبيعة



الفردية أو المستقلة للمجتمع الغربي متسقة مع تركيز الغرب على الموضوعات الجزئية في استقلال عن سياقها، وكذا مع إيمان الغربيين بأن بإمكانهم معرفة القواعد والقوانين الحاكمة للموضوعات ومن ثم يمكنهم التحكم في سلوكها.

وإذا كان الناس يختلفون حقا، وبعمق، في منظوماتهم الفكرية - نظرتهم إلى العالم والعمليات المعرفية - إذن فإن اختلافات الناس من حيث المواقف والتوجهات والمعتقدات، بل من حيث القيم والأفضليات يمكن ألا تكون مجرد مدخلات وتعاليم مختلفة، بل هي على الأصوب نتيجة حتمية لاستخدام أدوات مختلفة في فهم العالم. وإذا كان هذا صحيحا فإن الجهود المبذولة لتحسين التفاهم الدولي لن تحقق النتائج المرجوة منها بالكامل.

وجدير بالذكر هنا أن التعليق الذي قال به تلميذي على نحو عابر، وكذا اهتمامي بعلم النفس الثقافي علاوة على برنامج القراءة الذي شجعني عليه، كل هذا جعلني أشرع في برنامج بحثي جديد. بدأت بسلسلة من الدراسات المقارنة مستعينا في العمل بعدد من تلامذتي في جامعة ميتشيجان ثم مع بعض زملائي في جامعة بكين وجامعة كيوتو والجامعة الوطنية في سيئول والمعهد الصيني لعلم النفس. وتوضح البحوث وجود فوارق كبيرة حقيقية في طبيعة عمليات الفكر الآسيوية والأوروبية، وتمثل الدلائل دعما لدعاوى الباحثين من غير المعنيين بعلم النفس، وتوسع من نطاق هذه الدعاوى لتشمل كثيرا من الظواهر العقلية الجديدة على نحو يثير الدهشة. علاوة على هذا تمثل الدراسات المسحية الاستقصائية وبحوث المشاهدات توثيقا يؤكد الفوارق في الممارسات الاجتماعية التي تتشابك مع فوارق عادات الفكر. وهيأ لنا البحث الجديد معلومات كافية لم تيسرها لنا الدلائل السابقة، وهكذا أصبح بالإمكان صوغ نظرية عن طبيعة هذه الاختلافات بما في ذلك أسباب نشأتها، وآثارها ودلالاتها بالنسبة إلى الإدراك والتفكير العقلي في الحياة اليومية وكيف تؤثر في العلاقات بين الناس من أبناء الثقافات المختلفة.

ويسمح لنا البحث بالإجابة عن أسئلة كثيرة عن العلاقات الاجتماعية وعن الفكر، وهي أسئلة أثارت، وعلى مدى زمني طويل، حيرة المعلمين والمؤرخين وعلماء النفس وفلاسفة العلم. ولا ريب في أنه لا الآراء النمطية الشائعة عن الاختلاف بين الشرق والغرب ولا حتى آراء الباحثين الأكثر تقدما وإحكاما



يمكنها أن تجيب عن هذه الأسئلة أو أن تعالج وتبحث الاكتشافات الجديدة. إن الألغاز والملاحظات الجديدة يتسع نطاقها لتشمل ميادين كثيرة مختلفة. نذكر منها على سبيل المثال:

العلم والرياضيات: لماذا تميز الصينيون القدماء في علم الجبر والحساب دون الهندسة التي كانت قلعة الإغريق؟ لماذا يتميز الآسيويون المحدثون في الرياضيات والعلوم بينما كان حصادهم في العلم الثوري أقل من الغربيين؟

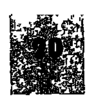
الانتباه والإدراك: لماذا أبناء شرق آسيا أقدر من الغربيين على رؤية العلاقات بين الأحداث والوقائع؟ ولماذا يجد أبناء شرق آسيا أن من الصعب عليهم نسبيا عزل موضوع ما عن محيطه؟

الاستدلال السببي: لماذا الغربيون أميل إلى تجاوز أثر السياق في سلوك الأشياء بل الناس؟ ولماذا الشرقيون أميل إلى «الانحياز للنظر إلى الحادث بعد وقوعه» مما يسمح لهم بالاعتقاد بأنهم «يعرفونه دائما»؟

تنظيم المعرفة: لماذا أطفال الغرب يتعلمون الأسماء بدرجة أسرع كثيرا من الأفعال، بينما أطفال الشرق يتعلمون الأفعال بدرجة أسرع كثيرا من الأسماء؟ ولماذا ينزع أبناء شرق آسيا إلى تجميع الأشياء والأحداث تأسيسا على كيفية ارتباطها بعلاقات بعضها مع بعض، بينما الغربيون أميل إلى الاعتماد على المقولات والفئات؟

التفكير العقلي: لماذا الغربيون أميل إلى استخدام المنطق الشكلي عند التفكير عقلانيا في الأحداث اليومية، ولماذا إصرارهم على المنطق حتى وإن أدى أحيانا إلى وقوعهم في أخطاء؟ ولماذا يميل الشرقيون ميلا كبيرا إلى التفكير في ضوء القضايا واضحة التناقض وكيف يساعدهم هذا أحيانا على الوصول إلى الحقيقة؟

أنَّى لنا البحث عن أسباب هذه المنظومات الفكرية على الرغم من الاختلاف الواسع بينها؟ هل تكمن الأسباب في البيولوجيا، أم اللغة، أم الاقتصاد، أم المنظومات الاجتماعية؟ وما الذي يحافظ على بقائها حتى اليوم؟ هل الممارسات الاجتماعية، أم التعليم، أم القصور الذاتي؟ وإلى أين نحن نمضي بهذه الاختلافات؟ ترى هل ستبقى على مدى خمسين أو خمسمائة سنة أخرى من الآن؟



قادني البحث إلى الاعتقاد بأن ثمة نهجين مختلفين أشد الاختلاف في النظر إلى العالم قد ترسخا على مدى آلاف السنين. ويتضمن هذان النهجان علاقات ونظرات اجتماعية بينهما اختلاف عميق بشأن طبيعة العالم وعمليات الفكر المميزة. وإن كلا من هذين التوجهين ـ الغربي والشرقي ـ منظومة داعمة لنفسها ومتوازنة ذاتيا. وتعزز الممارسات الاجتماعية النظرة إلى العالم عند كل منهما، كما أن النظرة إلى العالم تفرض على أهلها عمليات فكر ملائمة لها؛ ويلاحظ أيضا أن كلا من عمليات الفكر تبرر النظرة إلى العالم وتدعم الممارسات الاجتماعية الخاصة بها. وأن فهم هذه المنظومات الاتزانية homeostatic له آثاره ودلالاته بشأن إدراك الطبيعة الأساسية للعقل، وبشأن المعتقدات عن الأسلوب الأمثل للتفكير وكذا بشأن الإستراتيجيات التعليمية الملائمة للناس على اختلاف مشاربهم.

ولعل الأهم من هذا كله أن الكتاب له دلالاته بشأن الكيفية التي يمكن بها للشرق والغرب أن يمضيا معا في علاقات أفضل، تأسيسا على فهم متبادل للفوارق الذهنية. إن كثيرين في بلدان الشرق يؤمنون، ولهم بعض الحق، بأن القرون الخمسة الماضية للهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية الغربية جعلت الغرب متغطرسا فكريا ومعنويا. وسوف يكون هذا الكتاب قد حقق إنجازه المنشود لمصلحة القراء الغربيين إذا ما حفزهم على التفكير في إمكان وجود نهج آخر صائب للتفكير في العالم. وأن بالإمكان أن يفيد كمرآة تساعدهم على تفحص ونقد معتقداتهم، وعادات تفكيرهم العقلي. وسوف يحقق الكتاب الغرض منه بالنسبة إلى القراء الآسيويين إذا ما شجعهم على التفكير في إمكانية أخرى مكملة ـ هذا على الرغم من أن حاجتهم إلى هذا أقل ضرورة وإلحاحا ـ ذلك لأن غالبية المفكرين الغربيين يألفون، بالفعل وإلى درجة كبيرة، أساليب الغرب في التفكير.

وتوخيا لتأكيد دفعي بوجود منظومات إدراك وفكر مختلفة أشد الاختلاف ـ وأنها كذلك منذ آلاف السنين ـ اعتمدت على براهين تاريخية وفلسفية، كما اعتمدت أيضا على بحوث علمية حديثة، من بينها الإثنوجرافيا والدراسات المسحية الاستقصائية والبحوث المعملية. ففي الباب الأول أعرض أرسطو وكونفوشيوس كمثالين لمنظومتي فكر مختلفتين. وهذان الفيلسوفان من دون ريب عملا أيضا على ترسيخ عادات الفكر التي كانت من قبل إحدى سمات



مجتمعاتهما. أما البابان الثاني والثالث فيهدفان إلى بيان أن الاختلافات في الممارسات الاجتماعية، التي نشهدها في المجتمعات الحديثة، سوف تميل إلى الإبقاء على بل وإلى خلق تلك الأنماط المختلفة، حتى إن لم تكن موجودة في الأزمنة القديمة. ونجد لب الكتاب في الأبواب من الرابع وحتى السابع. وتعرض هذه الأبواب الدليل على أن المعتقدات الأساسية عن طبيعة العالم، وكذا سبل إدراكها والتفكير العقلي بشأنها، أمور تختلف اختلافا جذريا بين الشعوب الحديثة. وينبني الدليل في قطاع عريض منه على بحث معملي أدرته مع تلامذتي وزملائي، مستخدمين مجموعة متباينة من الاختبارات لدراسة كيف يدرك الناس وكيف يتذكرون ويفكرون. ويحدد الباب الثامن في جلاء بعض الدلالات التي تعني علم النفس والفلسفة والمجتمع بشأن الفوارق العميقة بين منظومات الفكر التي اكتشفناها. وتمثل الخاتمة تأملا حول الغاية التي سنمضي إليها - إلى تلاق أم إلى استمرار واطراد الفرقة بل وزيادتها حدة وكثافة.

ورغبة مني في تهيئة مسرح الحديث وتيسيره قليلا من أجل البحث أوضح ما يلي: عندما أتحدث عن شرق آسيا فأنا أعني الصين والبلدان التي تأثرت بثقافة الصين تأثرا قويا، وبخاصة اليابان وكوريا. (وسوف أختصر أحيانا «الشرق آسيويون» إلى «الشرقي» وأحيانا إلى «آسيوي». وعندما أتحدث عن الأمريكيين والأوروبيين فأنا أعني السود والبيض والخلاسيين «الهسبانيين» - أي شخص ما عدا من هم من سلالة آسيوية. وإن هذا الاستعمال الذي قد يبدو غريبا إلى حد ما يمكن تبريره على أساس أن كل من ولد ونشأ وتربى في أمريكا تعرض لمؤثرات ثقافية متماثلة، وإن لم تكن بطبيعة الحال متطابقة. وواضح أن هذا يصدق أيضا على الأمريكيين الآسيويين. لكننا في بعض البحوث التي نعرض لها هنا درسناهم، كجماعة منفصلة، ذلك لأننا توقعنا منهم أن يكونوا أكثر تماثلا مع الآسيويين على عكس ما توقعناه بالنسبة إلى الأمريكيين - الذين هم من أرومات أخرى - وهذا ما ثبت لنا فعلا.

أخيرا أود أن أعتذر مقدما إلى من سوف يقلقهم أن يروا بلايين من الناس نسمهم بمصطلح واحد «الشرقي آسيوي» ونتعامل معهم وكأنهم متطابقون. وأنا لا أقصد الإيحاء إلى أنهم حتى قريبون من أن يكونوا متطابقين. إن الثقافات العامة والفرعية في الشرق تختلف عن بعضها اختلافا بينا مثلما



هي حال الغرب. ولكن مع هذا فإن الوصف العام «الشرقي آسيوي» له ما يبرره. إذ أوضحت سبل اجتماعية وسياسية كثيرة جدا أن ثقافات هذه المنطقة متماثلة بعضها مع بعض من بعض النواحي العامة ومختلفة عن البلدان الغربية. وأعرف أن هذا لن يرضي بعض من هم على دراية واسعة بالشرق. بيد أنني أرجوهم أن يتحملوا قليلا معي. إن بعض التعميمات تجد ما يبررها على الرغم من كثرة الفوارق والاختلافات. وإن بالإمكان عمل تناظر مع دراسة الفصائل اللغوية. إن اللغات الهندو ـ أوروبية تختلف عن بعضها بطرق لا حصر لها كما تختلف اللغات الشرق آسيوية بالقدر نفسه تقريبا. ومع هذا فإن التعميمات بشأن الفوارق بين اللغات الهندو ـ أوروبية واللغات الشرق آسيوية ـ كمجموعة ـ أمر ممكن ومفيد. كذلك، وكما سوف يتضح لنا فيما بعد، أن بعض تلك التعميمات رفيعة المستوى تماثل بدرجة لافتة للنظر بعض الاختلافات التي كشفت عنها العمليات الإدراكية والفكرية موضوع دراستنا في هذا الكتاب.





١ القياس المنطقي والطاو

أكثر من بليون نسمة في عالم اليوم يدعون أنهم حملة التراث الفكري لليونان القديمة. وأكثر من بليونين هم ورثة التقاليد الصينية القديمة في الفكر. وواضح أن فلسفات وإنجازات الإغريق والصينيين منذ ٢٥٠٠ سنة كانت مختلفة بعضها عن بعض اختلافا بينا، بقدر ما اختلفت أيضا الهياكل الاجتماعية والمفاهيم. وآمل في هذا الباب أن أبين الجوانب الفكرية لكل مجتمع لتبدو مفهومة في ضوء خصائصه الاجتماعية.

الإغريق القدامى والفعالية

«لكي تكمش شيئا
أنت بحاجة إلى أن تبسطه أولا،
ولكي تُضعف شيئا،
أنت بحاجة إلى أن تقويه أولا
ولكي تمحو شيئا
يلزم أن تجعله يزدهر أولا
ولكي تأخذ شيئا
يلزم أن تعطيه أولا

طاو تي شنج ٣٦

يوجد في بلدة إبيدوروس في اليونان مسرح قديم يتسع لأربعة عشر ألف متفرج. بُني المسرح على سفح تل، ويحيط به منظر رائع لجبال وأشجار سرو. ومجهز بأدوات سمعية بحيث من الممكن أن تسمع حفيف ورقة تسقط على منصة المسرح من أي موقع كان داخل المسرح. واعتاد الإغريق في عصرهم الكلاسيكي القديم منذ القرن السادس وحتى الثالث قبل الميلاد أن يسافروا لفترات طويلة على الرغم من قسوة



الظروف رغبة منهم في مشاهدة مسرحيات أو الاستماع إلى قصائد من الشعر في إبيدوروس ابتداء من الفجر وحتى الغسق لأيام طويلة وهم جالسون صفوفا.

ويبدو لنا اليوم أن عشق الناس للمسرح ورغبتهم في تحمل بعض المشاق في سبيل إشباع هوايتهم ليسا بالأمر الغريب المثير، ولكن إذا تأملنا الحضارات الكبرى في عصرنا، ومن بينها الفارسية والهندية والشرق أوسطية، وكذا الصين نجد أن بالإمكان أن نتصور أن الإغريق هم الذين يشعرون بأنهم على قدر كاف من الحرية، وقدر كاف من الثقة من حيث القدرة على التحكم في حياتهم وأن يقطعوا مسافات طويلة وفاء لغرض واحد ووحيد وهو الاستمتاع الجمالي. لقد عاش معاصرو الإغريق في ظل مجتمعات حكم فردي مطلق «أوتوقراطي»، وإن تباينت درجاته، حيث كانت إرادة الملك هي القانون وأن الخروج عليها يعني الحكم على من تحدى إرادته بالإعدام. ولم تكن من مصلحة الحاكم أن يسمح لرعاياه بأن يطوفوا داخل الأقاليم، حتى إن كانت روابط رعاياه بالأرض والنظم الروتينية الزراعية قد سمحت لهم بأن يتخيلوا أنفسهم وقد سافروا في رحلات طويلة لأغراض الترويح.

وإن ما يثير الدهشة بالقدر نفسه، حتى بالنسبة إلينا اليوم، أن أمة الإغريق عن بكرة أبيها اعتادت أن تلقي أدوات العمل جانبا ـ بما في ذلك أن تلقي السلاح إذا ما كانت الدول المدن في حرب بعضها مع بعض ـ حتى تتاح لها فرصة المشاركة في الأولمبياد سواء كأبطال رياضيين أو جمهور مشاهدين.

والحقيقة أن الإغريق دون الشعوب القديمة جميعها، بل دون غالبية شعوب الأرض الآن، يتمتعون بحس قوي بالفعالية الشخصية ـ الإحساس بأنهم مسؤولون عن حياتهم، وأحرار في العمل حسب اختيارهم. ونجد أن أحد تعريفات السعادة عند الإغريق هو أنها تتألف من قدرة المرء على ممارسة إمكاناته وقدراته لتحقيق التميز والكمال في صورة حياة لا تعرف الضغوط والقيود.

واقترن الحس الإغريقي بالفعالية الشخصية بحس قوي بالذاتية الفردية. وسواء أكان الإغريق أم العبريون هم الذين ابتكروا النزعة الفردية ـ وهو موضوع خلافي ـ إلا أنه مما لا شك فيه أن الإغريق رأوا أنفسهم أفرادا



متفردين لهم صفاتهم وأهدافهم المتميزة. ويصدق هذا على أقل تقدير بالنسبة إلى عصر هوميروس في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد. ونلحظ أن كلا من الأرباب والبشر في الأوديسة والإلياذة لهم شخصياتهم التي اكتملت صورتها واكتمل تفردها. علاوة على هذا كانت الفوارق بين الأفراد موضوعا ذا أهمية جوهرية في نظر فلاسفة الإغريق.

وأدى حس الإغريق بالفعالية إلى إذكاء تراث من جدل حامي الوطيس. ويوضح لنا هوميروس أن الإنسان إنما تحدده قدرته على الجدل بالقدر نفسه الذي تحدده فيه براعته القتالية كمحارب. إن عضو مجلس العموم عليه أن يتحدى أي إنسان حتى إن كان الملك، ولا يقنع بالعيش ليروي حكاية ولكنه ينتزع بين الحين والحين الجمهور إلى صفه. وجرت المعارك الجدلية في الميدان العام وفي الجمعية السياسية بل في الثكنات العسكرية. وإن ما تفردت به الحضارات القديمة أن القضايا الكبرى للدولة، وكذا المسائل العامة، كانت موضوعا للمناقشة العامة ولاتخاذ قرار بشأنها بين الجمهور وتدور معارك خطابية بلاغية دون فرض سلطة علوية. ولم تعرف بلاد الإغريق الطغاة كثيرا، وإذا حدث ان استولى طاغية على السلطة سرعان ما تبدله طبقة الأغنياء «الأوليجاركية» أو الديموقراطيات ابتداء من القرن الخامس ق.م. وتوافرت لدساتير بعض المدن آليات للحيلولة دون أن يصبح رجال الحكم طغاة، مثال ذلك أن مدينة دريروس في كريت حظرت على شخص ما تولي منصب «كوسموس»، أي حاكم مدينة، إلا بعد مضي عشر سنوات منذ توليه آخر منصب له.

ومن الأمور المثيرة أيضا بالقدر الذي أثارنا به عشق الإغريق للحرية والفردية إحساسهم بالفضول المعرفي إزاء العالم. ذهب أرسطو إلى أن الفضول المعرفي هو الخاصية الفريدة التي تحدد البشر. وقال القديس لوقا عن الأثينيين في فترة لاحقة: «يقضون وقتهم في رواية جديد أو الاستماع إلى جديد فقط، ولا شيء آخر». ويختلف الإغريق اختلافا شاسعا عن معاصريهم من حيث عشق تأمل طبيعة العالم الذي وجدوا أنفسهم فيه وابتكروا نماذج له. وصاغوا هذه النماذج على أساس التصنيف الفئوي للأشياء والموضوعات والأحداث، وتوليد قواعد وقوانين لها اتسمت بدقة كبيرة تكفي لوصفها وتفسيرها على أساس نسقي. وحدد هذا خصائص ما أنجزوه من تقدم في



مجالات - وقال البعض ما ابتكروه من مجالات - الفيزياء والفلك وهندسة البدهيات والمنطق الصوري والفلسفة العقلية والتاريخ الطبيعي والإثنوجرافيا.

وإذا كانت الحضارات الكبرى المعاصرة للإغريق ومن قبلهم من مثل حضارة ما بين النهرين والحضارة المصرية، ثم بعد ذلك حضارات المايا، حققت مشاهدات نسقية في كل المجالات العلمية فإن الإغريق وحدهم هم الذين حاولوا تفسير مشاهداتهم في ضوء مبادئ أساسية. وجدير بالذكر أن كلمة مدرسة التي نستعملها الآن مشتقة من الكلمة الإغريقية سكولي Scholè والتي تعني «فراغ» أو وقت الفراغ. وتعني كلمة فراغ عند الإغريق معاني كثيرة من بينها حرية البحث المعرفي. وكان تجار أثينا يسعدون إذ يرسلون أبناءهم إلى المدرسة حتى يتسنى لهم إشباع فضولهم المعرفي.

الصينيون القدامى وعقيدة التناغم

إذا كانت عبارة «مناسبة خاصة» تعني بالنسبة إلى الإغريق القدامى حضور مسرحيات وندوات إلقاء الشعر، فإن المناسبة الخاصة عند الصينيين في العصر نفسه قد تعني فرصة لزيارة الأصدقاء والأقارب. اعتاد الصينيون ممارسة ما يسمى «شوان مين» chuan men التي تعني حرفيا «لتكن الأبواب سلسلة». وكان من العادات الشائعة بوجه خاص في أيام العطلات الكبرى القيام بزيارات تعبيرا عن الاحترام للمضيفين. ويستهلون الزيارة بمن يرونهم أهم، ثم من يتلونهم من حيث الأهمية بالتدريج.

والتناغم هو المقابل الصيني للفعالية عند الإغريق. إذ إن كل صيني هو أولا وقبل كل شيء عضو في جميع أو في عديد من الجمعيات: العشيرة والقرية ثم الأسرة بخاصة. ولم يكن الفرد، كما هي الحال عند الإغريق، وحدة لها كيانها وذاتيتها المتفردة وسط أوضاع اجتماعية. وإنما كان كما عبر الفيلسوف هنري روزمونت: «... لم يكن عند الكونفوشيين القدامى الأنا المنعزلة المستقلة التي يمكن التفكير فيها مجردة: أنا جماع الأدوار التي أحياها في علاقة مع آخرين محددين... وإذا نظرنا إلى هذا على نحو جمعي فإنهم ينسجون لكل منا نمطا فريدا لذاتية شخصية، بحيث إذا ما تغير بعض أدواري سوف يتغير الآخرون بالضرورة مما يجعلني حرفيا شخصا آخر».



وكان اهتمام الصينيين بقضايا التحكم في الآخرين أو في البيئة أقل من اهتمامهم بالتحكم في النفس، ومن ثم الوصول إلى أدنى حد ممكن من الاحتكاك والتشاحن مع الآخرين داخل الأسرة وفي القرية، وبذا يكون أيسر على المرء الطاعة والإذعان لمتطلبات الدولة وطاعة أولي الأمر من الحكام. ولم يكن المثل الأعلى للسعادة، كما كانت الحال عند الإغريق، حياة تسمح بالممارسة الحرة لمواهب متميزة، بل إشباع متطلبات صريحة للبلد ومشتركة بين الجميع على نحو متناغم داخل شبكة اجتماعية. وبينما تعرض زهريات الإغريق وأقداح النبيذ صورا لمعارك ومباريات رياضية ولحفلات سكر وعربدة نجد الرسوم وأواني الخزف الصينية تصور مشاهد لأنشطة الأسرة وملذات ريفية.

وما كان للصينيين أن يشعروا بأنهم إمعات لا حول ولا طول لهم عند سادة لهم أو بين أبناء الأسرة. وإنما نجد العكس تماما إذ كان لديهم حس بالفعالية الجمعية. إن المنظومة الأخلاقية الرئيسية في الصين وهي الكونفوشية، هي في جوهرها منظومة محكمة التعبير عن الالتزامات المتبادلة بين الإمبراطور والرعية، وبين الأبوين والابن، وبين الزوج والزوجة، وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، وبين الصديق والصديق. صاغ المجتمع الصيني الفرد بحيث يشعر بأنه حقا، وإلى حد كبير، جزء من كيان اجتماعي حميد سمح كبير الحجم معقد التركيب، حيث الالتزامات والواجبات المتبادلة الواضحة تمثل مرشدا وهاديا للسلوك الأخلاقي القويم. ويتمثل جوهر الحياة اليومية الصينية في أداء الأدوار المحددة للمرء داخل منظومة تراتبية محكمة التنظيم. ولم يعرفوا نظيرا للحس الإغريقي بالحرية الشخصية. وكانت الحقوق الفردية في الصين هي «مشاركة» المرء في حقوق المجتمع في مجمله، وليست امتيازا أو إجازة للمرء لكي يعمل ما يحلو له.

إن أي شكل من أشكال المواجهة أو الجدل داخل أي وحدة اجتماعية لم يكن يصادف تشجيعا. حقا عرفت الصين عصرا يسمى عصر «المدارس المائة» امتد من عام ٦٠٠ ق.م. حتى عام ٢٠٠ ق.م. وشهد هذا العصر جدالا رفيع المستوى دار بين الفلاسفة على أقل تقدير، كما أن أي مظهر للشقاق الاجتماعي لم يصادف تشجيعا. وكتب فيلسوف العلم البريطاني جيوفري

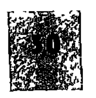
لويد فقال: «نجد في الفلسفة وفي الطب وفي أي مجال آخر نقدا لوجهات النظر الأخرى... (ولكن) الصينيين كانوا أكثر تقبلا وسماحة من الإغريق، إذ يرون أن الآراء الأخرى لديها شيء تقوله لهم...».

إن موسيقاهم أحادية الصوت تعكس اهتمام الصين بالوحدة. ونلحظ أن المغنين يغنون جميعا لحنا واحدا، وتعزف الآلات الموسيقية نغمات واحدة في الوقت نفسه. ومن ثم لا غرابة إذ نجد أن الإغريق هم الذين ابتكروا الموسيقى متعددة الأصوات «البوليفونية» حيث نجد أدوات مختلفة وأصواتا مختلفة تشارك معا في أدوار مختلفة لكل منها.

وحري ألا نخلط بين التناغم الاجتماعي الصيني والامتثال أو التماثلية conformity. إذ نلاحظ أن كونفوشيوس، على العكس، امتدح رغبة السيد المحترم في أن يتناغم، ومايز بينه وبين حاجة الشخص الوضيع الشأن إلى الامتثال. ونقرأ في نص كونفوشي كلاسيكي اسمه جوجوان zuozhuan تمييزا في صورة مجازية عن الطهي. إن الطهي الجيد يمزج الأفاويه ومكسبات النكهة ويخلق شيئا متناغما ولذيذا. لن تختفي أي نكهة تماما كما أن المذاق الجميل مرده إلى إسهامات كل نكهة في تمازجها معا وتمايزها في آن واحد.

واختلف النهج الصيني في فهم العالم الطبيعي عن نظيره لدى الإغريق، مثلما اختلف نهجهم لفهم ذواتهم. اعتقد الصينيون في فترة باكرة من تاريخهم، وقتما عمدوا إلى دراسة السماوات، أن الأحداث الكونية من مثل الشهب والخسوف والكسوف يمكن أن تكون نبوءة بوقائع مهمة سوف تشهدها الأرض من مثل ميلاد أباطرة. ولكنهم بعد أن اكتشفوا الاطراد المنتظم لهذه الأحداث عزفوا عن الاهتمام بها، ناهيك عن بناء نماذج منها.

ويعوز الصينيين الشعور بالدهشة، وهو ما نراه واضحا بخاصة في ضوء حقيقة أن الحضارة الصينية تفوقت كثيرا على حضارة الإغريق تقانيا. إذ يرجع الفضل إلى الصينيين في أنهم أصحاب الاختراع الأصلي، أو أنهم اخترعوا - في استقلال - منظومات الري والجر والخزف والبوصلة المغناطيسية والركاب وعربة اليد، والحفر العميق ومثلث باسكال ومحابس المياه على القنوات pound locks، والإبحار الطولاني (من طرف إلى آخر) fore-and-aft sailing والأهوسة، وقائم التوجيه الخلفي للدفة Sternpost Rudder والقارب ذي عجلة التجديف ورسم الخرائط الكمي وتقنيات المناعة،



والرصد الفلكي للنجوم، وأجهزة تسجيل الزلازل وعلم الأصوات. ولقد كان كثير من هذه الإنجازات التقانية قائما ويعمل في الوقت الذي لم يكن لدى الإغريق منها شيء.

ولكن نقول ما قاله الفيلسوف هاجيمي تاكامورا: إن الإنجازات الصينية المتقدمة تعكس عبقرية الممارسة العملية وليس الولع بالنظرية العلمية والبحث العلمي. وقال في هذا الصدد الفيلسوف دونالد مونرو المتخصص في الدراسات الصينية «لا نجد في الكونفوشية فكرا عن معرفة لا تستلزم عملا يترتب عليها».

الجوهر أم التلاشي؟

الفلسفة في اليونان القديمة والصين

عكست فلسفات الإغريق والصين ممارستهم الاجتماعية المتمايزة. عني الإغريق بفهم الطبيعة الأساسية للعالم، وإن اختلفت سبلهم إلى هذا باختلاف حقب التاريخ. ونرى على سبيل المثال أن فلاسفة أيونيا (التي تضم تركيا وصقلية وجنوب إيطاليا) في القرن السادس ق.م. كانوا تجريبيين حتى النخاع في توجههم، وبنوا نظرياتهم على أساس من الملاحظة الحسية. ولكن شهد القرن الخامس ق.م. نقلة في اتجاه التجريد وعدم الثقة في الحواس. وذهب أفلاطون إلى أن المثل ـ الصور forms - ideas لها حقيقة أصيلة مفارقة، وأن العالم يمكن فهمه عن طريق مناهج منطقية تصل بنا إلى معناها دون الرجوع إلى عالم الحواس. وإذا تناقضت الحواس مع نتائج المبادئ الأساسية الأولى والمنطق فإن علينا أن نسقط الحواس.

وعلى الرغم من أن أرسطو لم يضفِ واقعية على الصور إلا أنه ذهب إلى أن الصفات لها حقيقتها الواقعية المتمايزة عن تجسداتها العيانية في الموضوعات. ورأى أن من المجدي ألا نقصر كلامنا على موضوع صلب، بل أن يشمل الصفات في المجرد ـ الصلابة والبياض ... إلخ ـ وأن تتوافر لنا نظريات عن هذه المجردات. إن الخواص المركزية والأساسية التي تشكل شرطا ضروريا لوجود موضوع ما إنما قوامها «جوهر» هذا الموضوع أو الشيء وهو الجوهر الثابت الذي لا يتغير حسب تعريفه. إذ لو أن جوهر موضوع ما تغير فإنه بذلك يكف عن أن يكون هو عين الموضوع وإنما يكون

شيئا آخر. وإن خواص موضوع ما حين يطرأ عليها تغير من دون أن تغير جوهر الموضوع تسمى خواص «عرضية». مثال ذلك مؤلف موسيقي تعوزه الآن على نحو مؤسف الموهبة الموسيقية، ولكنه إذ يصبح فجأة موسيقيا موهوبا فإننا، على الرغم من هذا التغير، سنظل نفكر في أنه هو الشخص عينه. معنى هذا أن الموهبة الموسيقية خاصية عرضية، وأن التغير الذي طرأ ليس تغيرا في جوهر الشخص. وها هنا تختلف الفلسفة الإغريقية كثيرا عن الفلسفة الصينية، من حيث إنها كانت معنية في الأساس بمسألة حقيقة الخواص التي تجعل من الموضوع هو ذاته، وأي الخواص عرضة للتغير من دون أن تغير طبيعة الموضوع.

وشجعت لغة الإغريق ذاتها التركيز على الصفات وتحويل الصفات إلى مجردات. إذ كما نلحظ في اللغات الهند ـ أوروبية الأخرى، أن كل صفة يمكن إضفاء وضعية الاسم عليها بإضافة المكافئ الإنجليزي للاحقة ness من مثل أبيض white ـ البياض whiteness وشفوق kind ـ الشفقة kindness. واعتاد فلاسفة الإغريق كنظام أو روتين في تفكيرهم أن يحللوا صفات موضوع ما ـ شخص أو مكان أو شيء أو حيوان... إلخ ـ وتصنيف فئات الموضوع على أساس صفاته المجردة. ويرون هذه سبيلهم إلى فهم طبيعة الشيء، وعلة أفعاله، تأسيسا على القواعد الحاكمة للمقولات أو التصنيفات الفئوية. ومن ثم يتعين أن نلحظ ونسجل صفات شهاب ما ويتعين تصنيف الموضوع إلى مستويات مختلفة من التجريد ـ هذا الشهاب، شهاب ما، جرم سماوي، موضوع متحرك. كذلك فإن القواعد والقوانين على مختلف مستويات التجريد يتعين توليدها كفروض، وأن نفسر سلوك الشهاب في ضوء القواعد والقوانين التي نرى أنها الفاعلة والمؤثرة عند مستوى تجريدي محدد.

ولكن لا يزال الشيء الأساسي الأهم بالنسبة إلى الفلسفة الإغريقية هو مخططها الذي يمثل قاعدة خلفية للتفكير، وهو النظر إلى الموضوع «في استقلال» باعتبار هذا هو المحور الصحيح للانتباه والتحليل. اعتادت الغالبية العظمى من الإغريق النظر إلى المادة باعتبارها وجودا منفصلا متجزئا ـ مؤلفا من موضوعات غير مترابطة ـ تماما شأن البشر، إذ يرونهم منفصلين بعضهم عن بعض، ونعتبرهم كليات متمايزة. ولا نكاد نتخذ الموضوع نقطة انطلاق حتى تتداعى أمور كثيرة تلقائيا: صفات الشيء تبدو واضحة بارزة؛



وتصبح الصفات قاعدة لتصنيف الموضوع؛ وتصبح المقولات أي الفئات التي نصنف إليها الشيء هي الأساس لبناء قاعدة أو قانون؛ ونفهم الأحداث بعد هذا باعتبارها نتائج لسلوك الموضوعات وفقا للقواعد والقوانين. وأعني هنا بكلمة «الموضوعات» كل ما هو بشري وغير بشري، هذا على الرغم من أن طبيعة العالم الفيزيقي كانت في الحقيقة من أهم ما يشغل بال فلاسفة الإغريق. حقا عُني الإغريق بالعلاقات الإنسانية وبالسلوك الأخلاقي ولكن لم تكن لهما الصدارة مثلما كانا في نظر الصينيين.

وجه آخر مميز ولكنه مهم في الفلسفة اليونانية، وهو فكرة تفيد بأن العالم في أساسه سكوني «إستاتيكي» غير متغير. حقا إن هيرقليطس فيلسوف القرن السادس ق.م. وغيره من قدامى الفلاسفة أبدوا اهتماما بالتغير. (المرء لا ينزل النهر نفسه مرتين لأن الإنسان مختلف والنهر مختلف). ولكن مع حلول القرن الخامس أصبح التغير غير ذي موضوع والثبات هو الفكرة السائدة. و«برهن» بارمنيدس، بخطوات يسيرة محدودة، على أن التغير مستحيل. قولنا إن شيئا ما غير موجود عين التناقض. اللاوجود تناقض ذاتي، ولذلك فإن العدم ـ اللاوجود لا يمكن أن يكون موجودا. وإذا كان العدم لا يكون موجودا إذن لا شيء يمكن أن يتغير، ذلك لأنه إذا افترضنا أن الشيء «١» سيتغير إلى الشيء «٢» إذن فإن الشيء «١» لن يكون موجودا! وفرض بارمنيدس خيارا أمام فلاسفة الإغريق: عليهم أن يثقوا إما في المنطق أو في أحاسيسهم. والتزموا جانب المنطق منذ أفلاطون فصاعدا.

وأثبت زينو تلميذ بارمنيدس، بطريقة مماثلة، أن الحركة مستحيلة. وأوضح هذا من خلال برهانين. أحدهما برهان اشتهر به باسم برهان السهم. إن السهم لكي يصل إلى هدفه يلزم أولا أن يقطع نصف المسافة على الطريق إلى الهدف، ثم نصف النصف أي من موقع هذا النصف وحتى الهدف، ثم نصف المسافة بين هذا الموقع والهدف... وهكذا دواليك. ولكن توالي الأنصاف على هذا النحو يعني، بطبيعة الحال، أن السهم لن يصل إلى الهدف. وهكذا ينتهي بنا البرهان البصري إلى النقيض، بما يعني أن الحركة لا تحدث. أما «البرهان» الآخر فكان أبسط. الشيء إما أن يكون أو لا يكون في مكانه. إذا كان في مكانه فإنه لا يمكنه أن يتحرك. إذ من المستحيل أن



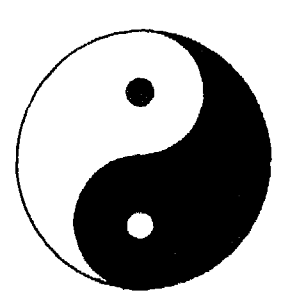
يكون شيء في مكانه، ولذلك لا شيء يتحرك. ويقول في هذا الصدد عالم الاتصالات روبرت لوجان «أصبح الإغريق عبيدا للمسار الخطي لمنطقهم أي أسرى توجه إما ـ أو في المنطق».

لم يكن جميع فلاسفة الإغريق مجادلين مماحكين بالمنطق للبرهنة على استحالة التغير، ولكن ثمة خاصية سكونية «إستاتيكية» حتى في التفكير العقلي عند أرسطو. اعتقد أرسطو على سبيل المثال أن جميع الأجرام السماوية ثابتة لا تتحرك، إنها كرات سماوية كاملة الوجود، وأنه على الرغم من أن الحركة تقع، والأحداث تجري إلا أن جوهر الأشياء هو عدم التغير. علاوة على هذا أن الفيزياء عند أرسطو مغرقة في المسار الخطي للتفكير. والملاحظ أن تغير معدل الحركة، ناهيك عن الحركة الدورانية، ليس لها دور كبير في الفيزياء عند أرسطو. (وهذا هو السبب، جزئيا، في أن فيزياء أرسطو كانت خاطئة مضللة). وأذكر هنا أن جوردون كين، وهو عالم فيزياء صديق لي، حدد لي عددا كبيرا من قضايا الفيزياء في كتابات أرسطو. وأكد خطأ الغالبية الساحقة منها. وهذا شيء محير بخاصة لأن فلاسفة أيونيا السابقين على أرسطو رأوا صواب كثير منها».

وتشكل التوجه الصيني إزاء الحياة بفضل مزيج من ثلاث فلسفات مختلفة: الطاوية والكونفوشية، ثم بعد فترة طويلة البوذية. وأكدت كل من هذه الفلسفات التناغم وأعاقت كثيرا التأمل الفكري المجرد.

وثمة قصة صينية قديمة لا تزال شائعة في شرق آسيا حتى اليوم. وهي تحكي قصة فلاح عجوز هرب حصانه الوحيد. ونظرا لأن جيرانه يعرفون أن الحصان عماده الأساسي في حياته فقد توافدوا عليه لمواساته. وقال الشيخ تعبيرا عن رفضه لتعاطفهم معه: «من يعرف منا أين الخير وأين الشر؟» ولكن بعد بضعة أيام عاد حصانه، مصطحبا معه حصانا بريا، وتوافد أصدقاء العجوز مهنئين له. وعبر العجوز عن رفضه لتهانيهم قائلا: «من يعرف منا أين الخير وأين الشر؟ ولم يمض سوى بضعة أيام حتى حاول ابن الرجل العجوز أن يمتطي ظهر الحصان البري حتى أطاح به من فوق ظهره وانكسرت ساقه. وتوافد الأصدقاء تعبيرا عن حزنهم لمأساة الابن. فقال العجوز «من منا يعرف أين الخير وأين الشر؟». ومضت أسابيع محدودة وأتى بعض رجال الجيش إلى القرية لتجنيد جميع القادرين من الرجال إجباريا لخوض حرب ضد مقاطعة مجاورة، وطبيعي أن لم يكن ابن العجوز لائقا للخدمة وأعفي منها.

وتمضي القصة طويلة بقدر ما يسمح صبر جمهور المستمعين. وتعبر عن موقف أساسي لدى الشرقيين من الحياة. العالم دائم التغير وزاخر بالمتناقضات. ونحن لكي نفهم ونقيّم وصفا ما فإن هذا يستلزم وجود نقيضه. وإن ما يبدو لنا حقا الآن ربما يكون نقيضا لما بدا لنا في ظاهره أول الأمر.



علامة الطاو

الين (yin المؤنث والظلمة والسلبي) في حالة تبادل دائم مع اليانج (yang المذكر والضوء والإيجابي). والحقيقة أن الين واليانج موجودان فقط بسبب أحدهما للآخر، وحين يكون العالم في حالة الين فإن هذا علامة على أنه سيصبح في حالة اليانج. وعلامة الطاو التي تعني «الطريق» أو «السبيل» للوجود مع الطبيعة ومع رفاقي البشر، تتألف من قوتين في صورة دوامتين بيضاء وسوداء. ولكن الدوامة السوداء بداخلها نقطة بيضاء، كما أن الدوامة البيضاء بداخلها نقطة سوداء. وإن «اليانج في أصدق حالاته هو اليانج الموجود داخل الين». كذلك «مبدأ الين ـ اليانج هو التعبير عن العلاقة القائمة بين قوتين متعارضتين، ولكنهما متداخلتان بحيث يكمل أحدهما الآخر، ويجعل كل طرف مفهوما أو يخلق الظروف التي تهيئ التبادل بينهما.

ويذكر كتاب الآي شنج I Ching «...التعاسة تناهضها السعادة، والسعادة تتخفى في داخلها التعاسة. من يعرف أين التعاسة أو السعادة؟ لا يقين هناك. الفضيلة تصبح فجأة رذيلة، والخير يغدو فجأة شرا». (الآي شنج ٣٠).

ونقرأ في «الطاو تي شنج» Tao Te Ching: «الثقيل جذر الخفيف.... واللاحركة «الثبات» مصدر كل الحركات» (الفصل ٢٦).



العودة ـ التحرك في دورات لا نهائية ـ هي النمط الأساسي لحركة الطاو.

لكي تكمش شيئا
أنت بحاجة إلى أن تبسطه أولا،
ولكي تُضعف شيئا،
أنت بحاجة إلى أن تقويه أولا
ولكي تمحو شيئا
يلزم أن تجعله يزدهر أولا
ولكي تأخذ شيئا
يلزم أن تعطيه أولا (طاو تي شنج ٣٦)

وعلاوة على تعاليم الطاوية بشأن التناقض والتضاد والتحول والدورات، فقد دعمت ودعت إلى التقدير العميق للطبيعة وللحياة الريفية وللبساطة. إنها ديانة التعجب دهشة والسحر والخيال، وأضفت على الكون معنى من خلال تفسيرها للحلقات التي تربط الطبيعة بشؤون البشر.

وتمثل الطاوية القسط الأكبر من الفلسفة الكامنة وراء فنون العلاج والتطبيب في الصين. إذ جرى تفسير وظائف أعضاء الجسم أو الفسيولوجيا على مستوى رمزي تأسيسا على مبدأ اليانج ـ الين والعناصر الخمسة (التراب والنار والماء والمعادن والخشب). وهذا مصدر التفسيرات التي ينبني عليها السحر والتعاويذ وعقاقير الجنس. وجدير بالذكر أن الكلمة الشائعة على كل لسان هي تشي ch'i وتعني معاني مختلفة «النفس» أو «الهواء» أو «الروح».

ولقد كان كونفوشيوس الذي عاش من ٥٥١ وحتى ٤٧٩ ق.م. فيلسوفا أخلاقيا أكثر منه زعيما دينيا. واهتم أساسا بالعلاقات الصحيحة بين الناس وهي في مذهبه علاقات تراتبية هرمية، وحرص على توضيحها بجلاء. وأشار إلى أن كل عضو داخل العلاقة الثنائية أو الزوجية المهمة (زوج ـ زوجة... إلخ) عليه التزامات واضحة ومحددة تجاه الآخر.

ووصفت الكونفوشية بأنها عقيدة الحس العام. وتؤكد على أنصارها الالتزام جديا بمبدأ الوسط الذهبي ـ عدم الإفراط في أي شيء ـ وأن نفترض أن بين أي موقفين متعارضين وبين أي شخصين متنافسين توجد



الحقيقة على الجانبين. ولكن الكونفوشية في الحقيقة شأن الطاوية كانت أقل اهتماما بالبحث عن الحقيقة في شكلها المجرد وإنما أكثر اهتماما بالطاو - الطريق أو السبيل - للحياة في العالم.

وتؤكد الكونفوشية على الرفاه الاقتصادي والتعلم. المرء يعمل لا من أجل منافع ذاتية بل من أجل أسرة بأكملها. ونجد في الحقيقة أن مفهوم التقدم الذاتي، كنقيض للتقدم الأسري، مفهوم غريب على الثقافات التي أشربت التوجه الكونفوشي. إن شابا واعدا كان من المتوقع له أن يدرس استعدادا لاجتياز امتحان يؤهله لكي يشغل وظيفة حاكم لبلدة. ومن المفترض أنه إذا ما نجح فسوف تفيد كل أسرته اقتصاديا من وضعه الجديد. وجدير بالذكر أن الصين - على عكس غالبية بلدان العالم حتى عهد قريب في عصرنا الحديث - شهدت حراكا اجتماعيا واقتصاديا مهما. وإن كل من امتد به العمر شاهد أسرا تنهض وترتقي درجات أعلى مما كان عليه وضعها في الأصل، بينما انخسف آخرون إلى درجات أدنى. ولعل أحد أسباب ذلك أن الكونفوشيين آمنوا دائما بقابلية الطبيعة البشرية للتطويع ومرونة التغيير على عكس المثقفين ورثة الفكر الأرسطي.

وامتزجت الكونفوشية في هدوء وسلاسة بالطاوية. وتبنت الفلسفة الكونفوشية بوجه خاص التقدير العميق للتناقضات والتحولات في الحياة البشرية، وكذا الحاجة إلى النظر إلى الأشياء في مجموعها باعتبارها كلا واحدا، وهي جزء متكامل من صميم فكرة كون أو عالم اليانج - الين، لكن الأفكار السائدة عن الطبيعة، والحياة الريفية أنها أكثر ارتباطا بالطاوية منها بالكونفوشية، كما أن أهمية الأسرة والتقدم في التعليم وفي الحياة الاقتصادية جزء متكامل مع الكونفوشية. وتنعكس هذه الفوارق الفكرية في الرسوم على المصنوعات الخزفية واللوحات الفنية. ونلحظ أن الأفكار المستوحاة من الطاوية يمكن أن تشتمل على صورة صياد أو حطّاب أو شخص متوحد جالس تحت ظلال الأشجار. لكن الأفكار المستوحاة من الكونفوشية نراها تتمركز حول الأسرة، وتشتمل على صور لجمهرة من ناس مختلفي الأعمار منهمكين معا في أنشطة مشتركة. إن الناس على اختلاف مشاربهم في الصين القديمة، وكذا في الصين المعاصرة وللسبب نفسه، ربما ينزعون إلى التأكيد على توجه بذاته

من دون سواه. وهذا على الأرجح يكون جزئيا رهن الموقف من الحياة والوضع القائم. وثمة قول مأثور يفيد بأن كل صيني يكون كونفوشيا حال نجاحه وطاويا حال فشله.

وفدت البوذية إلى الصين بعد مضي عدة قرون من تاريخ الفترة الكلاسيكية التي نحن بصددها. واستوعب الصينيون الجوانب الملائمة من البوذية، بما في ذلك ما كانت تفتقر إليه الفلسفة الصينية، خاصة ما يتعلق بالإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة. واتفقت التوجهات الثلاثة على الاهتمام بالتناغم «الهارموني» والنظرة الكلية إلى الأمور والتأثير المتبادل بين كل الأشياء في الوجود. وتفيدنا هذه التوجهات في تفسير لماذا لم تكن الفلسفة الصينية تفتقر فقط إلى مفهوم عن حقوق الإنسان بل ولماذا أيضا تبدو أحيانا (على الأقل بعد أن بدأت البوذية تمارس نفوذها) اعترافا بالعقول الفردية. وها هو كاتب من أتباع الكونفوشية الجديدة في القرن الثاني عشر يقول «الكون هو عقلي، وعقلي هو الكون. ظهر الحكماء قبل عشرات الآلاف من الأجيال السابقة، وشاركوا هذا العقل؛ وشاركوا هذا المبدأ. وسوف يظهر الحكماء بعد عشرات الآلاف من الأجيال القادمة. وسوف يشاركون هذا العقل؛ ويشاركون هذا المبدأ».

إن النظرة الكلية الجامعة holism المشتركة بين التوجهات الثلاثة تفيد بأن كل حدث مرتبط بحدث آخر. ويمثل الرنين الفكرة الرئيسة، ومفتاح هذا المفهوم. أنك إذا نقرت وترا لآلة موسيقية واهتز فيولد رنينا بالتأثير في وتر آخر. وهكذا فإن الإنسان والسماء والأرض جميعا تحدث رنينا بالتأثير بعضها بعض في. وإذا حدث وأخطأ الإمبراطور في شيء ما فإنه سوف يخرج الكون عن نظامه.

ولا نجد في الفلسفة الصينية نظيرا للاهتمام بالتجريد الذي يميز الفلسفة اليونانية القديمة. ولوحظ أن الفلاسفة الصينيين آثروا صراحة أكثر الانطباعات الحسية عيانية في فهم العالم. والحقيقة أن اللغة الصينية ذاتها لغة محسوسة عيانية بشكل واضح جدا. إننا لا نجد ـ كمثال ـ كلمة تقابل «حجم». إنك إذا أردت حذاء ملائما فإنك تسأل عن «الكبير ـ الصغير» لأقدامهم. وليس ثمة لاحقة تحول الكلمة إلى اسم في الصينية. لذلك لا نجد كلمة البياض whiteness بإضافة اللاحقة ـ ness وإنما فقط أبيض البجعة

وأبيض الثلج. والصينيون عزوفون عن استخدام مصطلحات أو مقولات محددة بدقة في مجالات كثيرة؛ ولكنهم يستخدمون بدلا من هذا لغة تعبيرية، مجازية.

يشتمل النقد الأدبي الصيني على مناهج مختلفة للكتابة يسمونها «منهج مراقبة نار عبر النهر» (عزل الأسلوب)، «ومنهج حشرات اليعسوب تحوم فوق سطح الماء» (المس الخفيف)؛ و«منهج رسم التنين وتحديد عينيه في نقاط» أي «بيان وتحديد النقاط البارزة».

ويتمثل الإطار الأساسي لرؤية الصينيين طبيعة العالم في أنه كان كتلة من الجواهر - المواد وليس تجمعا من أشياء منفصلة متمايزة. ومن ثم فإن الفيلسوف الصيني إذ ينظر إلى قطعة خشب، فإنه يرى كلا واحدا متجانسا لا شقوق فيه، مؤلفا من جوهر واحد أو ربما جواهر متداخلة متعددة الأنواع. ولكن الفيلسوف الإغريقي يرى الشيء مؤلفا من جسيمات. وشهدت اليونان القديمة جدلا واسعا حول هل العالم مؤلف من ذرات أم من جواهر متصلة، بينما لم تُثَر هذه المسألة في الصين. لقد كانت حقبة القول بالجواهر المتصلة. وسبق أن لحظ جوزيف نيدهام فيلسوف العلم الإنجليزي: «كان عالم الصين وسطا - أو نسيجا متصلا تجري في داخله التفاعلات بين الأشياء. وتجري هذه التفاعلات نتيجة تأثيرات إشعاعية وليس نتيجة اصطدام ذرات ببعضها».

وهكذا تختلف فلسفات الصين واليونان القديمة بقدر اختلاف الحياة الاجتماعية والمفاهيم الذاتية عند كل منهما. وتعكس الفوارق الفلسفية الفوارق الاجتماعية من نواح عديدة.

اتصف الإغريق بالاستقلالية والانغماس في المنافسات والجدل اللفظي في محاولة منهم لاكتشاف ما يراه الناس الحقيقة. ورأوا في أنفسهم أفرادا ذوي خصائص مميزة، ووحدات مستقلة عن الآخرين داخل المجتمع، وأنهم سادة أقدارهم ومصائرهم. وانطلقت الفلسفة الإغريقية بالمثل من الموضوع الفردي - الشخص، الذرة، البيت - باعتباره وحدة التحليل، وعنوا بخصائص الموضوع. وذهبوا إلى أن العالم، من حيث المبدأ، بسيط يمكن معرفته: كل ما على المرء أن يفعله هو أن يفهم ماهية الصفات المميزة للموضوع حتى يتسنى له أن يحدد مقولاته ذات الصلة، ثم يطبق على المقولات القاعدة وثيقة الصلة بالموضوع.



وتميزت الحياة الاجتماعية الصينية بالتكافل، وكان التناغم وليس الحرية هو كلمة السر - تناغم البشر والطبيعة عند الطاويين، وتناغم البشر مع البشر الآخرين عند الكونفوشيين. كذلك كان هدف الفلسفة هو الطريق وليس اكتشاف الحقيقة. وأن الفكر الذي لا يهدي إلى عمل هو فكر لا جدوى منه. إن العالم معقد، والأحداث متشابكة، والموضوعات [والناس] متداخلون في روابط مشتركة «ليسوا مثل قطع الكعكة بل مثل حبال الشبكة». وينظر الفيلسوف الصيني إلى الأسرة باعتبارها كيانا من أعضاء متداخلين في علاقات متبادلة، بينما يرى الإغريقي في الأسرة تجمعا من أشخاص لهم صفات مستقلة عن أي ارتباطات بآخرين. ومعنى التعقد والعلاقات المتبادلة عند الصيني أن أي محاولة لفهم موضوع ما دون تقدير سياقه هي محاولة فاشلة. ومن ثم فإنه وفي أحسن الأحوال من العسير التحكم في النتائج.

وكان العلم والرياضيات، كما سوف نرى في ما يلي، متسقين غاية الاتساق مع كل من السلوك الاجتماعي والنظرة الفلسفية.

التناقض أم الترابط؟

العلم والرياضيات في اليونان وفي الصين قديما

أعظم الاكتشافات العلمية الإغريقية قاطبة هي اكتشاف - أو لنقل ما قاله الفيلسوف جيوفري لويد، اختراع - الطبيعة ذاتها. حدد الإغريق معنى الطبيعة بأنها الكون مخصوما منه البشر وثقافتهم. وعلى الرغم من أن هذا يبدو لنا من أوضح أشكال التمييز فإنه تعريف لم تقل به أي حضارة أخرى. وثمة تفسير مقبول عقلا يفسر كيف تأتّى للإغريق اختراع الطبيعة على هذا النحو. ويقضي التفسير بأنهم مايزوا بين العالم الخارجي الموضوعي والعالم الباطني الذاتي. وتحقق هذا التمييز لأن الإغريق، على عكس أي إنسان آخر، لديهم فهم واضح للذاتية، وهو الفهم الذي انبثق عن تراثهم في الجدل. إذ لا معنى بالنسبة إليك أن تحاول إقناعي بشيء ما، ما لم تؤمن أنت بأن ثمة حقيقة واقعة في الخارج وأنك تفهمها أو تدركها أفضل مني. ربما تكون قادرا على أن ترغمني قسرا على عمل شيء تريده، بل وعلى أن أعرب عن إيماني بما تفعل. ولكنك لن تقنعني ما لم أؤمن بأن تفسيرك الذاتي لوضع ما أسمى من تفسيري.



ونتيجة لهذا نبعت الموضوعية من الذاتية ـ الاعتراف بأن عقلين يمكن أن يكون لديهما تصوران مختلفان عن العالم، وأن العالم له وجوده المستقل عن أي من التصورين. وربما تهيأ للإغريق التوصل إلى هذا بفضل وضعهم كمركز تجاري واعتادوا أن يلتقوا بانتظام ناسا لهم أفكارهم المختلفة تماما عن العالم. وعلى العكس من هذا كانت الثقافة الصينية ثقافة موحَّدة الكيان منذ القدم وكان من النادر نسبيا التقاء جماعات من الناس لهم آراؤهم الدينية والميتافيزيقية المختلفة عنهم جذريا.

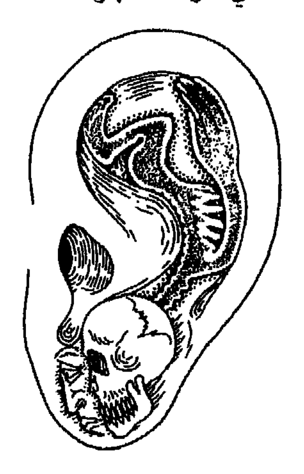
وإن اكتشاف الإغريق للطبيعة هو الذي يسر اكتشاف العلم. وإن فشل الصين في تطوير العلم يمكن أن نعزوه جزئيا إلى افتقار الفضول المعرفي غير أن عدم وجود مفهوم عن الطبيعة أعاق تطور العلم على أي حال من الأحوال. ونشير هنا إلى ملاحظة أبداها الفيلسوف يو ـ لان فونج إذ يقول: «الأسئلة بماذا من الصعب أن يسألها المرء ما لم يكن هناك اعتراف واضح بأن ثمة مفاهيم ذهنية تتوافق بشكل ما مع جوانب الطبيعة ولكنها غير متطابقة معها».

ركز الإغريق اهتمامهم على الموضوع الأبرز وصفاته. وأفضى هذا التركيز إلى الفشل في فهم الطبيعة الأساسية للعلية. وفسر أرسطو سقوط حجر من أعلى إلى أسفل بأن الحجر لديه خاصية «الجاذبية». ولكن طبيعيا أن قطعة خشب تلقي بها إلى الماء فتطفو بدلا من أن تغرق. وفسر أرسطو هذه الظاهرة بأن أرجعها إلى خاصية الخشب من حيث «الخفة». والملاحظ في الحالتين أن التركيز منصب فقط على الموضوع من دون الانتباه إلى احتمال وجود قوة أخرى خارج الموضوع يمكن أن تكون ذات صلة. لكن الصينيين رأوا العالم مؤلفا من جواهر متفاعلة مع بعضها أبدا، ولهذا أدت محاولاتهم لفهم الشيء إلى التوجه بأنظارهم ناحية تعقد «المجال» جملة، أعني السياق أو البيئة إجمالا. وتأسيسا على هذا نجد أن فكرة أن الأحداث تقع دائما في وسط مجال من القوى فكرة تراود الصينيين على نحو حدسي تماما. ولهذا ليس غريبا أن يكون لدى الصينيين نوع من الإقرار بمبدأ «التأثير عن بعد» قبل أن يصوغه جاليليو بألفي عام. توافرت لديهم معرفة بالمغناطيسية والرنين السمعي، على سبيل المثال، واعتقدوا أن حركة القمر هي سبب المد والجزر في البحار، وهي حقيقة غابت حتى عن جاليليو.



وتوجد في الصحراء غرب الصين مدافن تضم جماعات من الناس يتصفون بطول القامة والشعر الأحمر، والمثير للدهشة أن أجسادهم محفوظة جيدا، ويحملون سمات قوقازية، وشقوا طريقهم إلى هذا المكان من العالم منذ بضعة آلاف من السنين الماضية. ومن دون النظر إلى مظهرهم فإنهم مختلفون عن الشعوب التي عاشت في هذه المنطقة. من ناحية أخرى مهمة، إن أكثرهم يكشف عن علامات واضحة تؤكد أنه أجريت لهم عمليات جراحية. هذا على الرغم من أن الجراحة كانت نادرة تماما في كل تاريخ الصين.

وإحجام الصينيين عن أداء عمليات جراحية مفهوم تماما في ضوء آرائهم عن التناغم والعلاقات. ورأوا أن الصحة رهن توازن القوى داخل الجسم والعلاقات بين أجزائه. وكانت هناك قديما، مثلما هو الآن، بين كثيرين من أبناء شرق آسيا علاقات بين كل جزء من الجسد تربطه بكل الأجزاء الأخرى. وحتى نتبين هذه الشبكة الواسعة من الترابطات المتداخلة يكفي النظر إلى رأي ممارس العلاج بوخز الإبر عن العلاقات بين سطح الأذن والبشرة وهيكل الجسم. وثمة شبكة شديدة التعقد بالقدر نفسه تصف العلاقات بين الأذن وكل من الأعضاء الباطنية. ويرى الصينيون على الأرجح أن من السذاجة وخفة العقل التفكير في أن إزالة عضو أو جزء مريض أو مصاب بخلل وظيفي وبتره عن الجسم أمر مفيد من دون اعتبار لعلاقاته بالأجزاء الأخرى من الجسم. هذا على عكس كثير من المجتمعات الغربية المختلفة التي مارست الجراحة.



البشرة وهيكل الجسم متمثلان على سطح الأذن لأغراض العلاج بوخز الإبر



وأن ميل الصينيين إلى التركيز على العلاقات داخل مجال معقد متداخل يتجلى في ممارسات «فنج شوي» feng shui وهي ممارسة لا تزال مستمرة في الشرق. إذ حين يرغب شخص ما في إقامة بناء يكون لزاما عليه أن يستدعي خبيرًا في الفنج شوي. ومهمة هذا الشخص تقدير عدد كبير جدا من العوامل من مثل الارتفاع، الاتجاه الغالب للريح، الاتجاه بالنسبة إلى البوصلة، الاقتراب من مصادر مياه مختلفة، ويعطي نصيحته بشأن تحديد موقع البناء. وهذه ممارسة لا نظير لها في الغرب ولكن في غالبية ناطحات السحاب المقامة في هونج كونج الآن كان لا بد من استدعاء الفنج شوي قبل الشروع في البناء.

وجدير بالذكر أن إيمان الصينيين بأساسية ترابط العلاقات بين الأشياء جعل من الواضح لهم أن الأشياء والموضوعات تتحرك وتتغير داخل سياق. ولهذا فإن أي محاولة لتصنيف الموضوعات بدقة لن تفيد كثيرا في فهم الأحداث. ذلك أن العالم شديد التعقد والتفاعل بين عناصره مما يجعل الفئات والقواعد غير مفيدة كثيرا في فهم الموضوعات أو التحكم فيها.

وأصاب الصينيون في رأيهم عن أهمية المجال لفهم سلوك موضوع ما، كما أصابوا في رأيهم عن التعقد، ولكن افتقارهم إلى الاهتمام بالفئات أو التصنيف الفئوي حال دونهم واكتشاف القوانين التي تفسر لهم بالفعل فئات الأحداث. ولهذا كله اتجه الإغريق إلى التبسيط الشديد وإلى الاكتفاء بتفسيرات زائفة تتضمن خصائص غير موجودة للموضوعات. وفهموا صواب ضرورة تصنيف الموضوعات إلى فئات حتى نتمكن من تطبيق القواعد والقوانين عليها. ونظرا إلى أن القواعد والقوانين مفيدة مادام بالإمكان تطبيقها على أوسع نطاق من الموضوعات، فقد كان لديهم بشكل مطرد «ضغط صاعد» للتعميم وصولا إلى أعلى المستويات من التجريد حتى تكون القوانين صالحة للتطبيق إلى أقصى حد ممكن. وأفاد هذا الحافز أحيانا التجريد، وإن لم يكن كذلك دائما.

وكان لإيمان الإغريق بالتصنيف الفئوي على أساس الصفات ثماره العلمية التي أفاد بها ورثتهم من المفكرين سواء مباشرة أو في مراحل تالية. اصطنع الإغريق تصنيفات للعالم الطبيعي تتسم بالدقة الشديدة، وسمح هذا بقدر من



الابتعاد عن أنواع من المخططات العامة العامية لمجال البيولوجيا التي صاغتها شعوب أخرى. واستطاع الإغريق بهذا صوغ منظومة تصنيفية فريدة أسفرت في نهاية المطاف عن نظريات لها قدرة تفسيرية حقيقية.

ويروى أن فريقا من الرياضيين من حواريي فيثاغورس ألقوا برجل من فوق سطح مركب لاكتشافهم أنه أفشى فرية عن الأعداد الصماء من مثل الجذر التربيعي للعدد ٢ الذي يتوالى إلى ما لا نهاية من دون إمكان التنبؤ بالنمط الذي يكون عليه ١,٤١٤٢١٣٥...، وسواء أكانت هذه قصة حقيقية أم زائفة فإن من المؤكد أن غالبية الرياضيين الإغريق لم يعتبروا الأعداد الصماء أعدادا حقيقية على الإطلاق. لقد عاش الإغريق في عالم من الجسيمات المنفصلة، ومن ثم بدت الطبيعة المستمرة التي لا نهاية لها للأعداد الصماء أمرا غير مقبول عقلا، ومن ثم لم يسع علماء الرياضيات أن يأخذوها مأخذا جادا.

وربما نجد من ناحية أخرى أن الإغريق أسعدتهم كثيرا الكيفية التي عرفوا بها أن الجذر التربيعي للعدد ٢ عدد أصم، إذ عرفوا هذا عن طريق التناقض. يفترض المرء عددين غير قابلين للقسمة ن، م، وأن الجذر التربيعي للعدد ٢= ن/م ويبين أن هذا يفضي إلى تناقض.

واستحوذ مفهوم التناقض على اهتمام الإغريق، بل أكاد أقول كان مفهوما متسلطا على الأذهان. ومن ثم إذا تبين أن قضية منطقية ما بينها وبين قضية أخرى علاقة تناقض فإنه يتعين رفض إحداهما. ويمثل مبدأ التناقض القاعدة لمنطق القضايا. وإذا كان الإغريق من دون سواهم هم من اخترعوا المنطق فإن التفسير العام لهذا هو أن مجتمعا ما، يحتل الجدل فيه مكان الصدارة وله دوره البارز، سوف يشرع في بيان أي الحجج قاصرة ومعيبة - حسب تعريفها - لأن بناءها يفضي بنا إلى تناقض. والمعروف أن أرسطو هو الذي صاغ القوانين الأساسية للمنطق بما في ذلك القياس. وقيل إنه ابتكر المنطق بسبب ضيقه من سماع حجج فاسدة داخل الجمعية السياسية وفي الساحات العامة. وحري أن نلحظ هنا أن التحليل المنطقي نوع من استمرار ميل الإغريق إلى إخراج الأمور من سياقها Decontextualize. ونحن عادة نطبق المنطق عن طريق تجريد العبارات من معانيها والإبقاء فقط على البنية الصورية كما هي دون تغيير. وييسر علينا



هذا أكثر إدراك ما إذا كانت العبارة ـ القضية صحيحة أو لا. وطبيعي أن هذا الأسلوب في إفراغ العبارات من سياقها ليس أسلوبا آمنا من دون أخطاء؛ وهذه ملاحظة يهوى أبناء شرق آسيا المحدثون بيانها وإثباتها. لذلك فإنهم ـ شأن الصينيين القدماء ـ يجاهدون من أجل أن يكونوا معقولين لا أن يكونوا عقلانيين. ولا ريب في أن الدعوة إلى تجنب التطرف يمكن أن تكون مبدأ مفيدا شأن المطالبة بتجنب التناقض.

وجدير بالإشارة أن الفيلسوف الصيني مو ـ تسو خطا خطوات واسعة في اتجاه الفكر المنطقي في القرن الخامس قبل الميلاد، بيد أنه لم يبلور منظومته الفكرية وبذا وئد المنطق في الصين وهو لا يزال في المهد. ولنا أن نقول إنه باستثناء هذا الفاصل ظل الصينيون يفتقرون ليس فقط إلى المنطق بل أيضا إلى مبدأ عدم التناقض. ونعرف أن للهند تراثا منطقيا عريقا، لكن الترجمات الصينية للنصوص الهندية كانت مليئة بالأخطاء وسوء الفهم. وعلى الرغم مما حققه الصينيون من تقدم كبير وموضوعي في مجالي الجبر والحساب لكنهم حققوا إنجازا ضعيفا في الهندسة بسبب أن البراهين تعتمد على المنطق الصوري، خاصة فكرة عدم التناقض. (لم يصبح الجبر استدلاليا إلا مع ديكارت. ولا يزال نظامنا التعليمي يحمل آثارا تذكرنا بالفصل بينهما، وهو ما يتجلى في تعليم الجبر والهندسة كمادتين دراسيتين منفصلتين).

وأبدى الإغريق اهتماما عميقا بالحجج التأسيسية للرياضيات. وكان الإغريق وحدهم هم الذين لديهم استنتاجات بينما الشعوب الأخرى لديها وصفات إجرائية. ولكن يمكن القول من ناحية أخرى إن المنطق الإغريقي والاهتمام بالحجج التأسيسية شكلا عقبات بقدر ما أتاحا من فرص. ونعرف أن الإغريق لم يستحدثوا مفهوم الصفر الذي كان لازما لكل من الجبر وللمنظومة العددية حسب الأسلوب العربي. فكر الإغريق في الصفر ولكنهم رفضوه على أساس أنه ضرب من التناقض. إن الصفر يساوي اللاشيء أو العدم، والعدم ليس موجودا! وهكذا كان لابد في نهاية المطاف أن نستورد من الشرق فهم معنى الصفر وفهم اللانهاية والكميات متناهية الصغر.

واستحدث الصينيون بدلا من المنطق، طرازا من النزعة الجدلية Dialecticism. وهذه ليست عين الجدل الهيجلي، حيث الأطروحة يتبعها نقيضها ثم يحسمها المركب أو الجميعة الجامعة بين الاثنين، الذي يتصف



«بالحسم» بمعنى أن الهدف النهائي هو حسم التناقض. أما الجدل الصيني فهو على العكس من ذلك، إذ يستخدم التناقض سبيلا إلى فهم العلاقات بين الموضوعات والأحداث ومفارقة أو توحيد التعارضات، بل احتواء الصدام من دون وجهات النظر التي تضفي وضوحا وبصيرة. وجدير بالذكر أن التراث الفكري الصيني لا يرى تناقضا ـ بالضرورة ـ بين الاعتقاد بأن «أ» هي القضية والاعتقاد بأن «لا ـ أ» هي القضية. وإنما على العكس ـ وحسب روح عقيدة الطاو أو مبدأ اليان ينج ـ فإن أ يمكن عمليا أن تفيد أن «لا ـ أ» هي أيضا القضية أو أنها في جميع الأحوال سرعان ما تكون كذلك. ويلاحظ أن الفكر الجدلي يمثل من نواح عدة نقيضا للفكر المنطقي. إنه لا ينزع إلى إفراغ الأحداث من السياق بل إلى أن يراها في سياقاتها الملائمة: الأحداث لا تقع بمعزل عن الأحداث الأخرى، ولكنها دائما ثاوية ضمن كل هادف ذي معنى، حيث تتغير عناصره وتعيد تنظيم نفسها دائما وأبدا. إننا إذ نفكر في موضوع أو حدث ما بمعزل عن سواه ونطبق عليه القوانين المجردة فإننا بهذا نصل إلى نتائج متطرفة وخاطئة. إن الطريق الوسطى هي هدف التفكير العقلي.

لماذا إذن اختلف اليونانيون والصينيون القدامى على هذا النحو الكبير في عاداتهم الفكرية، أو لنقل لماذا، على الأقل، يصدق هذا الرأي بالنسبة إلى المثقفين من الطرفين وهما الشعبان القديمان الوحيدان اللذان نعرف شيئا عن حياتهما الفكرية؟ ولماذا يوجد مثل هذا «الرنين» بين الأشكال الاجتماعية وفهم الذات من ناحية والفروض الفلسفية والنهج العلمية من ناحية أخرى؟ الإجابة عن هذه الأسئلة لها دلالاتها التي تفيدنا في فهم الفوارق والاختلافات القائمة اليوم بين الفكر الشرقي والفكر الغربي.





2 الأصول الاجتماعية للعقل

سألت ذات يوم فيلسوفا صينيا: لماذا رأى أن الشرق والغرب طورا مثل هذه العادات الفكرية المختلفة؟ فأجاب قائلا «لأن عندكم أرسطو ونحن عندنا كونفوشيوس». أغلب الظن أنه كان يمزح. فلا ريب في أن لكل من أرسطو وكونفوشيوس أثرا هائلا في التاريخ الفكري والاجتماعي والسياسي للشعوب من بعدهما، إلا أن كلا منهما كان نتاج ثقافة مجتمعه أكثر من كونه السلف الصانع لها. وما كان بالإمكان أن يكون لأي منهما الأثر الذي تركه لو لم يكن يعكس المجتمع الذي عاش فيه. ونجد نوعا من «البرهان» على هذا في أن الإغريق كان لهم فلاسفتهم من أمثال هيرقليطس ممن كانوا أقرب إلى روح الشرق منهم إلى الغرب، وكان لدى الصين فلاسفتها من أمثال مو ـ تسو الذي شارك فلاسفة الغرب في كثير من اهتماماتهم. ولكن على الرغم مما حظيت به هذه الفلسفات من اهتمام كبير من معاصريها فإن الفلسفات المارقة ذوت على عودها ولم يمتد بها العمر. هذا بينما التراث الأرسطي استمر ممتدا في الغرب والتراث الكونفوشي وأصل وجوده في الشرق.

«بينما كان الأمراء العرب يناقشون أفلاطون وأرسطو وحكام مدن الصين يكشفون عن براعتهم في جميع الفنون، كان نبلاء أوروبا قابعين على الأرض يهبرون قطع اللحم داخل قلاع رطبة»

المؤلف



ويلاحظ أن الباحثين الذين حاولوا الإجابة عن سؤال: «لماذا اختلفت اليونان والصين قديما هذا الاختلاف الكبير؟»، انتهوا في دراساتهم إلى أسباب عديدة مقبولة عقلا.

اختلفت اليونان القديمة عن جميع الحضارات المعاصرة لها من حيث تطوير الحرية الشخصية، والفردية والفكر الموضوعي. ويمكن جزئيا تفسير هذه الخصال في ضوء النظام السياسي الذي انفرد به اليونان قديما، وأعني به الدولة ـ المدينة وسياستها خاصة الجمعية العامة التي حفلت بالناس من أعضائها، ليحاول كلٌّ إقناع الآخر تأسيسا على حجة عقلانية. وكانت الدولة ـ المدينة مهمة أيضا لأنه كان بإمكان المتمردين من المفكرين أن يهجروا موقعا إلى آخر، ومن ثم يحتفظون لأنفسهم بوضع يسمح بحرية الاستجواب. والحقيقة أن المثقفين غير المرغوب فيهم داخل دولة ـ مدينة ما كان بوسعهم أحيانا التماس ملاذ في دولة ـ مدينة أخرى تأمل في حضورهم إليها وبقائهم فيها، وترى في هذا تعزيزا لمكانتها أمام الدول ـ المدن الأخرى. ونعرف أن تلامذة سقراط ألحوا عليه أن يترك أثينا إلى مكان آخر بدلا من أن يطبقوا عليه حكم الإعدام. وطبيعي أنه كان سيلقى ترحيبا في أي مكان آخر ومن ثم يكف أبناء مدينته عن مطاردته.

سبب آخر يذكره البعض أحيانا لتفسير تفرد الإغريق، وهو موقعهم البحري الذي جعل من التجارة البحرية عملا مربحا. معنى هذا أن بلاد الإغريق عرفت طبقة تجارية قوية يتمتع رجالها بقدرة مالية على تعليم أبنائهم. والقول بأن التجار كانت لديهم الرغبة في تعليم أبنائهم يتطلب تفسيرا في حد ذاته، خاصة أن التعليم بحد ذاته لم يكن، مثلما كان في الصين، الطريق إلى السلطة والثراء. ولكن يبدو واضحا أن الدافع إلى التعليم كان نتيجة لحب الاستطلاع والفضول المعرفي والإيمان بقيمة المعرفة في ذاتها. وأن خاصية الفضول المعرفي لدى الإغريق يمكن بدورها تفسيرها جزئيا في ضوء موقعهم عند مفترق طرق العالم. إذ كانوا دائما وأبدا يلتقون جماعات جديدة مثيرة للحيرة والتساؤل من حيث عاداتهم ومعتقداتهم. وكان شائعا وعاديا بالنسبة إلى أي إغريقي يحيا قرب السواحل (والغالبية كانوا كذلك) أن يلتقي جماعات من البشر يمثلون أعراقا وديانات وسياسات مغايرة. وإن أثينا نفسها كانت بمنزلة حاجز وسط حرب النجوم.



وثمة نتيجة واضحة للممارسات والمعتقدات المختلفة التي تحوم دون هوادة حول الإغريق، ألا وهي ضرورة أن يتعاملوا مع المتناقضات. اعتادوا دائما مواجهة مواقف حيث يرون شخصا يؤكد أن «أ» هي الحجة بينما ينزع آخر إلى القول إنه ليس «أ» هي الحجة. وهكذا عايشوا تناقضا وافدا بين آراء الغرباء، وتناقضا محليا يعبر عنه المواطنون من خلال آرائهم داخل الجمعية العامة و في الساحات العامة. وطبيعي أن يؤدي هذا بالضرورة إلى تطور إجراءات معرفية من بينها المنطق الصوري للتعامل مع مظاهر وأسباب التنافر.

هذا على عكس ما نراه حتى اليوم من أن ٩٥ في المائة من الصينيين هم من جماعة عرقية واحدة المعروفة باسم «الهان». والمعروف أن جميع الأقليات العرقية في الصين والتي يزيد عددها على الخمسين يعيشون في الجزء الغربي من الصين. كذلك فإن الشخص الصيني الذي يعيش داخل البلاد، نادرا ما كان يلتقي غريبا له معتقداته أو ممارساته التي تختلف عنه اختلافا بينا. ويبدو أن التجانس العرقي للصين يمكن تفسيره جزئيا على الأقل في ضوء السلطة السياسية المركزية. علاوة على هذا فإن حياة القرية الصينية حيث يعيش أهلها وجها لوجه هي من النوع الذي يضغط في اتجاه التناغم والمعايير السلوكية المتفق عليها جماعيا. وهكذا عاش الصينيون لا يشهدون إلا اختلافا ضئيلا في الرأي، ويرون الشقاق مظنة عقاب يحل من أعلى أو يأتي على أيدي رفاق الحياة. ومن هنا لم يكن لدى الصينيين حاجة كبيرة لاستخدام إجراءات من أجل اتخاذ قرار يحسم التناقض ويقرر أي القضايا هي الصواب. ورأوا بدلا من هذا أن الهدف هو اكتشاف الوسيلة لحسم الخلافات، ومن هنا دافعهم لاكتشاف الطريق الوسطى.

منظومات معرفية ـ اجتماعية متوازنة

جميع هذه التفسيرات في الأساس قائمة على حقيقة واحدة: إيكولوجيا اليونان والصين قديما كانتا مختلفتين اختلافا جذريا ـ على نحو أدى إلى تنظيمات اقتصادية وسياسية واجتماعية مختلفة. ويوضح الجانب الأيسر من الصورة السابقة تفسيرا للفوارق بين الفكر الإغريقي والصيني كما أفهمه أنا.

الإيكولوجيا

الاقتصاد

الهيكل الاجتماعي

الاهتمام

الميتافيزيقا

الإبستمولوجيا

العمليات المعرفية

الإيكولوجيا

الاقتصاد

الهيكل الاجتماعي

الاهتمام

الميتافيزيقا

الإبستمولوجيا

العمليات المعرفية

نموذج تخطيطي للمؤثرات في العمليات المعرفية



وهذه في جوهرها استخلاص لآراء كثيرين ممن تناولوا مسألة أصل الذهنية الصينية والإغريقية. ويمثل الجانب الأيمن من الصورة التفسير نفسه ولكن كما رسمه طالب أمريكي من أصل صيني، وقال لي إن العرض الدائري يبدو مفهوما له أكثر من العرض الخطي.

التفسير في أساسه مادي: بمعنى أنه يحاول تفسير الحقائق الثقافية في ضوء وقائع فيزيقية. وهذا نهج بات باليا الآن لدى بعض الأوساط، ذلك لأنه جزئيا يفترض خطأ أن التفسيرات المادية حتمية. ولكن المادية لا تستلزم بالضرورة القول بالحتمية - بحيث إنه إذا ما ظلت الأوضاع متكافئة فإن العوامل الفيزيقية يمكنها أن تؤثر بدرجة ما في العوامل الاقتصادية وبالتالي في العوامل الثقافية. وهذا التفسير ليس ماديا على الإطلاق بمعنى محدد: إن العوامل الحاسمة المؤثرة في عادات العقول هي عوامل اجتماعية، كما أن الوقائع الاجتماعية المهمة يمكن أن تولدها وتصونها قوى ليست اقتصادية بطبيعتها.

الإيكولوجيا ← اقتصاد وهيكل اجتماعي. تتألف إيكولوجيا الصين في أساسها من سهول خصبة نسبيا وجبال منخفضة وأنهار صالحة للملاحة وزراعة جيدة، وسيطرة مركزية سهلة نسبيا على المجتمع. وتحتاج الشعوب الزراعية إلى العيش معا في انسجام - وليس بالضرورة أن يحب كل منهما الآخر (ولنفكر في نمط الفلاح الفظ في نيو إنجلاند) - ولكنهم يؤثرون العيش معا بأسلوب متناغم على نحو معقول. ويصدق هذا بوجه خاص على زراعة الأرز، وهي الزراعة المميزة لجنوب الصين واليابان، وتستلزم أن تتضافر جهود الناس لإعداد الأرض وزراعتها. ولكنها أيضا مهمة حيثما يكون الري مطلوبا وميسورا كما هي الحال في وادي النهر الأصفر شمال الصين، حيث حكمت أسرة شانج (من القرن الثامن عشر وحتى الحادي عشر ق.م.) وأسرة شو (من القرن الحادي عشر ق.م. وحتى ٢٥٦ ق.م.). وطبيعي أن نظام الري يهيئ الفرصة لكي يعيش الناس جيرانا متعاونين، ولكنه علاوة على هذا يستلزم سلطة مركزية. ولهذا كانت الصين، شأن جميع المجتمعات الزراعية قديما، خاضعة لحكام مستبدين. ويصبح لزاما على المزارعين أن يعيشوا في انسجام مع جيرانهم وأن تخضع القرى لحكم كبار السن فيها علاوة على

حاكم مدني إقليمي يكون ممثلا للملك (أو للإمبراطور كما هي الحال بعد أن توحدت الصين). وهكذا عاش الإنسان العادي وسط عالم معقد من القيود الاجتماعية.

وتألفت إيكولوجيا اليونان القديمة، من ناحية أخرى، من جبال في أغلبها تنحدر سفوحها إلى البحر، وآثر أهلها العمل بالقنص والرعي وصيد الأسماك والتجارة (بل لنكن صرحاء ونقول والقرصنة). وهذه جميعها مهن تستلزم قدرا قليلا نسبيا من التعاون مع الآخرين. والحقيقة أن هذه الأنشطة الاقتصادية جميعها، باستثناء التجارة، لا تستلزم بالضرورة العيش داخل المجتمع المحلي المستقر نفسه مع آخرين. والمعروف أن الزراعة المستقرة وفدت إلى اليونان القديمة متأخرة عن الصين بألفي عام، وسرعان ما أصبحت نشاطا تجاريا في مناطق كثيرة، وليس لسد الاحتياجات الغذائية فقط. وكانت تربة اليونان وكذا مناخها ملائمين تماما لصنع النبيذ وإنتاج زيت الزيتون. وأصبح أكثر المزارعين، مع حلول القرن السادس ق.م. أقرب إلى وصفهم برجال الأعمال وليسوا مزارعين. واستطاع اليونانيون قديما، لهذا السبب، أن يعملوا لحساب أنفسهم أكثر مما هي الحال بالنسبة إلى الصينيين. ولم يكن اليونانيون القدامى يشعرون بأن من الضروري الحفاظ على مناخ التناغم مع رفاقهم مهما كلفهم هذا من ثمن. ونجد على العكس تمكنت منهم عادة المحاجاة بعضهم مع بعض في ساحات اللقاء الاجتماعية والحوار داخل الجمعية العامة.

الهيكل الاجتماعي والممارسة الاجتماعية ←— (اهتمام وميتافيزيقا العامة. اضطر الصينيون إلى التطلع إلى الخارج حيث نظراؤهم، وإلى أعلى حيث السلطات الحاكمة، وذلك في إدارة حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتمثل علاقاتهم مع الآخرين أساسا لكل من الضغوط الرئيسية الحاكمة لحياتهم، والمصدر الأول للفرص المتاحة أمامهم. وإن عادة التطلع إلى العالم الاجتماعي، ربما أدت إلى تعزيز الميل للنظر إلى المجال بوجه عام؛ كما أن الحاجة إلى الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية ربما أدت إلى توسيع نطاق نزوعهم نحو الاهتمام بالعلاقات على اختلاف أنواعها. وعبر عن هذا عالما النفس الاجتماعيان هازيل



ماركوس وشينوبو كيتاياما إذ قالا: إذا ما رأى المرء نفسه جزءا متكاملا في سياق أكبر فإن من الأرجح أن يرى الموضوعات أو الأحداث بالطريقة نفسها: لذلك فإن ميتافيزيقا العامة Folk Metaphysics ـ المعتقدات بشأن طبيعة العالمين الاجتماعي والطبيعي ـ سوف تأتي وليدة حقيقة واقعة واحدة: أبدى الصينيون اهتماما شديدا بالعالم الاجتماعي. وإن الإحساس بأن الذات رهن شبكة من العلاقات والالتزامات الاجتماعية ربما جعل من الطبيعي النظر إلى العالم بعامة كجواهر متصلة ومركبة معا وليس موضوعات متمايزة ومنفصلة. ويمكن النظر، والحال كذلك، إلى السببية وكأنها حالة في المجال أو ماثلة في العلاقة بين الموضوع والمجال. وطبيعي أن يشجع الاهتمام بالمجال الإقرار بالتعقد والتغير، وكذا القول بالتناقض بين عناصره الكثيرة والمتنوعة.

ولكن الإغريق كان لديهم ترف الاهتمام بموضوعات، من بينها الآخرون من البشر وأهداف هؤلاء بالنسبة إليهم، من دون أن تؤثر فيهم علاقاتهم بالآخرين أو تحد من سلوكهم على نحو مبالغ فيه. يستطيع الإغريقي أن يخطط من أجل حصاد زراعي أو أن يغير الموقع الذي يرعى فيه ماشيته وأغنامه، أو أن يبحث فيما إذا كان من المفيد له أن يبيع سلعا ما جديدة، وأن يستشير على نحو محدود أو لا يستشير على الإطلاق الآخرين. وربما جعل هذا من الطبيعي بالنسبة إلى الإغريق أن يركزوا اهتمامهم على صفات الموضوعات مع النظر في اتجاه تصنيفها إلى فئات واكتشاف القوانين والقواعد التي تسمح لهم بالتنبؤ وضبط السلوك. ويمكن هنا النظر إلى السببية باعتبارها نتيجة لخواص الأشياء أو ثمرة عمل الإنسان وتأثيره في الأشياء. وشجعت مثل هذه النظرة إلى السببية وضع الافتراضات الإغريقية عن الاستقرار والثبات والدوام وكذا افتراض أن تغير الموضوع تحت سيطرتهم.

وهكذا يمكن القول إن ميتافيزيقا العامة في المجتمعين نبعت مباشرة من الأهداف التي اهتم بها كل منهما: البيئة أو المجال في حالة الصينيين والموضوع في حالة الإغريق. وطبيعي أيضا أن تأتي الميتافيزيقا العلمية لكل مجتمع انعكاسا صادقا للنظرات السائدة بين العامة.



ميتافيزيقا العامة ← إبستمولوجيا ضمنية وعمليات معرفية. وكان متوقعا أن تؤثر ميتافيزيقا العامة في الإبستمولوجيا الضمنية tacit epistemology أو المعتقدات بشأن كيفية اكتساب معارف جديدة. وإذا كان العالم مكانا تؤكد فيه العلاقات بين الأشياء والأحداث أنها حاسمة في تحديد نتائجها، فسوف يبدو مهمًا أن يكون بالوسع ملاحظة جميع العناصر المهمة في المجال لمعرفة العلاقات بين الموضوعات واكتشاف العلاقة بين الأجزاء والكل. وسوف تتطور عمليات الانتباه والاهتمام والإدراك والتفكير العقلي والتي تركز على تسجيل الأحداث المهمة وتمييز العلاقات المعقدة بينها. وإذا كان العالم، من ناحية أخرى، مكانا تكون فيه الموضوعات خاضعة لقواعد وقوانين وفئات فسوف يبدو حاسما أن يكون بوسعنا فصل الموضوع عن سياقه واستدلال أي الفئات يدخل ضمنها الموضوع، واستدلال الكيفية التي نطبق بها القواعد على تلك الفئات. وهنا سوف تتطور العمليات لخدمة تلك الوظائف.

أخيرا يمكن للممارسات الاجتماعية أن تؤثر في عادات التفكير بشكل مباشر. ويمكن اعتبار الجدل والمنطق أداتين معرفيتين لمعالجة النزاع الاجتماعي. وليس لنا أن نتوقع ممن ينبني وجودهم الاجتماعي على التناغم أن يطوروا تراثا للمواجهة أو الجدل. بل هم، على العكس، إذا ما واجهوا تعارضا في الآراء ينزعون - على الأرجح - إلى حسم التناقض أو التعالي عليه أو التماس «طريق وسطي»، أي بإيجاز: تناول الموضوع جدليا. ولكن على النقيض لنا أن نتوقع ممن هم أحرار في المحاجاة أن يطوروا قواعد وقوانين لإدارة الجدل، بما في ذلك مبدأ عدم التناقض والمنطق الصوري. وإنها لخطوة يسيرة وميسورة للانتقال من المنطق إلى العلم، كما لحظ ألان كرومر عالم الفيزياء ومؤرخ العلم الذي قال: «العلم من هذه الزاوية امتداد للخطابة. اخترعته اليونان القديمة، واليونان القديمة دون سواها، لأن المؤسسة الإغريقية الممثلة في الجمعية العامة أولت مهارة الجدل مكانة عظمى... البرهان الهندسي هو... أقصى صورة خطابية».

إحدى الدلالات المهمة لهذه النظرة إلى أسباب الفوارق الذهنية عند اليونان والصين قديما هي ما تتضمنه هذه النظرة من الاتزان الوظيفي الاجتماعي. إذ ما دامت القوى الاقتصادية تعمل على الحفاظ على الهياكل الاجتماعية المختلفة وتدريب الأطفال فإن هذا كله سوف يسفر عن شعب



يركز اهتمامه على أشياء مختلفة في البيئة. وطبيعي أن تركيز الاهتمام على أشياء مختلفة تتولد عنه حالات فهم مختلفة لطبيعة العالم. كذلك فإن اختلاف النظرة إلى العالم سوف يعزز بدوره اختلاف مكان الاهتمام والممارسات الاجتماعية. علاوة على هذا فإن اختلاف النظرة إلى العالم سوف يحفز الفوارق في عمليات الإدراك والتفكير الاستدلالي ـ الذي ينزع بدوره إلى تعزيز النظرة إلى العالم.

وليس ثمة من سبب لافتراض أن النتيجة التي تنتهي بعمليات معرفية لابد أن تبدأ مع الإيكولوجيا. إذ يمكن أن تكون هناك أسباب اقتصادية كثيرة ومختلفة يمكن أن تجعل بعض المجتمعات أو الجماعات أكثر اهتماما بزملائهم من البشر، وأسباب كثيرة يمكن أن تجعلهم أكثر اهتماما بالموضوعات وبأهدافهم هم بالنسبة إليهم. مثال ذلك أن مشروعات الأعمال والبيروقراطيات الحديثة ومشروعات الأعمال التي يديرها مقاولو الأعمال لا تستلزم بالضرورة الاهتمام بنطاق واسع من نظائرها وعدد كبير من المراقبين. ولكنها بدلا من هذا تستلزم جماعات تركز على مجموعة محدودة نسبيا من الأهداف ومتابعتها بشكل مستقل. ويمكن أن يكون الأداء أفضل عمليا إذا ما تم إغفال آخرين إلى حد كبير بدلا من الاهتمام بهم عن كثب. ومن ثم لا ضرورة لأن تبدأ السلسلة حتى بالاقتصاد. ويمكن أن تكون هناك أسباب كثيرة مختلفة من شأنها أن تحفز الاهتمام بالآخرين: مثال ذلك العضوية في مجتمع محلي ديني شديد التزمت والصرامة وله قواعده السلوكية الصارمة. كذلك؛ بالمثل هناك عوامل كثيرة يمكن أن تحفز الناس إلى التركيز أولا وأساسا على الموضوعات وعلى أهدافهم المتعلقة بهم.

الدعم العصري للنظرية الأصلية

تصادف أن هذا التفسير الاجتماعي ـ الاقتصادي للمعرفة يتلاءم مع بعض التغيرات التاريخية المهمة في الغرب. إذ ما إن أصبح الغرب زراعيا أساسا في العصور الوسطى حتى أصبح أقل نزوعا للفردية. ولم يكن الفلاح الأوروبي ـ على الأرجح ـ مختلفا كثيرا عن الفلاح الصيني من حيث التكامل أو الحرية في الحياة اليومية أو من حيث الإنجاز الفكري والثقافي. وبينما



كان الأمراء العرب يناقشون أفلاطون وأرسطو وحكام مدن الصين يكشفون عن براعتهم في جميع الفنون، كان نبلاء أوروبا قابعين على الأرض يهبرون قطع اللحم داخل قلاع رطبة.

وقرب نهاية العصور الوسطى شهدت الزراعة الأوروبية (خاصة مع اختراع طوق رقبة الحصان الذي يسر العمل بالمحراث الذي يجره الحصان) تقدما ملحوظا خلق ثروات وفيرة، مما أدى إلى نشوء مراكز تجارية جديدة تشبه كثيرا الدول ـ المدن في اليونان القديمة. وكانت الدول ـ المدن الإيطالية، ثم من بعدها الدول ـ المدن الشمالية، تتمتع بدرجة عالية جدا من الاستقلال الموضوعي ولا تخضع في نواح كثيرة لسلطة الملوك والأباطرة المستبدين. وتحلى كثيرون منهم بصفات ديموقراطية أو على الأقل صفات الحكام الأوليجاركيين، (الأغنياء). وطبيعي أن الميلاد الجديد للدولة ـ المدينة، مقترنا بطبقة أغنياء التجار، أفضى إلى بعث جديد للنزعة الفردية والحرية الشخصية والنزعة العقلانية والعلم. ومع حلول القرن الخامس عشر استيقظت أوروبا من سباتها الذي امتد ألف عام وبدأت تنافس الصين في جل المجالات: الفلسفة والرياضيات والفنون والتكنولوجيا.

ووقع حدث في مطلع القرن الخامس عشر يكشف طبيعة الاختلافات بين أوروبا والصين. وأعني به رحلة «الخصي الأعظم» Grand Eunuch التي ضمت مئات السفن التي أبحرت من الصين إلى جنوب وجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط وغرب أفريقيا محملة بالثروات والأعاجيب. حققت الرحلة هدفها الأول وهو إقناع الأمم المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر أن الصين متفوقة من جميع النواحي على مجتمعاتهم. ولم يكن الصينيون معنيين برؤية أي شيء تنتجه هذه المجتمعات أو معروف عنها ـ بما في ذلك حيوان الزرافة الذي عرضه الأفارقة المضيفون على ضيوفهم. واكتفى الصينيون بالدفع بأن هذا الحيوان معروف لديهم باسم كي لين وأنه كائن من المتوقع ظهوره إيذانا بأحداث مهمة من مثل ميلاد إمبراطور عظيم.

وكان هذا الافتقار إلى الفضول المعرفي خاصية مميزة للصين. إذ كان معروفا أن سكان المملكة الوسطى (إذ إن اسم الصين بالرسم الصيني يعني مركز العالم) لم يهتموا كثيرا بالحكايات التي يرويها لهم الأجانب. علاوة على



هذا لم تعرف الصين اهتماما قويا بالمعرفة من أجل المعرفة. وأكثر من هذا أن الفلاسفة الصينيين المحدثين كانوا عزوفين للغاية عن الاستخدام البرجماتي للمعرفة على عكس اهتمامهم بالتنظير المجرد لذاته.

إن الإنجازات الفكرية المتقدمة التي تميزت بها أوروبا بمعدلات متزايدة ابتداء من القرن الخامس عشر حتى الآن تحتاج في ظني إلى ما هو أكثر من التفسير الإيكولوجي أو الجيوبوليتيكي من النوع الذي طرحه بعض أنصار النظرة التاريخية الكلية macrohistory بمن فيهم صاحب الكتاب الرائع «البنادق والجراثيم والصلب»، الذي ألفه جاريد دياموند. وحيث إن من الصحيح أن الاستبداد وما يترتب عليه من قمع للرأي وللمبادرة يمكن أن يظهر في الصين بأيسر مما يظهر في أوروبا على أسس إيكولوجية، لذلك يبدو لي أننا نخطئ إذ نقصر تفسير حرية البحث والتقدم العلمي في أوروبا على عوامل فيزيقية بحتة. ونعرف أنه قبل القرن الخامس عشر غُرست هذه القيم والذهنية المرتبطة بها في العقل الأوروبي. وشرع مارتن لوثر في عرض أطروحاته الخمس والتسعين ضد مباذل الكنيسة وطغيانها ليس فقط لأن من اليسير عليه الانطلاق بها جغرافيا، بل لأن تاريخ أوروبا خلق نوعا جديدا من الإنسان - الإنسان الذي تصور الأفراد كيانات منفصلة عن المجتمع المحلي الأكبر وفكر في ضوء مصطلحات مشبعة بالحرية. وأنجز جاليليو ونيوتن اكتشافاتهما، ليس فقط لأنه لم يكن أحدهما مقموعا بل بسبب فضولهما المعرفي والعادات الفكرية لعقليهما.

وها هو الشرق الآن بطبيعة الحال يدنو من رصيد الغرب من الأفكار بمعدل متزايد السرعات. وثمة أسئلة تطرأ على الذهن: ما عسى أن يكون أثر هذه الأفكار في الشرق؟ كيف عساها أن تكون بعد أن تمر عبر المصفاة الشرقية؟ وما التعديلات التي يمكن أن يتبناها الغرب؟ يمكن تخمين الإجابات عند النظر إلى الاختلافات في العادات العقلية للمعاصرين لنا الآن.

من حيث التاريخ فإن التفسير الذي أقترحه لبيان سبب تباعد الصين واليونان قديما على نحو ما رأينا هو تفسير تأملي. بيد أنه، مع هذا، يمثل رؤية علمية - ذلك لأنه يفضي إلى تنبؤات يمكن أن تخضع للاختبار، بل واختبارها في معمل علم النفس.



قدم علماء النفس في القرن العشرين شواهد وأدلة على أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية يمكن أن تؤثر في العادات الإدراكية. وأوضح هيرمان وتكين ورفاقه أن بعض الناس أقل ميلا من سواهم إلى فصل الموضوع عن البيئة المحيطة به. وسموا هذا البعد «الاعتمادية على المجال» field dependence، في إشارة إلى درجة تأثر إدراك الموضوع بالخلفية أو البيئة التي يظهر فيها. وقاس وتكين ورفاقه الاعتمادية على المجال بوسائل عديدة متباينة. إحدى هذه الوسائل هي اختبار المؤشر والإطار Rod and Frame Test ينظر المشارك في هذا الاختبار داخل صندوق طويل في نهايته عصا حولها إطار. ويمكن إمالة كل من العصا والإطار في استقلال أحدهما عن الآخر، ومهمة المشارك في الاختبار هنا أن يقول متى تكون العصا في وضع رأسي تماما. ويوصف المشارك بأنه معتمد على المجال بقدر ما تكون أحكامه عن الوضع الرأسي للعصا متأثرة بوضع الإطار. أسلوب آخر لاختبار الاعتمادية على المجال هو أن يجلس الشخص المشارك في كرسي يميل مستقلا عن الحجرة أو المكان الذي فيه. ويسمى الاختبار في هذه الحالة «اختبار توافق وضع الجسم Body Adjustment Test»، ويعتبر المشارك معتمدا على المجال بقدر ما تكون أحكامه عن الوضع الرأسي لجسمه هو متأثرة بانحدار أو ميل المجال. أسلوب ثالث، هو الأيسر في التطبيق، هو اختبار الأشكال المطمورة Embedded Figures Test، وتتمثل مهمة المشارك هنا في أن يحدد موقع شكل بسيط مطمور داخل شكل أكثر تعقيدا بدرجة كبيرة. وكلما طالت الفترة الزمنية التي يقضيها المشارك للاهتداء إلى الشكل البسيط المطمور وسط سياقه المعقد كان أكثر اعتمادا على المجال.

إحدى دلالات فكرة أن العوامل الاقتصادية يمكن أن تؤثر في العادات المعرفية هي أن الشعوب الزراعية أكثر اعتمادا على المجال من الشعوب التي تعوّل في حياتها على أساليب عيش أقل ركونا إلى التنسيق الوثيق بين جهودهم وجهود الآخرين من مثل القنص وجمع الثمار. وهذا هو واقع الحال بالفعل. ولنا أيضا أن نتوقع أن تكون الشعوب العاملة بالزراعة تقليديا أكثر اعتمادا على المجال من الشعوب التي تعيش في مجتمعات صناعية، حيث يمكن للمرء أن يتابع إنجاز أهدافه الشخصية من دون اهتمام عن كثب بشبكة الأدوار والالتزامات الاجتماعية، وهذا صحيح وما



يشهد به الواقع. والملاحظ حقيقة أن الذين يعيشون على القنص وجمع الثمار وكذا من يعيشون في المجتمعات الصناعية متساوون في درجة الاعتماد على المجال.

إذن الفارق الأول بين الشعوب الزراعية من ناحية والمجتمعات التي تعيش على القنص وجمع الثمار، وكذا المواطنون المحدثون المستقلون في المجتمعات الصناعية الحديثة من ناحية أخرى، هو فارق يتعلق بدرجة الاهتمام بالعالم الاجتماعي. وإذا صح هذا فسوف يكون من المقبول عقلا أن نتوقع أن الثقافات الفرعية داخل مجتمع ما مختلفة من حيث درجة الاعتمادية على المجال. وعمد عالم النفس المختص بدراسة الشخصية زخاري ديرشوفيتز إلى اختبار هذا الفرض. لذلك درس الاعتمادية على المجال بين صبية يهود أورثوذكس يعيشون، كما أكد هو، داخل أسر وأوضاع اجتماعية تؤكد صراحة على دور العلاقات وتفرض موضوعيا قيودا اجتماعية. وقارن بين أدائهم وأداء صبية يهود علمانيين يخضعون، كما يؤكد، لضوابط اجتماعية أكثر استرخاء وتساهلا. وقارنها أيضا مع صبية بروتستانت يعيشون، كما يعتقد، حياة تسودها ضوابط أكثر من هؤلاء تسامحا. وكما هو متوقع وجد ديرشوفيتز أن الصبية الأورثوذكس أكثر اعتمادا على المجال من الصبية اليهود العلمانيين، وهؤلاء بدورهم أكثر اعتمادا على المجال من الصبية البروتستانت.

وليس ثمة من سبب يدعو إلى افتراض أن الاعتمادية على المجال تحدث فقط كنتيجة لقيود اجتماعية مفروضة من خارج. وإنما لنا أن نتوقع أن الاهتمام بالآخرين، أيا كان مصدره، لابد أن يقترن بالاعتمادية على المجال. والحقيقة أن من يتصفون بالاعتمادية على المجال نسبيا يروق لهم أن يكونوا مع آخرين أكثر مما هي الحال بالنسبة إلى من يتصفون بالاستقلالية النسبية عن المجال. ويلاحظ أيضا أن المعتمدين على المجال لديهم ذاكرة أفضل من حيث تذكر الوجوه والكلمات الاجتماعية (زيارة، حقل) قياسا إلى المستقلين نسبيا عن المجال. وإذا أتيحت فرصة الاختيار للمعتمدين على المجال فإنهم يؤثرون الجلوس متقاربين جدا بعضهم من بعض أكثر مما هي الحال بالنسبة إلى المستقلين نسبيا عن المجال.



دلالات خاصة بالفكر في العالم الحديث

ولكن دلالات الرأي الذي أقترحه تتجاوز كثيرا حدود أسلوب بعينه في إدراك الموضوعات من حيث علاقتها بالبيئة. وإذا كان صوابا ما ذهبت إليه من تفسير للعلاقة بين العوامل الاجتماعية وعمليات الفكر. وإذا كانت الفوارق الاجتماعية بين الشرق والغرب اليوم تشبه ما كان في الأزمنة القديمة. إذن يصبح بوسعنا أن نصطنع عددا من التنبؤات المهمة بشأن الفوارق المعرفية بين الآسيويين الشرقيين والغربيين المعاصرين. وأعتقد أن من المحتمل أن نجد اختلافات في:

- أنماط الانتباه والاهتمام والإدراك حيث أبناء شرق آسيا يهتمون أكثر بالأوساط والبيئات، بينما الغربيون يبدون اهتماما أكثر بالموضوعات. كذلك أبناء شرق آسيا أكثر ميلا من الغربيين إلى اكتشاف العلاقات بين الأحداث والوقائع.
- الفروض الأساسية عن تكوين العالم، حيث أبناء شرق آسيا يرون في العالم تكوينات متداخلة، بينما يرى فيه الغربيون موضوعات مستقلة.
- المعتقدات بشأن إمكان التحكم في البيئة حيث يؤمن الغربيون بإمكان التحكم أكثر مما يؤمن أبناء شرق آسيا.
- الفروض الضمنية عن الاستقرار والثبات مقابل التحول والتغير، حيث يرى الغربيون الثبات بينما يرى أبناء شرق آسيا التحول.
- الأنماط الأثيرة لتفسير الأحداث، حيث الغربيون يركزون على الموضوعات بينما أبناء شرق آسيا يلقون بشبكة عريضة تشمل البيئة.
- العادات في تنظيم مكونات العالم، حيث الغربيون يؤثرون التصنيف إلى فئات بينما أبناء شرق آسيا أميل إلى تأكيد العلاقات.
- استخدام قواعد المنطق الصوري حيث الغربيون يميلون إلى استخدام القواعد المنطقية لفهم الأحداث أكثر مما هي حال أبناء شرق آسيا.
- تطبيق أساليب التناول الجدلية، حيث إن أبناء شرق آسيا يميلون أكثر إلى التماس طريق وسطي إذا ما واجهتهم حالة تناقض ظاهري هذا بينما الغربيون أكثر ميلا إلى تأكيد صواب اعتقاد ما دون سواه.

هذه على أي حال توقعاتنا بشأن عادات العقل المترتبة على نظرتنا إذا كان الغربيون وأبناء شرق آسيا حقا لديهم أساليب مختلفة على نحو أساسي في النظر إلى أنفسهم من دون رؤية العالم الاجتماعي.



3 العيش معا أم الحياة فرادى؟

يؤمن غالبية الغربيين، أو لنقل غالبية الأمريكيين بأن التعميمات التالية تصدق تقريبا على كل فرد:

● كل فرد يتصف بمجموعة من الصفات المتمايزة والمميزة له. وأكثر من هذا يريد الناس أن يكونوا متمايزين ـ أي مختلفين عن الآخرين من نواح مهمة.

● الناس متحكمون إلى حد كبير في سلوكهم؛ يشعرون بأنهم في حال أفضل حين يكونون في مواقف من شأنها أن تجعل الاختيار والتفضيل الشخصي هما العامل المحدد للنتائج.

● الناس يتجهون صوب أهداف شخصية تمثل نجاحا وإنجازا، ويرون أن العلاقات والانتماء عضويا إلى جماعة ما يتوافقان أحيانا مع نهج المرء لبلوغ هذه الأهداف.

● يجاهد الناس بغية الإحساس بالرضا عن أنفسهم. وتمثل النجاحات الشخصية والضمانات التي تؤكد هذه الخاصيات الإيجابية عنصرا مهما لتوليد هذا الإحساس بالرضا والرفاه.

«يعلي أبناء شرق آسيا من قيمة النجاح والإنجاز عن رضا ورحابة صدر لأنهما يعودان بالنفع على الجماعات التي ينتمون إليها. ويعلي الغربيون من قيمة النجاح والإنجاز لأنهما وسام دال على جدارة شخصية»

المؤلف



● يفضل الناس الكيف في حالة العلاقات الشخصية أو يفضلون الوضع الاسمي حين تكون العلاقات تراتبية هرمية.

● يؤمن الناس بضرورة أن تنطبق القواعد والقوانين نفسها على الجميع ـ ينبغي عدم استثناء أحد ليلقى معاملة خاصة بسبب صفات شخصية أو روابط وعلاقات خاصة تربطه بأشخاص مهمين ذوي حيثية. العدالة عمياء لا تميز بين شخص وآخر.

وهناك في الحقيقة ملايين بهذه الصفات، ولكن نجدهم أساسا في أوروبا وبخاصة في شمال أوروبا وفي بلدان الكومنولث البريطاني الآن وفي الماضي، بما في ذلك الولايات المتحدة. ويلاحظ أن السمات النفسية الاجتماعية المميزة لغالبية المجتمعات الأخرى في العالم، خاصة مجتمعات شرق آسيا، أميل إلى الاختلاف عن ذلك بدرجة أو بأخرى.

الذات غير الغربية

هناك تعبير آسيوي يعكس انحيازا ثقافيا ضد الفردية. «الخنزير الذي يبعد عن القطيع يشبع ضربا». ويسود اعتقاد عام يفيد بأن الآسيويين أقل اهتماما من الغربيين بالأهداف الشخصية أو تعظيم الذات، لكن الاهتمام ينصب غالبا على أهداف الجماعة والعمل المتآزر. كذلك فإن الحفاظ على العلاقات الاجتماعية في تناغم له الأسبقية على إنجاز نجاح شخصي. والنجاح هدف منشود، باعتباره هدفا جماعيا، وليس وسام استحقاق شخصي. والتميز الفردي ليس مستصوبا في ذاته. والملاحظ عند الآسيويين أن الشعور بالرضا عن النفس مقترن ـ على الأرجح ـ بالشعور بأنهم في تناغم مع رغبات وأماني الجماعة التي ينتمون إليها ووفائهم بكل ما تتوقعه الجماعة منهم. أما المساواة في المعاملة فليست مفترضة ولا ينظرون إليها كشيء مستصوب بالضرورة.

ومن المسلم به أن القواعد التي تنطبق على العلاقات في شرق آسيا هي قواعد محلية خاصة، ومحددة جيدا على أساس الدور المنوط بها وليست قواعد كلية. قال لي صديق آسيوي إن أهم شيء لحظه عند زيارته للأسر الأمريكية هو أن كل فرد حريص دائما على توجيه الشكر لكل فرد آخر: «شكرا لإعدادك المائدة»؛ «شكرا لك إذ غسلت السيارة». ولكن في بلده كل

امرئ عليه التزام واضح في سياق محدد، ولا حاجة بك لأن تقدم شكرا على أداء الواجب. والاختيار ليس أولوية قصوى عند غالبية شعوب العالم. [سألني ذات يوم صديق من شرق آسيا لماذا يرى الأمريكيون ضرورة في أن يحددوا اختيارهم من بين أربعين نوعا من حبوب طعام الإفطار في السوق المجمعة «السوبر ماركت»]. ويتسق هذا مع ما يشعر به الآسيوي من أنه غير أهل ليكون صاحب قرار عندما يكون لزاما عليه أن يختار.

إن غالبية الأمريكيين ممن تجاوز عمرهم سنا معينة يتذكرون كتاب «تعلم القراءة» في الطفولة وعنوانه «ديك وجين». كان ديك وجين وكلبهما سبوت عناصر فردية نشطة. نطالع الصفحة الأولى من الطبعات الأولى في ثلاثينيات القرن العشرين (هذا الكتاب لتعلم القراءة ظل مستخدما على نطاق واسع حتى ستينيات القرن العشرين) فنجد هذه الصفحة تصور صبيا صغيرا يجري وسط المروج. وتقول العبارات الأولى «انظر ديك يجري. انظر ديك يلعب. انظر ديك يجري ويلعب». ويبدو أن هذا نوع طبيعي جيد لتقديم المعلومات الأساسية عن الأطفال ـ وفقا للذهنية الغربية ـ ولكن الصفحة الأولى من الكتاب الأول الصيني لتعليم القراءة خلال الحقبة نفسها يوضح صبيا صغيرا جالسا على كتفي ولد أكبر. «الأخ الأكبر يعتني بالأخ الأصغر. الأخ الكبير يحب الأخ الصغير. الأخ الصغير يحب الأخ الكبير». ها هنا لا نجد سلوكا فرديا بل علاقات بين الناس، وهي الشيء المهم نقله للطفل في أول عهده مع الكلمة المطبوعة.

والحقيقة أن الذات بالأسلوب الغربي تبدو في نظر الآسيوي الشرقي ضربا من نسج الخيال. ويقول في هذا الصدد الفيلسوف هو شيه «في الفلسفة الكونفوشية التي تتخذ الإنسان محورا لها، لا يمكن أن يوجد الإنسان وحده؛ ويجب أن تكون جميع الأعمال في صورة تفاعل بين إنسان وإنسان». المرء موجود دائما داخل أوضاع ـ خاصة المواقف التي تضم أفرادا أو جماعات بذاتها ممن يرتبط بهم المرء بعلاقات من نوع محدد ـ وأن الفكرة التي ترى أن بالإمكان وجود صفات أو أفعال غير مشروطة بظروف وملابسات اجتماعية فكرة غريبة على الذهنية الآسيوية. وقدم عالم الأنثروبولوجيا إدوارد تي. هول فكرة مجتمعات «السياق ـ الأدنى» low-context society ومجتمعات «السياق ـ الأعلى» high-context societies.

وأراد بذلك أن يمسك بالفوارق في فهم الذات. يرى الغربي أن من المعقول لديه أن يتحدث عن شخص باعتبار أن له صفات محددة مستقلة عن الملابسات والظروف أو عن علاقات شخصية محددة. إن هذه الذات ـ العنصر الفاعل الحر ذا الحدود الملزمة والذي لا يقبل النفاذية ـ يمكن أن تنتقل من جماعة إلى جماعة ومن وضع إلى آخر من دون أن يطرأ عليها تغير مهم. ولكن المرء من أبناء شرق آسيا (وكذا غالبية الشعوب الأخرى بدرجات متفاوتة) يرى الشخص ملزما بارتباطات ومحكوما بشروط وأوضاع وغير معزول بحدود. وعبر عن هذا الفيلسوف دونالد مونرو إذ قال «يفهم الآسيويون الشرقيون أنفسهم في ضوء علاقاتهم بالكل من مثل الأسرة أو المجتمع أو مبدأ الطاو أو الوعي المحض». يشارك المرء في مجموعة من العلاقات التي تيسر عليه العمل، كما أن السلوك المستقل تماما فهو سلوك غير ممكن ولا حتى مستصوب».

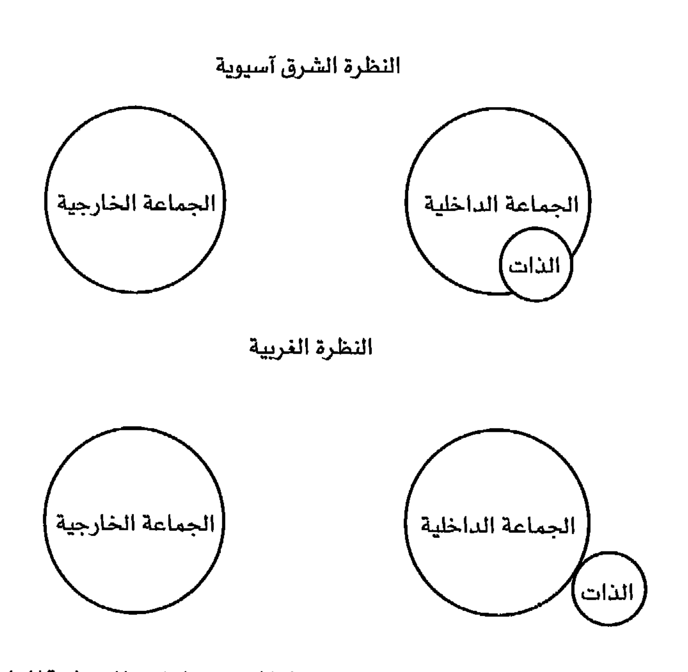
وحيث إن كل عمل يجري في تضافر واتساق مع الآخرين، أو إنه على أقل تقدير يؤثر في الآخرين فإن التناغم «الهارموني» في العلاقات يغدو هدفا رئيسيا للحياة الاجتماعية. وقد عرضت تصويرا تخطيطيا عاما بهدف تحديد مختلف أنماط الإحساس بالذات في علاقتها بالجماعة المفضلة أو الجماعة الداخلية(*) أو دائرة الأصدقاء وثيقة الصلة والأسرة. ويكشف التصوير التوضيحي أيضا عن البعد النسبي بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية، أو من هم مجرد معارف على أحسن تقدير. ويشعر أبناء شرق آسيا أنهم ساكنون في أعماق جماعاتهم الداخلية وبعيدون عن جماعاتهم الخارجية. وهم أميل إلى الشعور بأنهم متماثلون للغاية مع أعضاء الجماعة الداخلية، ويولونهم ثقة أكبر كثيرا من ثقتهم بأعضاء الجماعة الخارجية. ويشعر الغربيون أنهم مقطوعو الصلة نسبيا بجماعاتهم الداخلية، وهم أميل إلى اصطناع تمايزات أساسية وكبيرة تميز بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية.

وتوضح بعض الحقائق الإنسانية الهوة النفسية الاجتماعية بين الشرق والغرب. إننا لا نجد في اللغة الصينية كلمة للدلالة على «النزعة الفردية». وأقرب كلمة للدلالة عليها كلمة تعني «الأنانية». كذلك فإن الرسم الصيني

(*) الجماعة الداخلية in-group جماعة يسودها مستوى عال من روح الجماعة وشعور قوي بالاعتداد الذاتي لهذا الانتماء، ويحدد الفرد انتماءه الاجتماعي على أساس هذه العلاقة ويؤثرها على غيرها. أما الجماعة الخارجية فهي الجماعة التي لا ينتمي إليها المرء ولا يربطه بها التزام ما [المترجم].



لكلمة جنّ ـ الخيرية ـ فإنه يعني رجلين. كذلك كلمة «أنا» في اللغة اليابانية ـ التي تعنِي الذات المتعدية للموقف، غير المشروطة والعامة الكاملة لجميع صفاتها وأهدافها وقدراتها وأفضلياتها ـ لا تستخدم كثيرا في المحادثات. ونجد في اللغة اليابانية بدلا من هذا كلمات كثيرة للدلالة على «أنا» وكل منها رهن جمهور المخاطبين ورهن السياق. وإذا حدث أن أدلت امرأة يابانية بحديث رسمي فإنها عادة ما تستخدم، حسب العرف والتقاليد، كلمة «واتاشي» وهي أقرب كلمة يابانية لكلمة «أنا» المتعدية للموقف. وإذا أشار رجل إلى نفسه من حيث علاقته بأصدقاء حميمين فإنه يقول مثلا «بوكو» أو «أور». وعندما يتكلم أب مع طفله فإنه يقول «أوتوسان» أي أب «Dad». وقد تشير الفتاة إلى نفسها بكنيتها إذا ما كانت تحادث عضوا في الأسرة: «تومو ستذهب إلى المدرسة اليوم». وغالبا ما يسمي اليابانيون أنفسهم «جيبون» وهي كلمة يفيد تحليلها التاريخي إلى أنها تعني «حصتي أو نصيبي أو قدري».



النظرتان الشرق آسيوية والغربية إلى العلاقات بين الذات والجماعة الداخلية والجماعة الخارجية



ونجد في اللغة الكورية عبارة مثل «هل لك أن تحضر لتناول العشاء؟» تستلزم استخدام كلمات مختلفة للدلالة على «أنت أو المخاطب» وهو أمر شائع في لغات كثيرة. ولكن أيضا كلمة العشاء فإنها تتوقف على نوع من تخاطبه هل تدعو طالبا أم أستاذا. وتعكس مثل هذه الممارسات ليس فقط الأدب أو التواضع وإبقاء الذات بعيدا عن الأضواء بل تعكس أيضا اقتناع أبناء شرق آسيا بأن المرء شخص مختلف باختلاف من يتفاعل معهم.

وعبارة «حدثني عن نفسك» تبدو عبارة مباشرة تماما وكافية لكي تسأل عن شخص ما. ولكن نوع الإجابة يعتمد إلى حد كبير على نوع المجتمع الذي تسأل فيه هذا السؤال. الأمريكيون الشماليون سيحدثونك عن سماتهم الشخصية (ودود، دؤوب في العمل) وعن تصنيفات وصفات الدور (معلم، أعمل في شركة تنتج الشرائح الإلكترونية) وعن الأنشطة (سأذهب إلى معسكر فترة من الزمن). وهنا نلحظ أن الأمريكيين لا يربطون أوصافهم لذواتهم بالسياق إلى حد كبير. ولكن الذات الصينية أو اليابانية أو الكورية فإنها، على العكس من ذلك، تتوقف إلى حد كبير على السياق (أنا جاد في عملي، أحب المزاح مع أصدقائي). وثمة دراسة طلبت من يابانيين وأمريكيين أن يصفوا أنفسهم سواء في سياقات محددة أو من دون تعيين نوع محدد من المواقف. وأوضحت الدراسة أن اليابانيين وجدوا أن من الصعب عليهم جدا وصف أنفسهم من دون تعيين نوع محدد من المواقف ـ في العمل، في البيت، مع أصدقاء... إلخ. ولكن الأمريكيين في المقابل غلب عليهم الشعور بالارتباك حين حدد الباحث سياقا ـ «أنا من أنا». ويلاحظ أن أبناء شرق آسيا حين يصفون أنفسهم يشيرون إلى الأدوار الاجتماعية (أنا صديق جون) ويهتمون بذلك أكثر من الأمريكيين. وكشفت دراسة أخرى عن أن اليابانيين ضعف الأمريكيين في نزوعهم ـ عند وصفهم لأنفسهم ـ إلى الإشارة إلى الآخرين («أطهو العشاء مع أختي»).

وأوضحت دراسة استقصائية عن صفات وأفضليات الأمريكيين الشماليين أنهم يبالغون في تقييمهم لتميزهم. ووضح من سؤال بعد آخر أن الأمريكيين الشماليين يتحدثون عن أنفسهم بأنهم أكثر تفردا مما هم في الحقيقة، بينما أبناء شرق آسيا أقل ميلا إلى الوقوع في هذا الخطأ. ويفضل الغربيون كذلك التفرد في البيئة أو الوسط وكذا التفرد في ممتلكاتهم وما يتميزون به. ونذكر



أن اثنين من علماء علم النفس الاجتماعي وهما هيجونج كيم وهازل ماركوس سألا كوريين وأمريكيين أن يختار كل منهم من بين مجموعة موضوعات مصورة أي موضوع يفضلونه. اختار الأمريكيون الموضوع الأندر بينما اختار الكوريون الموضوع الأكثر شيوعا. وطلبا منهم أن يختار كل منهم قلما هدية فاختار الأمريكيون اللون الأقل شيوعا من بين الألوان المطروحة أمامهم بينما اختار الكوريون الأكثر شيوعا.

وإنه لأمر ذو دلالة أن الكلمة اليابانية المعبرة عن تقدير الذات هي «سيروفو ايسوتيمو». إذ لا توجد كلمة وطنية تستوعب مفهوم الإحساس بالرضا عن النفس. ويلاحظ أن الغربيين أكثر اهتماما من أبناء شرق آسيا بتعزيز أنفسهم في نظرهم وفي نظر الآخرين. كذلك نرى الأمريكيين أميل من اليابانيين إلى إطلاق تعبيرات تلقائية محببة عن أنفسهم. وتأتي تعبيرات الثناء على النفس الموجهة إلى الأمريكيين والكنديين متجاوزة كثيرا حدود المتوسط. ولكن أبناء شرق آسيا يضعون أنفسهم في مرتبة أدنى قياسا بكل الأبعاد. إنهم لا يدعمون فقط أقل قدر من العبارات الإيجابية بل يؤكدون على الأرجح أن لديهم بعض الخلال السلبية. وليس من المرجح أن الآسيويين إذ يضعون أنفسهم في مثل هذه المكانة إنما يعبرون عن قدر من التواضع أكثر من الأمريكيين الشماليين. إن الآسيويين ـ في واقع الأمر ـ يظهرون تواضعا بدافع من وخز الضمير، ولكن الفارق في تحديد مكانة الذات يظل قائما حتى إذا ما ظن المشاركون أن إجاباتهم عامة وجماعية تماما.

ليس معنى هذا أن أبناء شرق آسيا مستاؤون من صفاتهم، إنما العكس إذ لديهم التزام ثقافي قوي بالشعور بخصوصيتهم أو أنهم موهوبون غير عاديين. وأن هدف الذات في علاقتها بالمجتمع ليست تأكيد التفوق أو التفرد، بل تحقيق التناغم داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية الداعمة، وأن يؤدي المرء دوره في إنجاز الغايات الجمعية. وتستلزم هذه الأهداف قدرا من النقد الذاتي ـ وهو نقيض دغدغة مشاعر الذات. وإذا كان عليّ أن أكون ملائما للجماعة ومتلائما معها، فإنه يصبح لزاما أن أتجرد من كل ما يتعلق بنفسي ويثير حنق وغضب الآخرين، أو يضاعف من صعوبة مهامهم. ويحرص أبناء شرق آسيا على تعليم أطفالهم التمازج مع الآخرين في تناغم. ولكننا في المقابل نجد بعض الأطفال الأمريكيين يذهبون إلى مدارس يحصل فيها كل



طفل على صفة «في. آي. بي.» VIP أي شخص مهم جدا. (أذكر أنه في بلدتي اجتمع مجلس إدارة المدرسة منذ بضع سنوات مضت وناقش هل الهدف الرئيسي للمدارس نقل المعارف أم غرس احترام الذات. وأشعر بالتقدير إزاء فيلم كارتون ظهر خلال هذه الفترة نفسها يعرض باب غرفة يحمل عبارة «قاعة الاحترام»).

ويتعلم أطفال المدارس في اليابان كيف يمارسون نقد الذات، سواء من أجل تحسين علاقاتهم مع الآخرين، أو ليضاعفوا من مهاراتهم في حل المشكلات. ونجد هذا الموقف الذي ينشد بلوغ نزعة الكمال perfectionism من خلال النقد الذاتي مستمرا على امتداد العمر. إن رئيس الطهاة أو معلم الرياضيات لا ينظر إليه المجتمع - باعتباره مستقلا - إلا بعد أن يمضي في وظيفته عقدا كاملا. وواقع الأمر أن المعلمين اليابانيين يظلون طوال حياتهم العملية محط اهتمام ومتابعة ومساعدة نظرائهم لكي يصبحوا أفضل في وظائفهم. وحري أن نقارن هذا بالممارسة الأمريكية التي تدفع بالمعلمين حديثي التخرج إلى الفصول الدراسية بعد بضعة شهور من تدريبهم، ثم يتركونهم وحدهم للنجاح أو للفشل، ويتركون التلاميذ لمصير قد يكون حسنا أو سيئا.

وأجرى ستيفن هاين ورفاقه تجربة تحدد الفارق بين اندفاع الغربي لكي يشعر بالرضا عن نفسه وبين دافع الشرق آسيوي لتحسين الذات. سأل الباحثون في تجربتهم طلابا كنديين ويابانيين الإجابة عن اختبار كاذب لـ «الإبداع»، وأعطوا الطلاب «تغذية مرتدة» تفيد بأنهم أدوا أداء حسنا للغاية أو سيئا جدا. وحرص المجريون على أن يتابعوا سرا ويسجلوا طول المدة التي يستغرقها كل من المشاركين لإنجاز مهمة مماثلة. عكف الكنديون على أداء المهمة مدة أطول إذا كان النجاح حليفهم بينما عكف اليابانيون على أداء المهمة مدة أطول إذا كان الفشل حليفهم. ولم يكن اليابانيون سعداء بالفشل إذ ليست لديهم نزعة مازوخية. وإنما رأوا أنهم إزاء فرصة لتحسين ذواتهم واستثمروها. وتكشف الدراسة عن دلالات مهمة بالنسبة لتطوير المهارات في كل من الغرب وشرق آسيا. الغربيون أميل إلى إجادة عدد محدود من المهام ويتخذون ذلك منطلقا لعمل جيد. ويبدو أن الشرقيين أميل إلى أن يجيدوا كل شيء أي صاحب الصنائع السبع.

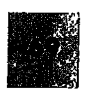


الاستقلال مقابل الاعتمادية المتبادلة

المفاضلة العامة بين طرازي المجتمعات والتي ناقشناها فيما سلف كانت فكرة ثابتة رئيسية في علم الاجتماع منذ القرن التاسع عشر. ويماثل التمييز هنا التمييز الذي اصطنعه علماء الاجتماع الألمان في القرن التاسع عشر خاصة فرديناند تونييس. إذ قدم تونييس تمييزا مفيدا للمقارنة بين الثقافات أي بين ما يسميه Gemeinschaft (المجتمع المحلي القائم على حس مشترك بالهوية) وGesellschaft (المؤسسة التي تهدف إلى تيسير النشاط من أجل إنجاز أهداف أداتية). وينبني المجتمع المحلي Gemeinschaft على العلاقات القائمة لذاتها ويرتكز على إحساس بالوحدة والتبادلية: مثال ذلك العلاقات بين أبناء الأسرة أو المحفل الديني أو شبكة الأصدقاء. إنه مجتمع قائم على التعاطف والتفاعل المباشر وجها لوجه، والخبرات المشتركة بل وربما الملكية المشتركة. أما المجتمع أو المؤسسة Gesellschaft فينبني على التفاعلات التي هي في غالب الأحيان وسيلة نحو غاية. وتتضمن كثيرا تبادلات للسلع والعمل، كما ترتكز غالبا على أسلوب المساومة والتعاقدات. وتسمح مثل هذه المنظومات الاجتماعية بالكسب الشخصي والميزة التنافسية. وتمثل الشركات الاتحادية الكبرى والبيروقراطيات مجتمع Gesellschaften.

ولا يحسبن أحد أن ثمة مؤسسة أو مجتمعا هو بالكامل ومن دون استثناء من هذا الطراز أو ذاك. إنهما طرازان مثاليان نظريان لا أكثر. ولكن التمييز بينهما له أهمية تحليلية كبرى بالنسبة إلى كثير من العلوم الاجتماعية الحديثة، وخاصة علم النفس الثقافي. وغالبا ما يوصف مجتمع Gemeinschaft بالنظام الاجتماعي «الجمعي» ويوصف Gesellschaft بالنظام الاجتماعي «الفردي». وسبق أن اقترح كل من هازيل ماركوس وشينوبو كيتاياما مصطلحي «المتكافل أو القائم على الاعتماد المتبادل و«المستقل». وهذان المصطلحان يفيدان الأفكار نفسها لذلك سوف أستخدمهما.

يبدأ التدرب على الاستقلال: أو التكافل حرفيا في المهد. وإذا كان الأطفال الأمريكيون حديثو الولادة ينامون في سرير مستقل عن الأبوين، أو ربما في غرفة مستقلة، إلا أن هذا نادر الحدوث بالنسبة إلى أطفال شرق آسيا ـ وهو ما يحدث أيضا في أغلب أنحاء العالم. ونجد على العكس أن النوم في السرير نفسه هو الأكثر شيوعا. وتتضاعف الفوارق والاختلافات في



مظاهر حياة اليقظة. مثال ذلك أن الكبار المعجبين من أجيال عديدة غالبا ما يحيطون بالطفل الصيني الوليد. (حتى قبل أن تؤدي سياسة الطفل الواحد إلى إنتاج «الأباطرة الصغار»). كذلك الطفل الياباني حديث الولادة يكاد يكون دائما مع أمه. وتعتبر العلاقة الوثيقة بالأم وضعا يتمنى بعض اليابانيين له أن يستمر بلا نهاية أو حدود. وأذكر بهذه المناسبة أن الباحثين في معهد البحوث الاجتماعية بجامعة ميتشيجان أجروا دراسة تستلزم جدولا يقارن درجة ارتباط المفحوصين من كبار اليابانيين والأمريكيين بأمهاتهم. وبدت المهمة شديدة الصعوبة لأن الباحثين اليابانيين أصروا على ضرورة إضافة خاتمة مقبولة لديهم إلى جدول الاختبار للإجابة عنها. وتقول هذه العبارة الختامية: «أريد أن أكون مع أمي كل الوقت تقريبا». وأصر الأمريكيون بطبيعة الحال على أن عبارة كهذه ستثير صخب وسخرية المفحوصين الأمريكيين وربما تجعلهم يمتنعون عن أن يأخذوا الاختبار مأخذا جادا.

ويلقى أطفال الغرب تشجيعا دائما وبأساليب صريحة على الاستقلال، ويطلب الآباء والأمهات الغربيون من أطفالهم دائما وأبدا أداء أعمال اعتمادا على أنفسهم فقط، ويسألونهم دائما أن يحددوا اختياراتهم بأنفسهم. «هل تحب أن تنام الآن أم تفضل تناول شيء من الطعام أولا؟» ولكن الأب الآسيوي يتخذ القرار لابنه مفترضا أن الأب يعرف أفضل من الابن ما هو خير له.

وطبيعي أن الآباء والأمهات الذين يعملون على غرس روح الاستقلال في نفوس أطفالهم لن يدهشهم إنجاز هدفهم جيدا، بحيث إن أطفالهم يعارضون أي تهديد يمس حريتهم في الاختيار. وطلب عالما النفس الاجتماعيان شينا ينجار ومارك ليبار من أطفال أمريكيين وصينيين ويابانيين، تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والتاسعة من العمر، أن يعيدوا ترتيب أحرف عبارات محددة. مثال ذلك أن سألوهم «ما هي الكلمة التي يمكن أن نؤلفها من الأحرف «ظ ي ع م»؟ وطلبوا من بعض الأطفال العمل على فئة محددة من لعبة إعادة توليف الأحرف. وأعطوا أطفالا آخرين حق الاختيار من بين عدد من اللعب ليختاروا أي لعبة توليف للأحرف يفضلون العمل على حلها. وقيل لآخرين إن الباحث القائم بالتجربة تحدث إلى أم الطفل التي تريد من الطفل أن يجيب عن فئة بذاتها. وقاس الباحثون بعد ذلك عدد لعب توليف أحرف الكلمات التي جرى حلها، والوقت الذي استغرقه حل كل منها. كشف الأطفال الأمريكيون عن



أعلى مستوى للحفز - قضوا أطول وقت لأداء المهمة وحلوا أكبر عدد - وذلك حين سمح لهم الباحثون باختيار الفئة. وكشف الأطفال الأمريكيون عن أدنى مستوى للحفز عندما كانت الأم هي التي اختارت الفئة، مما يفيد أن في هذا انتهاكا لاستقلالهم الذاتي ولهذا فقدوا بعض اهتمامهم الذاتي بالمهمة المنوط بهم حلها. وكشف الأطفال الآسيويون عن أعلى مستوى للحفز عندما كانت الأم هي التي اختارت الفئة.

والتأكيد على العلاقات يشجع الاهتمام بمشاعر الآخرين. إن الأمهات الأمريكيات حين يلعبن مع أطفالهن، نراهن يملن إلى توجيه أسئلة عن الموضوعات وإلى تقديم معلومات عنها. ولكن حين تلعب الأمهات اليابانيات مع أطفالهن، فإن أسئلتهن أميل إلى الاهتمام بالمشاعر. إن الأمهات اليابانيات ينزعن - على الأرجح - إلى استخدام كلمات وثيقة الصلة بالمشاعر حين يخطئ أطفالهن في السلوك: «الفلاح سوف يستاء إذا لم تأكل كل ما طهته ماما لك». «اللعبة تبكي لأنك ألقيتها على الأرض». «الحائط يقول آي». ولا ريب في أن تركيز الانتباه على الموضوعات، كما يميل الأبوان الأمريكيان إلى أن يفعلا هذا، يساعد على إعداد الأطفال لعالم، من المتوقع أن يعملوا فيه مستقلين. ولكن التركيز على المشاعر والعلاقات الاجتماعية، كما يميل الآباء والأمهات في شرق آسيا إلى أن يفعلوا، يساعد الأطفال على استباق ردود أفعال الناس الآخرين ممن سيكون لزاما عليهم أن يلائموا سلوكهم معهم.

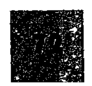
ويمكن أن نشهد في الكبر النتائج المترتبة على هذا التركيز الفارق على الحالات العاطفية للآخرين. وتوجد دلائل تؤكد أن أبناء شرق آسيا واعون ومهتمون بدقة بمشاعر ومواقف الآخرين أكثر مما هي حال الغربيين. مثال ذلك أظهر جيفري سانشيز - بوركس وزملاؤه إلى الكوريين والأمريكيين تقييمات حددها أصحاب الأعمال بشأن جداول التقديرات. كان الكوريون أفضل من الأمريكيين في الاستنتاج من التقديرات مشاعر أصحاب الأعمال إزاء العاملين، بينما مال الأمريكيون إلى أخذ التقديرات على وجهها الظاهري فقط. ويتسع نطاق التركيز على عواطف الآخرين ليشمل حتى مدركات المرء عن عالم الحيوان. عرضت أنا وتاكا ماسودا فيلم فيديو يصور مشاهد تحت الماء على طلاب أمريكيين ويابانيين وسألناهم أن يكتب



كل منهم تقريرا عما شاهده. كتب الطلاب اليابانيون ما يفيد أنهم «شاهدوا» مشاعر وحوافز من جانب الأسماك أكثر من الأمريكيين. مثال ذلك «السمك الأحمر غضب بالضرورة بسبب إيذاء حراشفه» وبالمثل عرض كايبنج ينج وفويبي الزوورث على طلاب صينيين وأمريكيين صورا متحركة عن سمك يتحرك حركات مختلفة من حيث العلاقة بين بعضه وبعض. مثال ذلك أن تظهر جماعة من السمك وكأنها تطارد سمكة واحدة، أو تنطلق بعيدا حين تقترب السمكة الوحيدة. وسأل الباحثون الطلاب عن مشاعر السمكة المفردة وجماعات السمك. استجاب الصينيون على نحو حسن للأسئلة. ولكن شعر الأمريكيون بصعوبة إزاء المهمتين، وأسقط في أيديهم حقيقة حين طلب الباحثون منهم تقريرا عن حقيقة انفعالات المجموعة.

وتنعكس الدرجة النسبية للحساسية تجاه عواطف الآخرين في الافتراضات الضمنية عن طبيعة الاتصال. إذ يعلم الغربيون أطفالهم توصيل أفكارهم بوضوح وتبني توجه «الناقل» أي أن المتحدث مسؤول عن نطق جمل تكون مفهومة بوضوح من جانب المخاطب ـ ومفهومة في الواقع مستقلة بدرجة أو بأخرى عن السياق. وإذا حدث سوء فهم نتيجة الاتصال فهو خطأ المتكلم. أما أبناء شرق آسيا فهم على العكس يعلمون أطفالهم توجه «المتلقي» بمعنى أن مسؤولية المستمع أن يفهم ما يقال. وإذا حدث أن أثار غناء طفل بصوت عال ضيق أب أمريكي، فإن الأب ـ على الأرجح ـ سيطلب من الطفل خفض الصوت. وها هنا لا نجد لبسا أو غموضا. ولكن الأب الآسيوي سيقول على الأرجح «ما أحلى الأغنية التي تغنيها». ربما يشعر الطفل بالسرور أول الأمر، ولكنه سيدرك على الأرجح أن ثمة معنى آخر مقصودا، وهنا سيحاول الطفل أن يخفض من صوته وربما يكف عن الغناء.

والغربيون عادة ـ وربما الأمريكيون بخاصة ـ أميل إلى الاعتقاد بصعوبة فهم أبناء شرق آسيا، ذلك لأن هؤلاء على الأرجح يفترضون أن بيت القصيد من حديثهم وضح على نحو غير مباشر وبطريقة مهذبة. ولكن الغربي يظل في حالة من اللبس. وأبناء شرق آسيا بدورهم أميل إلى الاعتقاد بأن الغربيين ـ وربما الأمريكيون بخاصة ـ مباشرون إلى حد التعالي بل وربما الخشونة في الكلام.



وثمة وسائل كثيرة لبيان التمييز بين المجتمعات المستقلة نسبيا والمتكافلة نسبيا. ولعل من المفيد لتوضيح ذلك أن نركز على أربعة أبعاد متمايزة، وإن كانت مترابطة:

- الإصرار على حرية العمل الفردي مقابل تفضيل العمل الجمعي.
- الرغبة في التميز الفردي مقابل إيثار الامتزاج في تناغم مع الجماعة.
- إيثار المساواتية والمكانة العصامية مقابل قبول التراتبية الهرمية والمكانة التي يضفيها الخارج.
- إيمان بأن القواعد الحاكمة للسلوك السوي ينبغي أن تكون كلية وشاملة مقابل تفضيل أساليب التناول التخصيصية التي تأخذ في الاعتبار السياق وطبيعة العلاقات المتضمنة.

هذه الأبعاد مترابطة بعضها مع بعض، ومن الممكن، على سبيل المثال، أن يكون مجتمع ما مستقلا تماما بالنسبة إلى بعض الأبعاد وأقل استقلالا بالنسبة إلى أبعاد أخرى. وحاول علماء الاجتماع قياس كل من هذه الأبعاد، وقياس أبعاد أخرى في اقتران بعضها ببعض بوسائل مختلفة من بينها دراسة استقصائية للقيم ودراسات عن مادة مسجلة في محفوظات وتجارب.

وجدير بالذكر أن من أهم مواد الدراسات الاستقصائية هي تلك التي وفرتها دراسة رجال الأعمال في الثقافات المختلفة. إذ تزودنا هذه الدراسات الاستقصائية بأدلة مقنعة تماما نظرا لثبات قدر كبير منها بدرجة أو بأخرى، بما في ذلك الثروة النسبية والمستويات التعليمية. وثمة دراسة كلاسيكية من هذا النوع أعدها جيرت هوفستيد وتهيئ لنا إمكانا أكبر للمقارنة: إذ إن جميع مشاركيه الوافدين من عشرات المجتمعات المختلفة كانوا عاملين في شركة آي. بي. إم. واكتشف فوارق ثقافية درامية من حيث القيم بين كبار العاملين ذوي الرداء الأزرق (المرتبة الدنيا).

وحصل على بيانات مماثلة كل من شارتس هامبدن - تورنر والفونس ترومبنارس ويعملان أستاذين في مدرسة دولية لمشروعات الأعمال في هولندا. قدما على مدى فترة تمتد إلى سنوات عديدة عشرات الأسئلة التي طرحاها على مديرين من الدرجة الوسطى والذين أشرفوا على ندوات انعقدت في مختلف أنحاء العالم. وبلغ عدد المشاركين في الندوات خمس عشرة ألفا. ووفدوا جميعا من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وبريطانيا



وهولندا والسويد وبلجيكا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وسنغافورة واليابان. (وعدد قليل من إسبانيا وكوريا أيضا). عرض هامبدن ـ تورنر وترومبنارس على طلابهما معضلات تتضمن قيما مستقلة ومتداخلة معها قيم مناهضة للاعتمادية المتبادلة أو التكافل.

وأراد هامبدن ـ تورنر وترومبنارس دراسة قيمة التميز الفردي مقابل علاقات التناغم مع الجماعة. ووصولا إلى هذا سألا المديرين أن يشيروا إلى أي أنماط الوظائف المعروضة عليهم يفضلونها: «أ» وظائف تكفل تشجيع المبادرات الشخصية وينجز فيها الفرد مبادراته. مقابل «ب» وظائف لا ينفرد إنسان فيها عن الآخرين بسبب امتياز شخصي ولكن حيث يعمل الجميع معا. أكثر من ٩٠ في المائة ممن أجابوا من الأمريكيين والكنديين والأستراليين والبريطانيين والهولنديين والسويديين دعموا الاختيار الأول ـ بديل المعبر عن الحرية الفردية ـ مقابل أقل من ٥٠ في المائة من اليابانيين والسنغافوريين؛ واحتلت موقعا وسطا تفضيلات الألمان والإيطاليين والبلجيكيين والفرنسيين.

وتوصف الولايات المتحدة بأنها المكان الذي يمكنك فيه أن تبين أنك تغير الرقم الرمزي للمنطقة التي تعيش فيها كل خمس سنوات أو نحو ذلك. (كان هذا قبل أن تبدأ شركة الهاتف في تغيير الأرقام الرمزية للمناطق دون أن تنتظر حتى ينتقل الناس منها). ولكن نجد في بعض البلدان الأخرى علاقة الناس بالشركة التي يعملون بها، والرابطة بين المرء وزملاء العمل، موضع تقدير رفيع أكثر مما هي الحال في الولايات المتحدة، فضلا عن احتمال استمرارها بشكل دائم إلى حد ما. وعمد هامبدن ـ تورنر وترومبنارس إلى تقييم هذا الفارق. لذلك طلبا من المشاركين في الدراسة أن يختار كل منهم ما يروقه من بين التوقعات التالية: إذا تقدمت بطلب لشغل وظيفة في شركة «أ» سوف أعمل فيها يقينا طوال العمر أو «ب» إنني شبه متأكد بأن العلاقة ستمتد لفترة محدودة.

أكثر من ٩٠ في المائة من الأمريكيين والكنديين والأستراليين والبريطانيين والهولنديين رأوا أن الأرجح البقاء لفترة محدودة في الوظيفة. وصدق هذا بالنسبة لأربعين في المائة فقط من اليابانيين (وإن كانت هذه النتيجة ستكون دون شك أعلى موضوعيا اليوم بعد أن بدأت اليابان تطبق نظام خفض العمالة). ومرة أخرى احتل الفرنسيون والألمان والإيطاليون والبلجيكيون موقعا وسطا، وإن كان أقرب إلى الأوروبيين منهم إلى أبناء شرق آسيا.



وأراد هامبدن - تورنر وترومبنارس دراسة القيمة النسبية التي يراها المجتمع والفرد في المكانة العصامية مقابل المكانة الممنوحة. لذلك طلبا من المشاركين في الفحص بيان ما إذا كانوا يتفقون أم لا يتفقون مع النظرة التالية: أن يكون نجاح المرء واحترامه نتيجة جهد شاق يبذله. من المهم للمدير أن يكون أكبر سنا من مرؤوسيه. كبار السن أحق بالاحترام من صغار السن.

أكثر من ٦٠ في المائة من الأمريكيين والأستراليين والسويديين والبريطانيين الذين أجابوا رفضوا فكرة أن تنبني مكانة المرء على أساس السن، مهما كان السبيل. وأجاب حوالي ٦٠ في المائة من اليابانيين والكوريين والسنغافوريين بالموافقة على نظام تراتبي هرمي قائم على أساس العمر. وللمرة الثالثة كان الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبلجيكيون في موقع وسط، وإن كانوا أقرب إلى الأوروبيين منهم إلى أبناء شرق آسيا.

وبدهي أن تنشأ احتمالات كبيرة للنزاع حين يضطر أبناء ثقافات ذات توجهات مختلفة إلى العمل بعضهم مع بعض. ويصدق هذا بوجه خاص حين يتعامل من يؤمنون بالقواعد الكلية الشاملة مع من يرون أن كل موقف بذاته يتعين دراسته وتقييمه منفصلا على أساس ما له من قيمة وجدارة، وأن القواعد المختلفة يمكن أن تصلح لبشر مختلفين. ويفضل الغربيون الالتزام في حياتهم بمبادئ أساسية مجردة كما يحبون أن تكون هذه المبادئ صالحة للتطبيق على الجميع. ويرى الغربي أن ليس من الأخلاق في شيء التخلي عن القواعد الكلية الشاملة بغية ملاءمة حالات مفردة. ولكن التمسك بتطبيق قواعد واحدة على كل حالة فإنه يبدو، في أحسن الظروف، في نظر أبناء شرق آسيا أمرا يكشف عن جمود وضعف فكر ويبدو في أسوأ الظروف قاسيا. وجدير بالذكر أن الكثير من المسائل التي بحثها هامبدن - تورنر وترومبنارس تكشف عن الفارق الكبير القائم بين الثقافات في تفضيلها لقواعد يمكن تطبيقها على نحو كلي وشامل مقابل الاعتبار الخاص بكل حالة تأسيسا على جوانبها المتمايزة. ولوحظ أن إحدى هذه المسائل موضوع بحثهما تتعلق بكيفية تناول حالة عامل ظل عمله لدى الشركة على مدى عام دون المستوى على الرغم من أنه ظل متميزا طوال أربعة عشر عاما قبل ذلك. إذا لم يكن ثمة سبب يدعونا إلى أي توقع بتحسن الأداء، فهل يتعين على الشركة بالنسبة للعامل «أ» أن تفصله تأسيسا على أن الأداء الوظيفي سوف يظل



القاعدة التي ينبني عليها سبب الفصل، بغض النظر عن العمر وسجله السابق؛ أم «ب» هل من الخطأ إسقاط خمسة عشر عاما من الاعتبار التي قضاها العامل موظفا جيدا لدى الشركة؟ وأن على المرء أن يضع في الحسبان مسؤولية الشركة عن حياته.

أكثر من ٧٥ في المائة من الأمريكيين والكنديين رأوا أن على العامل أن يرحل. ووافق على هذا الرأي حوالي ٢٠ في المائة من الكوريين والسنغافوريين. ووافق أيضا حوالي ٣٠ في المائة من اليابانيين والفرنسيين والإيطاليين والألمان بينما وافق حوالي ٤٠ في المائة من البريطانيين والأستراليين والهولنديين والبلجيكيين (يلاحظ في هذه المسألة تحديدا أن البريطانيين والأستراليين كانوا أقرب إلى أبناء القارة الأوروبية منهم إلى الأمريكيين الشماليين).

توضح هذه النتائج التزام الغربيين بقواعد كلية لتطبيقها على الجميع. ونلحظ تأثير ذلك على فهمهم لطبيعة الاتفاقات بين الأفراد والشركات. وامتدادا لهذه النظرة يؤمن الغربيون بأن العقد ملزم فور الاتفاق عليه ـ بغض النظر عن الظروف والملابسات التي يمكن أن تجعل الاتفاق أقل استهواء لدى أطراف التعاقد عما كان عليه في البداية ـ ولكن بالنسبة إلى أبناء ثقافات عالية السياق تؤمن بالتكافل والاعتمادية المتبادلة فإن تغير الظروف يفرض تغيرات في الاتفاق.

هذه النظرات الاستشرافية المختلفة بعضها عن بعض اختلافا شديدا هي التي يتولد عنها بانتظام سوء فهم على الساحة الدولية. وخير مثال على هذا مسألة «عقد السكر» الياباني ـ الأسترالي في منتصف سبعينيات القرن العشرين. إذ تعاقدت شركات تكرير السكر اليابانية مع الموردين الأستراليين لتزويدهم بالسكر على مدى خمس سنوات بسعر ١٦٠ دولارا للطن. ولكن بعد توقيع العقد بفترة قصيرة انخفض سعر السكر في السوق العالمية انخفاضا حادا. هنا طالب اليابانيون بإعادة التفاوض بشأن العقد على أساس أن الظروف تغيرت جذريا. ولكن الأستراليين رأوا أن العقد ملزم ـ بغض النظر عن الظروف ـ ورفضوا التفكير في إدخال أي تغييرات.

ودلالة مهمة تتعلق بمشروعات الأعمال بسبب الفوارق بين المجتمعات المؤمنة بالاستقلالية والمجتمعات المؤمنة بالاعتمادية المتبادلة. تتمثل هذه الدلالة في ضرورة تعديل أسلوب الإعلان في ضوء الجمهور الثقافي المعني.



ونذكر هنا أن خبيري التسويق سانج - بيل هان وشارون شافيت أجريا دراسة تحليلية للإعلانات الأمريكية والكورية في مجلات الأخبار الشعبية والمجلات النسائية. وتبين لهما أن الإعلانات الأمريكية تؤكد على المنافع والأفضليات الفردية (شق طريقك في الزحام «اغتنم حياة المتعة»)؛ هذا بينما الإعلانات الكورية تؤكد في الأغلب على المنافع والأفضليات الجمعية (لدينا الطريقة لجمع شمل الناس أكثر «نعلن عن أنباء صداقات مشروعات الأعمال التي تحقق كسبا حقيقيا»). وأجرى كل من هان وشافيت تجارب تتمثل في عرض أنواع مختلفة من الإعلانات على الناس ووجدا أن الإعلانات الفردية أكثر تأثيرا بالنسبة إلى الأمريكان، بينما الإعلانات الجمعية أكثر تأثيرا بالنسبة إلى الكوريين.

وطبيعي أن الاستقلالية مقابل التكافلية ليست مسألة إما / أو. ذلك أن كل مجتمع، بل كل فرد هو مزيج من الاثنين. ويبدو واضحا أن من اليسير تماما أن يحتل هذا التوجه أو ذاك مكان الصدارة. ونذكر أن علماء النفس وندي جاردنر وشيرا جابرييل وأنجيلا لي «أعدوا» طلاب معهد أمريكي للتفكير إما على نحو «مستقل» أو «متكافل». وأنجزوا هذا بوسيلتين مختلفتين. طلبوا في إحدى التجارب من المشاركين قراءة قصة عن جنرال في الجيش في حاجة إلى أن يختار محاربا يرسله إلى الملك. لوحظ في الصيغة «المستقلة» أن على الملك أن يختار الشخص الأفضل للوظيفة. ولكن في الصيغة «التكافلية» أراد الجنرال أن يجري اختيارا من شأنه أن يفيد أسرته. ونجد في طريقة أخرى لإعداد الطلاب أن الباحثين طلبوا من المشاركين البحث عن كلمات محددة ضمن فقرة تصف رحلة إلى مدينة. وكانت الكلمات إما تدل بطبيعتها على الاستقلال (مثل «أنا»، و«لي») أو على التكافل (مثل «نحن» و«لنا»).

وطلب الباحثون من المشاركين بعد أن فرغوا من قراءة القصة أو البحث عن الكلمات داخل الفقرة، أن يملأوا بيانات في بحث استقصائي عن القيمة من شأنه تقييم ما يولونه من أهمية للقيم الفردية (من مثل الحرية وأن يعيش المرء حياة متنوعة) وكذا للقيم الجمعية (من مثل الانتمائية واحترام الكبار). وقرأوا أيضا قصة تحكي أن «ليزا» رفضت أن تعطي صديقتها «آمي» توجيهات عن الطريق إلى مستودع للفنون لأنها كانت



مستغرقة في قراءة كتاب. وسأل الباحثون بعد القراءة عما إذا كان سلوك ليزا أنانيا وغير ملائم. ولوحظ أن الطلاب الذين جرت تهيئتهم للميل الاستقلالي وضعوا القيم الفردية في مكانة عالية بينما وضعوا القيم الجمعية في مكانة أدنى قياسا إلى الطلاب الذين تهيأوا في ضوء اختبار التكافلية - كذلك كان الطلاب المهيأون للاستقلالية أكثر تسامحا في نظرتهم إلى ليزا المستغرقة في قراءة الكتاب. أعاد جاردنر وزملاؤه هذه الدراسة مرة أخرى بعد أن أضافوا طلابا من هونج كونج إلى العينة الأمريكية، وأضافوا أيضا شرطا ضابطا للتجربة ولكن دون إعداد أو تهيئة. ولوحظ أن الطلاب الأمريكيين وضعوا القيم الفردية في مرتبة أعلى من القيم الجمعية - ما لم يكونوا قد طبق عليهم أسلوب التهيئة التكافلية. ووضع الطلاب من هونج كونج القيم الجمعية في مرتبة أعلى من القيم الفردية - ما لم تتم تهيئتهم بالأسلوب الاستقلالي.

وطبيعي أن أبناء شرق آسيا مهيأون دائما للمعايير التكافلية بينما الغربيون مهيأون للمعايير الاستقلالية. وهذا من شأنه أن يثير مسألة تتعلق باحتمال أنهم حتى وإن لم تعدهم تنشئتهم للميل نحو هذا الاتجاه أو ذاك فإن المعايير المحيطة بهم ستجعل من يحيون في مجتمعات متكافلة يسلكون على نحو متكافل، بينما من يعيشون في مجتمعات مستقلة سوف يسلكون بوجه عام سلوكا مستقلا. ويبدو هذا في الحقيقة تقريرا عاما عمن يعيشون في كنف الثقافة الأخرى لفترة من الزمن. ويتعلق المثال المفضل عندي بعالم نفس شاب كندي عاش سنوات عديدة في اليابان. ثم شغل بعد ذلك وظائف في جامعات أمريكا. أحس المشرف عليه بالفزع إذ اكتشف أنه استهل رسالته باعتذارات عن عدم جدارته للوظائف موضوع البحث. ويوضح دليل آخر أن احترام الذات مسألة مرنة جدا. إذ لوحظ أن اليابانيين الذين عاشوا لفترة غير قصيرة في الغرب يبدون زيادة ملحوظة في احترام الذات، ربما لأن المواقف التي واجهتهم كانت بوجه عام داعمة للتحلي بمشاعر المزيد من الاحترام أكثر مما هو شائع في اليابان. ومن ثم فإن السمات النفسية الاجتماعية للناس الذين نشأوا في كنف ثقافات مختلفة أبعد من أن تكون غير قابلة للتغير بتاتا.



تباينات في وجهة النظر

توضح أعمال هامبدن ـ تورنر وترومبنارس أن الغرب ليس كتلة صماء أحادية فيما يتعلق بمسائل الاستقلال مقابل التكافل. إذ توجد أيضا مظاهر اطراد موضوعي للاختلافات القائمة في البلدان الغربية. ذلك أن بلدان المتوسط علاوة على بلجيكا وألمانيا تحتل موقعا وسطا بين بلدان شرق آسيا من ناحية والبلدان التي تتغلغل فيها البروتستانتية والثقافة الانجلوساكسونية من ناحية أخرى. وثمة اطراد أكثر من هذا أيضا. هناك من قال «الفكرة تتجه غربا» بمعنى أن قيم الفردية والحرية والعقلانية والكلية أو الكونية غدت أكثر هيمنة وإحكاما بشكل مطرد على مراحل مع اتجاه الحضارة غربا، ابتداء من أصولها الأولى في منطقة الهلال الخصيب. دوّن البابليون القانون وأضفوا عليه خاصية كلية. وأكد الإسرائيليون التميز الفردي. وأعلى الإغريق من قيمة الفردية أكثر مما سبق وأضافوا إليها الالتزام بالحرية الفردية وروح الجدل والمنطق الصوري. وأوتي الرومان موهبة التنظيم العقلاني وشيئا يشبه العبقرية الصينية للإنجاز التكنولوجي ـ ثم بعد فترة انحطاط امتدت ألف عام أعاد خلفاؤهم الإيطاليون اكتشاف هذه القيم وشرعوا في بناء جديد تأسيسا على إنجازات حقبتي الإغريق والرومان. ثم بدأ عصر الإصلاح البروتستانتي انطلاقا من ألمانيا وسويسرا مرورا بفرنسا وبلجيكا وأضاف المسؤولية الفردية وتعريفا جديدا للعمل باعتباره نشاطا مقدسا. كذلك أتى الإصلاح البروتستانتي بالتزام ضعيف تجاه الأسرة والجماعات الداخلية الأخرى مقترنا بإرادة أكبر نحو الثقة بالجماعات الخارجية وعقد تعاملات مع أبنائها. وتعززت وترسخت هذه القيم في الثقافات الفرعية الكالفنية (البروتستانتية) في بريطانيا بمن فيهم البيوريتان والمشيخيون أنصار أيديولوجيا المساواتية. وأرسى هؤلاء الأساس الذي قام عليه الحكم في الولايات المتحدة. (لقد كان توماس جيفرسون يردد عبارات قالها جون لوك المتعاطف مع البيوريتان حين قال «نؤمن بأن هذه حقائق بدهية، أن جميع البشر ولدوا متساوين.... يتمتعون بحقوق لا تقبل التصرف من بينها حق الحياة والحرية....»).



الاكتشافات التي توصل إليها هامبدن - تورنر وترومبنارس بشأن القيم الاجتماعية وكذا اكتشافات هوفستد تتتبع بدقة تلك الرحلة الأيديولوجية لشرق آسيا وللغرب. ويلاحظ أنه كلما كان موقع البلد أبعد في الاتجاه غربا ازداد دعم هذا البلد بعامة للقيم الاستقلالية. علاوة على هذا فإن هذه الفوارق بين الثقافات الأوروبية نراها منعكسة في ما خلفته من ثقافات فرعية لها في الولايات المتحدة. وهذه حقيقة وثقها باحثون من أمثال الاقتصادي توماس سو ويل في دراسته لتواريخ المهاجرين الثقافية. وأذكر أنني عرفت ذات يوم عالما اجتماعيا متميزا للغاية ويحتل موقعا رائعا وهو أمريكي من أصل إسكتلندي يؤمن بالمذهب المشيخي البروتستانتي، وغارق حتى أذنيه في الالتزام بالاستقامة الكالفنية. وله ابن عالم اجتماع أيضا كان يصارع بين الحين والآخر لضمان عمله ومستقبله خلال سبعينيات القرن العشرين وقتما كانت الوظائف نادرة في الولايات المتحدة. واعتاد زميلي أن يؤكد أحيانا بفخر أنه - وإن كان يسيرا عليه التدخل لمساعدة ابنه - أبى ولم يتدخل على الإطلاق. وكان زملاء هذا الصديق وهم من الأصدقاء الأنجلو - ساكسون البريطانيين يهزون رؤوسهم موافقين على عدالة موقفه على الرغم مما يعرفونه عن الألم الذي يعانيه صديقهم. هذا بينما زملاؤه اليهود والكاثوليك وما لهم من قيم تنتمي إلى القارة الأوروبية كانوا يحدقون فيه بأنظارهم مصدومين غير مصدقين افتقاره إلى المشاعر الأسرية. ولننتقل إلى مستوى أسمى قليلا من الناحية العلمية عن هذه الحكاية: نحن نجد بشكل عام في دراساتنا أن البروتستانت البيض من بين المشاركين الأمريكيين في الدراسة هم الذين يكشفون عن أنماط سلوكية «غربية» إلى حد كبير، بينما الكاثوليك وأبناء الأقليات بمن في ذلك الأفارقة الأمريكيون والهسبانيون (المولدون) يحتلون موقعا يبتعد قليلا عن أولئك متجها نحو الأنماط الشرقية.

وتتضمن الثقافات الشرقية في داخلها أيضا فوارق كبيرة تشتمل على جميع أنواع السلوكيات والقيم الاجتماعية المهمة بعضها مرتبط بالاستقلالية مقابل التكافلية.

كنت في الصين عام ١٩٨٢ قرب نهاية الثورة الثقافية. بدا لي البلد غريبا - إلى أقصى حد - من حيث مظاهره التقليدية ومظاهره الشيوعية المفروضة عليه. وأقيمت في بكين - وأنا هناك - أول مسرحية غربية يجري



عرضها منذ الثورة. إنها مسرحية «موت بائع» تأليف آرثر ميلر. وبدا لي الاختيار غريبا. وشاهدت المسرحية، ليس فقط باعتباري غربي الشخصية إلى حد كبير بل وباعتباري أمريكيا متميزا. الشخصية المحورية فيها بائع. وكم كانت دهشتي كبيرة إذ لاقت المسرحية نجاحا مهولا. ولكن آرثر ميلر الذي حضر إلى الصين للمشاركة في إخراج المسرحية قدم سببا مقنعا لهذا الاستقبال. إذ قال «المسرحية تدور حول أسرة والصينيون هم مخترعو الأسرة». ولعله أضاف أيضا أن المسرحية عن الوجه أو الحاجة إلى أن يحظى الوجه بالاحترام من المجتمع وأن الصينيين هم أيضا الذين اخترعوا الوجه.

ولعل اليابانيين يهتمون هم أيضا اهتماما كبيرا بالوجه شأن الصينيين. ولكن ربما دون تورط في الأسرة المباشرة مع قدر كبير من الالتزام بالاتحاد. وثمة فوارق أخرى واضحة بين اليابانيين والصينيين. وأذكر أن كثيرين من بينهم عالم الاجتماع روبرت بيلاه والفيلسوف هاجيمي تاكامارا وعالمة النفس دورا ديين والفيلسوف الاجتماعي لين يوتانج عرضوا بالتفصيل بعض هذه الفوارق. والمعروف أن الضغوط والقيود الاجتماعية بعامة أكبر على الصينيين واليابانيين منها على الغربيين؛ إلا أن الضغوط في حالة الصين مصدرها أساسا السلطات، ولكنها في حالة اليابانيين مصدرها النظراء. مثال ذلك أن المعلم هو المسؤول عن ضبط الفصل الدراسي والتحكم فيه، بينما التلاميذ زملاء الدراسة هم المسؤولون في اليابان. وقالت دورا ديين: «يؤكد الصينيون علاقات ثنائية محددة مع الاحتفاظ بفرديتهم، بينما يميل اليابانيون إلى الذوبان في الجماعة». وعلى الرغم من أن كلا من الصيني والياباني مطالب بالامتثال نحو الحركة السلسة في الحياة اليومية فإن الصيني، كما يقال، يغضب من الشروط بينما الياباني يستمتع بها عمليا. وثمة اعتقاد أن اليابانيين يشاركون الألمان والهولنديين الحاجة إلى النظام في جميع مجالات حياتهم؛ ويشارك الصينيون سكان المتوسط نهجا أكثر استرخاء إزاء الحياة.

وهناك من يدفع أحيانا بأن اليابانيين يتفردون بنمط محدد للعلاقة الاجتماعية. ويسمى هذا النمط آماي amae وهو مفهوم ناقشه بإسهاب عالم التحليل النفسي الياباني تاكيو دوي. وتصف كلمة آماي علاقة تسمح لمن هو

أدنى، طفلا أو موظفا على سبيل المثال بالانخراط في سلوك غير ملائم - كأن يطلب لعبة باهظة الثمن أو يطلب ترقية في وقت لا تسمح فيه سياسة الشركة بذلك - ويأتي هذا السماح تعبيرا عن الثقة بأن العلاقة قوية ووثيقة بحيث أن الرئيس سيكون متساهلا. إن آماي تيسر العلاقة وتعزز الثقة بين الطرفين وتقوي الأواصر على الرغم من أن هذه النتائج تتحقق على حساب الاستقلال الذاتي للشخص الأدنى مستوى.

ولكن الفوارق الحقيقية بين ثقافات الشرق الآسيوي وبين الثقافات الغربية حري ألا تعمينا عن واقع أن شرق آسيا والغرب مختلفان أحدهما عن الآخر، تماما وبشكل عام بالنسبة إلى قيم محورية وصفات نفسية - اجتماعية لها أهمية محورية عظيمة.

أواسي وإيرابي «فعالية نشطة أم تناغم»

أساليب الصراع والتفاوض

الجدل غير شائع في شرق آسيا الحديث مثلما كان غير شائع في الصين القديمة، والملاحظ في الحقيقة أن كل المحاجاة الخطابية التي تمثل طبيعة ثانية للغربيين شبه غائبة في شرق آسيا. ونعرف أن الأمريكيين يبدأون في التعبير عن آرائهم وتبريرها منذ فترة باكرة في مدارس الحضانة. «هذا الإنسان الآلي (الروبوت) لعبتي»، «هو يسعده اللعب به لأن....». ولكننا على العكس من هذا لا نجد محاجاة أو مساومة بشأن الأفكار في حياة شرق آسيا. وأذكر أن صديقا يابانيا قال لي إن مفهوم «النقاش الساخن أو الذي يفيض حيوية» لا وجود له في اليابان، ضمانا لعدم المخاطرة بالتناغم الجماعي. وهذا الواقع هو الذي أدى - على الأرجح - إلى تقويض محاولة من جانب هذا الصديق لإقامة حفل عشاء في اليابان بالأسلوب الأمريكي. ودعا ضيوفا يابانيين فقط أعربوا عن غرامهم بهذا - ابتداء من شراب المارتيني وحتى الشواء وكعكة التفاح. ولكن فشل المشروع فشلا ذريعا بسبب افتقاره إلى الآراء وإلى الراغبين في الدفاع عنها.

وكان لافتقاد تراث للجدل دلالات درامية محددة بالنسبة إلى إدارة الحياة السياسية. وأذكر أن كوريا الجنوبية أقامت منذ عهد قريب جدا أول حكومة ديموقراطية لها. وقبل تشكيل هذه الحكومة كان من غير



المشروع مناقشة شمال كوريا. وبدا عسيرا على الغربيين فهم هذا بعد أن حققت كوريا الجنوبية واحدة من أهم المعجزات الاقتصادية في العالم على مدى الأربعين عاما الماضية، بينما كوريا الشمالية تجسيد للفشل في جميع المجالات. ولكن نظرا إلى عدم وجود تراث للجدل والحوار لم تكن لدى الكوريين ثقة بأن الأفكار الصحيحة سوف تنتصر في ساحة الجدل بين الأفكار. ولهذا عمدت الحكومات السابقة إلى «حماية» مواطنيها عن طريق منعهم من مناقشة الأفكار الشيوعية أو ممارسات كوريا الشمالية.

ويقترن تراث الجدل دائما بأسلوب معين في فن الخطابة في القانون وفي العلم. يتألف فن الخطابة في أوراق البحوث العلمية من نظرة شاملة إلى الأفكار موضوع البحث، ووصف للنظريات الأساسية ذات الصلة، وفرض علمي محدد، وطرح لمناهج البحث وتبرير لها، وعرض للشواهد والدلائل الناتجة عن طرق البحث، ودفاع مدعوم بالحجج يبين لماذا الشواهد والدلائل تدعم الفرض العلمي المطروح، وتفنيد لأي حجج مناهضة محتملة، وسند مرجعي يدعم النظرية الأساسية، وتعقيب على المجال الأكبر الذي تشكل المقالة جزءا منه. ويلاحظ بالنسبة إلى الأمريكيين أن هذا الفن الخطابي عملية يجري بناؤها خطوة بعد خطوة، ابتداء من مدارس الحضانة وحتى المعاهد الدراسية العليا. ومع تخرجهم في الجامعة نكون إزاء طبيعة ثانية. ولكن فن الخطابة بالنسبة إلى طلاب شرق آسيا هو في الغالب الأعم أمر جديد عليهم، وتعلمه يكون بطيئا إن لم يكن عسيرا. وجدير بالذكر أن من المألوف أن أساتذة العلوم الأمريكيين يبدون إعجابا كبيرا بالطلاب الآسيويين الجادين الدؤوبين في عملهم والممتازين بدرجة عالية، ثم يستشعرون خيبة أمل عند الاطلاع على أول ورقة بحث أساسية لهم - ليس بسبب قصورهم في اللغة الإنجليزية بل لافتقارهم إلى امتلاك ناصية فن الخطابة الشائع في مجال البحث الخاص بالأستاذ المسؤول. وتشهد خبرتي بأن من الشائع كذلك أن الأساتذة لا يدركون أن السبب هو افتقار الطلاب إلى أسلوب الخطابة الغربي واعتراضهم عليه، بل يظنون سببا أعمق هو افتقارهم إلى فهم واستيعاب المشروع المنوط بهم إنجازه.



والشكل الخطابي القتالي غائب أيضا في قانون شرق آسيا. ذلك أن القوانين هناك لا تتألف أساسا، كما هو في الغرب، من نزال بين خصمين. وإنما المتبع أكثر هو أن المتخاصمين يحملون قضيتهم لعرضها على وسيط هدفه ليس الإنصاف بل خفض حدة العداوة ـ وذلك بالتماس حل وسط أو طريق وسطي بين مزاعم المتخاصمين. ولا نجد هناك محاولة للوصول إلى حسم للنزاع القانوني على أساس مبدأ كلي. وإنما العكس إذ إن أبناء شرق آسيا يميلون على الأرجح إلى النظر إلى العدالة في صورتها المجردة ويرون الحس الغربي تعبيرا عن نص مكتوب صارم جامد بغير شعور.

كذلك نجد للتفاوض خاصية مختلفة في مجتمعات السياق المرتفع في شرق آسيا عنها في الغرب، حيث مجتمعات السياق المنخفض. ويصف عالم السياسة موشا كوجي كينهايد الأسلوب الغربي إيرابي (النشط الإيجابي الفعال) بأنه مبني على أساس الاعتقاد أن «الإنسان يمكنه بحرية أن يتعامل مع بيئته ويؤثر فيها وفقا لأغراضه. وتتضمن هذه النظرة متوالية سلوكية يحدد من خلالها المرء هدفه ويستحدث خطة يضع تصميمها بحيث يبلغ بها هدفه، ثم يعمل بجهده على تغيير البيئة وفقا لتلك الخطة». وطبيعي أن شخصا ينهج مثل هذا الأسلوب لن يركز أساسا على العلاقات. وإنما الذي يعنيه أساسا هو النتائج. وتتمثل الاقتراحات والقرارات غالبا في صورة إما/أو ذلك لأن الغربي يعرف ما يريد، ولديه فكرة واضحة عما هو ملائم ليأخذه أو ليعطيه وصولا إلى صفقة مقبولة. ويتعين أن تكون المفاوضات قصيرة وفي الصميم تحاشيا لتضييع الوقت وصولا إلى الهدف.

ولكن الأسلوب الياباني أواسي (المتناغم ـ الملائم) «يرفض فكرة أن الإنسان بإمكانه معالجة البيئة والتأثير فيها ويفترض بدلا من ذلك أن يوفق نفسه معها». ولا يرون المفاوضات جهودا «قذائفية» يجريها مرة واحدة وصولا إلى الهدف مباشرة ولا سبيل إلى العودة إليها ثانية أبدا، كما يفترضون أن العلاقات بعيدة المدى طويلة الأمد. لذلك يتجنبون الاختيارات الحاسمة على أساس إما/أو. ويسود اعتقاد بأن الحكمة قصيرة الأمد يمكن أن تكون حمقا على الأمد الطويل. والملاحظ أن المفاوض الياباني يمكن أن يكون حصاده من المفاوضات لأول صفقة أكثر من حصاد الغربي الذي يكون في وضع مماثل له، ويتوقع من المفاوضات أن ترسي قاعدة صلبة للثقة والتعاون في المستقبل.

ويرى اليابانيون أن المسائل معقدة وذاتية ومتداخلة على عكس البساطة والموضوعية والقابلية للتجزئة التي يراها ويجسدها الأمريكي في أسلوبه الموسوم بأنه إيرابي.

وهكذا يبين واضحا أن هناك فوارق نفس ـ اجتماعية شديدة العمق بين أبناء شرق آسيا كمجموعة وبين أبناء الثقافة الأوروبية في جملتهم. يعيش أبناء شرق آسيا في عالم من التكافل أو الاعتمادية المتبادلة حيث الذات جزء من كل أكبر؛ ويعيش الغربيون في عالم الذات فيه عنصر فاعل حر وحدي. ويعلي أبناء شرق آسيا من قيمة النجاح والإنجاز عن رضا ورحابة صدر لأنهما يعودان بالنفع على الجماعات التي ينتمون إليها. ويعلي الغربيون من قيمة النجاح والإنجاز لأنهما وسام دال على جدارة شخصية. ويعلي أبناء شرق آسيا من قيمة التلاؤم مع المجموع والالتزام بالنقد الذاتي بغية التأكد من أنهم حققوا ذلك الهدف. بينما يعلي الغربيون من قيمة الفردية ويكابدون لكي يظهروا في صورة جيدة على هذا الأساس. ويحرص أبناء شرق آسيا على التوافق مع مشاعر الآخرين ومشاركتهم هذه المشاعر ويكابدون من أجل التناغم فيما بين الناس. ولكن الغربيين معنيون أكثر بمعرفة أنفسهم هم ومستعدون للتضحية بالتناغم وفاء بالإنصاف. ويرضى أبناء شرق آسيا بالتراتبية الهرمية والتحكم الجماعي. ولكن الغربيين أميل إلى تفضيل المساواة ويتطلعون إلى الفعالية الشخصية. ويتجنب أبناء شرق آسيا الجدل والخلاف في الرأي، بينما يؤمن الغربيون بالمحاجات الخطابية في جميع المجالات ابتداء من القانون وصولا إلى السياسة وحتى العلم.

وطبيعي أن لا شيء من هذه التعميمات ينطبق بالكامل على جميع أبناء أي من الفريقين. ذلك أن كل مجتمع يضم أفرادا قريبين جدا في الشبه لأفراد في مجتمع آخر مختلف تماما عنهم أكثر مما يشبهون أبناء مجتمعهم. كذلك فإن كل فرد في مجتمع بذاته يتراوح وضعه ما بين قطبي الاستقلال والاعتمادية المتبادلة على مدى مسيرة حياته ـ بل على مدى مسيرة يوم واحد في الحقيقة. ولكن التباينات بين المجتمعات وفي داخلها، وكذا بين الأفراد يجب ألا تحجب عنا واقعا حقيقيا وهو وجود فوارق حقيقية للغاية وموضوعية من حيث المتوسط العام بين أبناء شرق آسيا وأبناء الثقافة الاوروبية.

ولنا أن نقول، عن ثقة قدر الاستطاعة، إن هذه الفوارق الاجتماعية تكاد تكون هي عينها الفوارق التي مايزت بين الصين والإغريق قديما. وإذا كانت الظروف والملابسات الاجتماعية هي التي أنتجت في الماضي الفوارق المعرفية بين الصين والإغريق قديما، فإن لنا أن نتوقع استمرار الفوارق المعرفية بين مجتمعات شرق آسيا وبين الغربيين في عصرنا الحديث والتي تُبنى في توافق على مظاهر الاختلاف بين الصين والإغريق قديما.





4

«لتكن لك عينان في مؤخرة رأسك» أم «لتكن عيناك على الكرة»

إذا كان الناس حقا يرون العالم في ضوء مصطلحات بشروط يفرضها عليهم وجودهم الاجتماعي، فإن لنا أن نتوقع أن يكون لدى مجتمعات شرق آسيا الحديثة النوع نفسه من النظرات الكلية إلى العالم شأن مفكري الصين قديما. ولنا أيضا أن نتوقع أن يكشف أبناء الثقافة الأوروبية في عصرنا الحديث عن الأنواع نفسها من النُّهُج التحليلية التي تميز بها مفكرو الإغريق قديما. علاوة على هذا فإن الحقائق الواقعية الاجتماعية المختلفة يمكن أن تولد أنماطا شديدة الاختلاف من حيث رؤية العالم بالمعنى الحرفي للكلمة. إن من يعيشون في عالم تكون فيه القوى الخارجية البيئية هي القوى المهمة نتوقع منهم أن يولوا اهتماما وانتباها شديدين للبيئة المحيطة. وإن من يعيشون في عالم تكون فيه الثمار والنتائج وليدة الفعالية الشخصية سوف يركزون أساسا على الموضوعات التي بوسعهم التعامل معها والتأثير فيها لخدمة أهدافهم هم.

«إذا كانت الحياة بسيطة وما على المرء إلا أن يضع عينه على الهدف كي ينجز شيئا ما، إذن فالحياة يمكن التحكم فيها. وإذا كانت الحياة معقدة وعرضة لتقلبات الحظ دون إشعار سابق، فلن يكون مهما نوع الهدف الذي ننشده، إذ ستكون الحياة أمرا يصعب التحكم فيه بسهولة»

المؤلف



النظرة الكلية مقابل التحليل

كنت يوما جالسا في طائرة أقلعت من شمال كاليفورنيا حين سمعت صوت رجل - أمريكي أوروبي الأصل - يوجه أسئلة إلى ابنه البالغ سنتين ونصف:

الأب: «ما شكل البالونة؟» لا إجابة. «إنها مستديرة يا جاسون».

الأب: «هذا زوج جوارب. هل هي طويلة أم قصيرة؟».

الطفل: «قصيرة».

الأب: «صح، قصيرة».

الأب: «هذان زوجان من البنطلونات... هل هما...؟»

الطفل: «قصيرة».

الأب: «لا يا جاسون، إنهما طويلان».

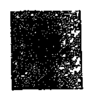
على الرغم من أن هذا الحديث المتبادل قد يبدو في نظر الغربيين عاديا إلا أنه وفقا للمعايير الشرق آسيوية أمر غير عادي تماما. تقوم أسئلة الأب على توجيه انتباه ابنه إلى موضوعات بذاتها ويسأله عن خواصها. وبينما يبدو هذا في نظر الغربيين أسلوبا طبيعيا جدا لتوجيه انتباه الطفل فإنه ليس كذلك في نظر أبناء شرق آسيا. وأسباب ذلك تكشف عن دلالات عميقة من حيث الاختلافات الثقافية وأثرها في الإدراك والمعرفة.

اعتاد فلاسفة الصين القدامى على أن يروا العالم مؤلفا من جواهر متصلة(*)، ونزع فلاسفة الإغريق قديما إلى أن يروا العالم مؤلفا من موضوعات(**) متمايزة أو في صورة ذرات منفصلة. إن قطعة الخشب في نظر الصيني هي مادة متماثلة ومتجانسة؛ بينما هي في نظر الإغريقي مؤلفة من جسيمات. ولكن شيئا جديدا مثل صدفة بحرية يمكن أن ينظر إليها الصيني على أنها جوهر، بينما يراها الإغريقي موضوعا. واللافت للنظر أن ثمة دلائل على أن أبناء شرق آسيا المحدثين أميل إلى رؤية العالم مؤلفا من جواهر متصلة، بينما الغربيون المحدثون أميل إلى أن يروه موضوعات.

والجدير ذكره هنا أن عالمين من علماء نفس المعرفة هما موتسومي إيماي وديدر جنتنر عرضا موضوعات مؤلفة من مواد محددة على أمريكيين ويابانيين من أعمار مختلفة، تتراوح ما بين أقل من سنتين

(*) عناصر أساسية قابلة للتغير ضمن نسيج مركب [المترجم].

(**) موضوعات أو كيانات ندركها بالحواس ونخضعها مستقلة للبحث أو للفعل والتأثير [المترجم].



وحتى سن البلوغ. ووصفا لهم الموضوعات المعروضة بعبارات محايدة، من حيث بيان أنها موضوعات أم مادة (جوهر). مثال ذلك أن يعرضا هرما مصنوعا من الفلّين ويطلبا من المشاركين «النظر إلى هذا التكوين». ثم يعرضا بعد ذلك على المشاركين صينيتين إحداهما موضوع عليها شيء له الشكل نفسه للموضوع المعروض سابقا ولكنه مصنوع من مادة مختلفة (مثال ذلك هرم من البلاستيك الأبيض)، وعلى الأخرى شيء مصنوع من المادة نفسها ولكنه ذو شكل مختلف (مثال ذلك قطع من الفلّين. وطلب الباحثان بعد هذا من المشاركين أن يشيروا إلى الصينية التي عليها «التكوين» الذي رأوه التكوين الأصلي.

كان الأمريكيون أميل إلى اختيار الشكل نفسه باعتباره التكوين الأصلي على عكس اليابانيين. ويفيد هذا بأن الأمريكيين رمزوا إلى ما رأوه بأنه موضوع. وكان اليابانيون أميل إلى اختيار المادة نفسها باعتبارها التكوين الأصلي، مما يفيد بأنهم رمزوا إلى ما رأوه باعتباره مادة ـ جوهر. وتبين أن الاختلافات بين الأمريكيين واليابانيين كبيرة جدا. إذ كان المتوسط، وعلى مدى محاولات كثيرة تضمنت عروضا مختلفة، أن أكثر من ثلثي الأطفال الأمريكيين البالغين من العمر أربع سنوات اختاروا موضوعا آخر باعتباره التكوين الأصلي، بينما لم يفعل هذا سوى أقل من ثلث الأطفال اليابانيين البالغين من العمر أربع سنوات. كذلك كانت الفوارق متساوية بالنسبة إلى الكبار. وأكثر من هذا أن الأطفال من عمر سنتين اختلفوا عن بعضهم. إذ كان صغار الأطفال الأمريكيين أميل إلى اختيار الموضوع دون صغار الأطفال اليابانيين.

إذا أخذنا النتائج التي توصل إليها كل من إيماي وجنتنر على ظاهرها نجد أنها تشير إلى أن الغربيين وأبناء شرق آسيا يرون حرفيا عالمين مختلفين. إن الغربيين المحدثين، مثلهم مثل فلاسفة الإغريق القدامى يرون عالم موضوعات ـ أي أشياء منفصلة ومتمايزة وغير مترابطة. كذلك أبناء شرق آسيا المحدثين مثلهم مثل فلاسفة الصين القدامى يميلون إلى أن يروا عالم جواهر، أي كتل متصلة من المادة. يرى الغربي تمثالا مجردا، بينما يرى الشرق آسيوي قطعة من رخام. ويرى الغربي جدارا، بينما يرى الشرق آسيوي كتلة من الأسمنت. وثمة شواهد أخرى كثيرة ـ ذات طبيعة تاريخية أو قصصية

أو علمية منهجية ـ تشير إلى أن لدى الغربيين نظرة تحليلية تركز على الموضوعات البارزة وصفاتها. بينما لدى أبناء شرق آسيا نظرة كلية تركز على مظاهر الاتصال في الجواهر والعلاقات في البيئة.

ومع مطلع القرن العشرين ضمت المجاورة التي أسكن فيها آن آربور في النصف الأوسط من ميتشيجان بيوتا كثيرة هي أكواخ جذابة الشكل يسكنها عمال ومبنية من جدران عبارة عن ألواح خشب وأسقف عبارة عن جمالون مثلث. شحنت أخشاب هذه البيوت شركة سيرز روبيوك وأفرغت حمولتها عند محطة القطار: لتحملها بعد ذلك إلى قمة التل عربات تجرها خيول، ثم ترصها بجوار بعضها كأنها لعبة اللغز المؤلف من عدد من القطع. وبعد ذلك بفترة غير طويلة كان هنري فورد صاحب شركة صناعة السيارات والتي يقع مقرها على بعد أربعين ميلا من بلدتي، اخترع خط تجميع أجزاء السيارات. كان العمال يجمعون أجزاء السيارة أو «ذراتها» الواحدة مع قرينتها، بحيث يؤدون مجموعة أعمال تكرارية ومتطابقة المرة بعد الأخرى في موقع ثابت على مدى خط التجميع. وتجلب الشركة خام الحديد إلى المصنع المقام عند أحد طرفي ريفر روج في ديربورن ـ ميتشيجان، وبعد صهره وتصنيعه أجزاء صغيرة يجمّعها العمال إلى بعضها عن طريق عمليات بسيطة متتابعة ليخرج من الطرف الآخر السيارة فورد نموذج أ.

وبدأ الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، في أواخر القرن ١٨ ومطلع القرن ١٩ عملية تذري (تحويل إلى ذرات)، أي معايرة (تحويل إلى معايير) عالمي الصناعة والتجارة. وجرى تقسيم وتجزئة إنتاج كل شيء ابتداء من البندقية البدائية وحتى الأثاث في صورة أجزاء معيارية قدر الإمكان وأعمال في أبسط صورها التي يمكن أداؤها مرارا وعلى نحو متكرر. وهكذا جرى تحليل كل أداة عمل وكل مكون من مكونات السلع وكل عمل أو تصرف مع الوصول به إلى أقصى درجات الفعالية. وأصبح الآن بالإمكان إنتاج سلع خلال ساعات بعد أن كانت تستغرق في أيدى الحرفيين شهورا. وأصبح الزمن وحدة معيارية: ثلاث دقائق لتثبيت مسمار جهاز الاحتراق «الكاربيراتور» ونصف دقيقة لتركيب شمعات الشرر.

وبداية من أواخر القرن التاسع عشر تحولت متاجر التجزئة إلى «سلاسل» معيارية. كان من الممكن أن تدخل متجرا، وبعد ذلك بحوالى نصف قرن تدخل ماكدونالدز في أي مكان في مختلف أنحاء البلاد ـ والآن في مختلف أنحاء



العالم - وترى في كل فرع صفوف البضائع نفسها أو الموائد والساندويتشات نفسها في أي فرع منها. وأذكر أحد أفلام الكارتون التي أحبها ويحمل عنوان «مواطن من نيويورك». يصور الفيلم سيدتين أمريكيتين عجوزين تسألان حارس بوابة فندق «هل هذا شيراتون جنيف أم شيراتون بروكسل؟».

ويمتد نطاق الموقف الذري للغربيين ليشمل فهمهم لطبيعة المؤسسات الاجتماعية. ونلحظ أن هامبدن - تورنر وترومبنارس في دراستهما الاستقصائية وجها سؤالا إلى المشاركين عن رأيهم في الشركة: هل يرون الشركة منظومة تنظم المهام، أو كائنا ينسق بين الناس العاملين:

أ - الشركة منظومة هدفها أداء وظائف ومهام بأسلوب كفؤ. وتؤجر العاملين بها لأداء هذه الوظائف بمساعدة ماكينات ومعدات أخرى. ويتقاضون أجرا مقابل المهام التي يؤدونها.

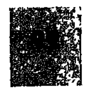
ب - الشركة مجموعة من الناس يعملون معا. وهؤلاء تربطهم علاقات اجتماعية بآخرين وبالمنظمة. وأداء الأعمال يتوقف على هذه العلاقات.

اختار حوالي ٧٥ في المائة من الأمريكيين التعريف الأول، وأكثر من ٥٠ في المائة من الكنديين والأستراليين والبريطانيين والهولنديين والسويديين اختاروا هذا التعريف نفسه، واختاره أيضا حوالي ثلث اليابانيين والسنغافوريين. واحتل الألمان والفرنسيون والإيطاليون، كمجموعة، مكانا وسطا بين أبناء شرق آسيا وأبناء الثقافة البريطانية وشمال أوروبا. وهكذا فإن الغربيين، والأمريكيين بخاصة، وغيرهم من أبناء ثقافة شمال أوروبا أساسا يرون الشركة مكانا ذريا معياريا يؤدي فيه الناس وظائفهم المميزة. ولكن أبناء شرق آسيا، وبدرجة أقل أبناء شرق وجنوب أوروبا، يرون الشركة كيانا تمثل فيه العلاقات الاجتماعية جزءا مكملا ومتكاملا مع كل ما من شأنه أن يوحد الأشياء معا.

واتسع نطاق النظرة الكلية للصينيين القدماء ليشمل معنى عن وحدة الوجود البشري مع الوقائع الطبيعية بل وما فوق الطبيعة. إن ما حدث على كوكب الأرض تردد صداه وأثره مع أحداث في الطبيعة وفي السماء. ويصدق الشيء نفسه على أبناء شرق آسيا المحدثين. إن الطاوية لا تزال سائدة بنفوذها في الصين وفي أنحاء أخرى من شرق آسيا. وعقيدة الشنتوية لا تزال مهمة وذات شأن في اليابان، ويحتفظ الاثنان بعناصر قوية من العقيدة

الإحيائية؛ التي تؤمن بأن الحيوانات والنباتات والموجودات الطبيعية، بل والمصنوعات الفنية التي صنعتها يد الإنسان جميعها لها أرواح. ويلاحظ أن الإعلانات التي تؤكد على الطبيعة تحقق حتى الآن نجاحا في آسيا أكثر منها في الغرب. واكتشفت شركة نيسان هذه الحقيقة، وكم كان حزنها عميقا عندما استهلت حملتها الإعلامية لسيارتها، التي بلغت أوج الترف وذروة الإتقان في الولايات المتحدة، بصور عن السيارة ولكن مع مشاهد عن الطبيعة - غالبا ما كانت صفحات باهظة الكلفة عن مشاهد متتابعة للطبيعة - ولم تتضمن سوى اسم السيارة في أحد أطراف هذه السلسلة، وكانت الحملة ضربا من الفشل الذريع.

وإذا كانت الاتجاهات الاجتماعية والقيم في أوروبا القارة تحتل موقعا وسطا بين اتجاهات وقيم شرق آسيا من ناحية، واتجاهات وقيم الأنجلو - أمريكية فإن التاريخ الفكري لقارة أوروبا أكثر ميلا إلى النظرة الكلية من أمريكا وبلدان الكومونولث. إن الأفكار الدالة على النظرة الكلية نجدها في الثقافة الأنجلو أمريكية أندر منها في القارة الأوروبية. لقد شغل الفلاسفة الأنجلو - أمريكيين أنفسهم على مدى عقود طويلة بالتحليل الذري أو ما يسمى تحليل اللغة العادية. هذا بينما عنى الفلاسفة الأوروبيون في هذه الأثناء بابتكار الفلسفة الظاهراتية «الفينومونولوجية» والوجودية والبنيوية وما بعد البنيوية وما بعد المودرنزم. والملاحظ أن كبرى المنظومات الفكرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية تنبع بداية وأساسا من القارة، فالماركسية منتج فكري ألماني، وعلم الاجتماع ابتكره الفرنسي أوجست كونت ثم ارتقى به إلى أرفع مستوى له من حيث الإنجاز الألماني ماكس فيبر. ونجد أيضا في علم النفس أن أبناء القارة هم أصحاب السيادة الذين هيمنوا على النظريات الكلية الكبرى: فرويد النمساوي وبياجيه السويسري ربما يكونان أعظم علماء القرن العشرين نفوذا وتأثيرا. كذلك في الميدان الفرعي الخاص بعلم النفس الاجتماعي برز عالمان ألمانيان هما كورت ليوين وفريتز هايدر اللذان أسهما بأكثر النظريات عمومية وشمولا حتى الآن. وإن مدرسة علم النفس التي انتميت إليها متأخرا هي مدرسة علم النفس الثقافي - التاريخي التي أسسها عالما النفس الروسيان ليو فيجوتسكي وألكسندر لوريا.



وليس فقط أن الباحثين الأنجلو ـ أمريكيين لا يميلون إلى ابتكار نظريات كبرى واسعة النطاق، بل إنهم أيضا يبدون كأن لديهم حساسية إيجابية تجاه هذا النوع من النظريات. إن بي. إف. سكينر، أبرز الأمريكيين المرشحين ليحتل موقعا في «بانثيون» أو مجمع أرباب علم النفس، لم يكن فقط مفكرا اختزالي المنهج في المدرسة الذرية المتطرفة، بل إنه كان يؤمن فعلا بأن أي نظرية – مهما كان نوعها – غير ملائمة ولا صحيحة، إذ إنها تكون عامة شديدة العمومية، وبعيدة كل البعد عن الحقائق الواقعية الصلبة. لقد كان زملائي في الجامعة ممن اعتادوا اللعب بالأفكار الكبرى يتهمهم نظراؤهم بالانغماس في «ميتافيزيقا المدرسة المسائية» night-school metaphysics، وأكثر من هذا أن علماء الاجتماع الأنجلو ـ أمريكيين المتعاطفين مع النظريات لا يميلون إلى النظريات الكبرى الشاملة، وأذكر أن مدرسي الذي كان يدرس لنا علم الاجتماع، ويدعى روبرت ميرتون، اعتاد أن يمتدح «النظريات متوسطة المدى» باعتبارها المستوى الذي من الصواب أن تهدف إليه. (وكم كان فزعه ذات يوم حين عرف أن باحثا إيطاليا ترجم العبارة إلى نظريات متوسطة المستوى).

إدراك العالم

إذا كان على أبناء شرق آسيا أن ينسقوا ويؤازروا سلوكهم مع الآخرين، وأن يتلاءموا مع المواقف فإن لنا أن نتوقع منهم الاهتمام والانتباه عن كثب إلى مواقف وسلوك الآخرين أكثر مما هي حال الغربيين. وواقع الأمر أن لدينا من الشواهد والدلائل ما يؤكد أن أبناء شرق آسيا يولون اهتماما بالعالم الاجتماعي أكثر مما يفعل الغربيون. ووجدت أنا ولي ـ جون جي ونوربرت شوارتز دلائل على أن طلاب جامعة بكين لديهم معرفة بمواقف واتجاهات وسلوكيات نظرائهم أكبر من معرفة طلاب جامعة ميتشيجان. وسبق أن تألف فريق بحث من معاملنا في ميتشيجان برئاسة تري هيدين ودنيس بارك، ورئاسة كيشنج جنج بالمعهد الصيني لعلم النفس. وقام هذا الفريق بدراسة الكيفية التي تتأثر بها ذاكرة الكلمات بنمط الخلفية التصويرية التي تظهر فيها الكلمات. وطلب الفريق من الطلاب الصينيين والأمريكيين بالكلية ومن آخرين من الكبار أن ينظروا إلى عدد كبير من الكلمات. وجرى عرض بعض

الكلمات فوق خلفية «اجتماعية» مؤلفة من صور لناس، وبعض الكلمات الأخرى على خلفية مؤلفة من موضوعات «غير اجتماعية» مثل الأزهار، ومجموعة ثالثة، من الكلمات بدون خلفية على الإطلاق. وبعد أن رأى المشاركون مجموعة الصور كتبوا جميع الكلمات التي أمكنهم تذكرها. لم يكن هناك فارق بين الصينيين والأمريكيين في تذكر الكلمات التي جرى عرضها أول الأمر على خلفيات غير اجتماعية أو من دون خلفية. ولكن المشاركين الصينيين تذكروا عددا من الكلمات المعروضة على خلفيات اجتماعية أكبر من العدد الذي تذكره المشاركون الأمريكيون. ويبدو أن ذاكرة صور الناس أفادت كعامل استعادة للكلمات التي اقترنت بها مما يفيد بأن الصينيين أولوا اهتماما بالدلالات الاجتماعية أكثر من الأمريكيين.

وثمة سبب جيد للاعتقاد بأن الغربيين وأبناء شرق آسيا يدركون حرفيا العالم على نحو مختلف للغاية بعضهم عن بعض. الغربيون هم أبطال رواياتهم التي تحكي سيرهم الذاتية؛ أما أبناء شرق آسيا فهم مجرد ممثلين في أفلام تلمح إلى أساليب حياتهم. وأعد عدد من علماء نفس النمو هم جيسيكا هان وميشيل ليختمان وكي وانج دراسة تضمنت توجيه سؤال إلى أطفال أمريكيين وصينيين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والسادسة من العمر. طلبوا من الأطفال أن يرووا أحداثا يومية من مثل ما فعلوه أثناء نومهم في الليلة الماضية أو كيف أمضوا آخر احتفال بعيد ميلادهم. ووجد الباحثون ثلاثة أشياء لافتة للأنظار. على الرغم من أن جميع الأطفال أشاروا إلى أنفسهم أكثر من الإشارة إلى الآخرين، إلا أن نسبة الإشارة إلى الذات عند الأطفال الأمريكيين ثلاثة أمثال إشارة الأطفال الصينيين إلى أنفسهم. ثانيا قدم الأطفال الصينيون كثيرا من التفاصيل الصغيرة عن الأحداث التي مروا بها ووصفوها بإيجاز كوقائع. وتحدث الأطفال الأمريكيون بإسهاب وروية أكثر عن كثير من الأحداث المحدودة التي تحظى باهتمام شخصي من جانبهم. ثالثا أشار الأطفال الأمريكيون إلى أنفسهم ضعف إشارة الأطفال الصينيين إلى أنفسهم من حيث الحديث عن الحالة الباطنية الخاصة وتفضيلاتهم وعواطفهم. صفوة القول إن لسان حال الأطفال الأمريكيين كأنه يقول: «حسن، كفى حديثا عنك، لنتحدث عن نفسي».

يتصف أبناء شرق آسيا بأن لديهم نظرة أكثر كلية وشمولا إلى الأحداث تضع في الاعتبار توجه الآخرين من الناس. وهذا ما تشير إليه دراسة أجراها عالما النفس الاجتماعيين دوف كوهين وألكس جونز. إذ طلبا من طلاب أمريكيين شماليين (غالبيتهم كنديون) وطلاب من شرق آسيا (خليط من هونج كونج والصين وتايوان وكوريا وأقطار مختلفة من جنوب وشرق آسيا). أن يتذكروا حالات محددة من عشرة مواقف مختلفة كانوا هم فيها محور الانتباه: مثال ذلك «إن كانوا في حالة ارتباك». كان الأمريكيون الشماليون أكثر ميلا من الآسيويين إلى استعادة المشهد من وجهة نظرهم الخاصة، وهم يتطلعون إلى الخارج. وكان الآسيويون أميل إلى تخيل المشهد كمراقب يصفه من منظور طرف ثالث.

وجدير بالإشارة إلى أن الدراسات المعروضة في هذا الباب، وكذلك جميع الدراسات التي أجراها فريقنا البحثي التي اختبرنا خلالها بعض المشاركين باللغة الإنجليزية والبعض بلغة أخرى، حرص خلالها الباحثون على استخدام طريقة «الترجمة العكسية ضمانا لإمكان عمل مقارنة صحيحة. إذ كانت المادة تؤلف باللغة «أ» ثم تترجم إلى اللغة «ب». بعد ذلك يأتي أحد مواطني اللغة «ب» يترجم المادة عكسيا إلى اللغة «أ». وإذا حدث وقرر مواطن اللغة «أ» أن الأصل والصيغة المترجمة عكسيا متطابقان في المعنى، يجري استخدام مواد الاختبارات كما تكونت. إذا لم تكن متطابقة نعيد ونكرر الإجراء مرة ثانية.

كان تلميذي الياباني الجديد تاكا ماسودا يبلغ طوله ست أقدام وبوصتين، ووزنه ٢٢٠ رطلا. وهو لاعب كرة (نعم، كرة قدم فهي أهم ثالث لعبة شعبية في اليابان). وبدهي أن كان مستثارا لكي يلحق بفريق كرة القدم بعد وصوله بفترة قصيرة إلى ميتشيجان في الخريف. كان في الواقع عاشقا للعبة ويهتز لها كيانه طربا، ولكنه يستشعر خوفا شديدا من سلوك زملائه. إذ كانوا يظلون وقوفا ويحجبون عنه الرؤية. وقال لي نحن في اليابان يتعلم كل امرئ منا منذ نعومة أظافره عبارة «احترس مما وراءك». ليس في هذا نوع من الشعور بالاضطهاد وجنون العظمة،

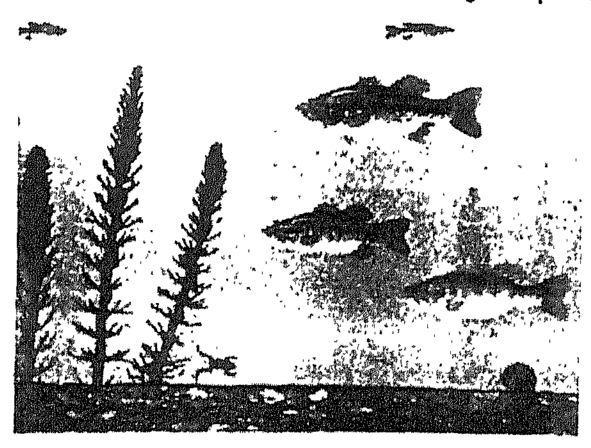
وإنما على العكس الفكرة هي أن تتأكد من أن ما تفعله لا يؤثر سلبا في متعة أو راحة الآخرين، ولكن الطلاب الأمريكيين غير مبالين بمن خلفهم من الناس على نحو يبدو له نوعا من القحة والغلظة.

ودفع سلوك هواة كرة القدم الأمريكيين ماسودا إلى اختبار فرض يقضي بأن الآسيويين يرون العالم من خلال عدسة منفرجة الزاوية، بينما الغربيون لديهم نظرة ضيقة كأنها عبر نفق. وأنجز ذلك مستخدما إجراء بسيطا خادعا. إذ عرض ثماني لقطات لصور حية ملونة تحت الماء، مثل الصورة المعروضة باللونين الأبيض والأسود عند رأس الصفحة التالية. عرضها على طلاب في جامعة كيوتو وجامعة ميتشيجان. تميز جميع المشاهد المصورة بأن بها سمكة أو أكثر تحتل بؤرة الصورة وتتصف بأنها أكبر وأكثر لمعانا، وأسرع حركة من أي سمك آخر في الصورة. واشتمل المشهد أيضا على حيوانات متحركة بسرعة أقل، ونباتات وصخور وفقاعات هواء... إلخ. ويستمر عرض المشاهد لمدة حوالي عشرين ثانية ثم تعرض للمرة الثانية. ويطلب من المشاهدين بعد العرض الثاني أن يحكوا ما رأوه. وجرى ترميز إجاباتهم على أساس ما أشاروا إليه: سمكة في بؤرة المشهد، أي موضوعات نشطة أخرى، الخلفية والموضوعات الساكنة... إلخ.

تساوى الأمريكيون واليابانيون في عدد الإشارات إلى السمكة التي تحتل بؤرة المشهد. ولكن اليابانيين كانت إشاراتهم إلى عناصر الخلفية أكثر من ٦٠ في المائة بما في ذلك المياه والصخور والفقاعات والنباتات والحيوانات الساكنة. علاوة على هذا بينما تساوى المشاركون اليابانيون والأمريكيون في عدد الإشارات إلى الحركة المتضمنة حيوانات نشطة كانت إشارات اليابانيين ضعف إشارات الأمريكيين إلى العلاقات التي تتضمن خلفية لموضوعات ساكنة. ولعل أبلغ تعبير هو ما تضمنته أول جملة على لسان المشاركين اليابانيين في إشارة إلى البيئة؛ إذ قالوا «تشبه غديرا» بينما كانت أول جملة على لسان المشاركين الأمريكيين، التي ترددت ثلاث مرات في إشارة إلى السمكة التي تحتل بؤرة الصورة «توجد سمكة كبيرة، ربما تكون نوعا من سمك التروت تتحرك جهة اليسار».



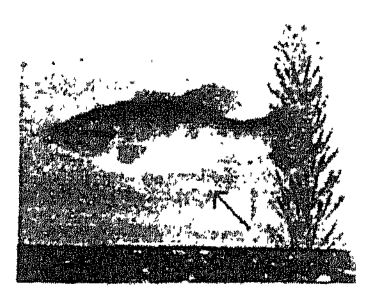
مهمة خاصة بالتذكر



مهمة التعرف



سمكة وراءها خلفية جديدة



سمكة وراءها الخلفية الأصلية

أمثلة لمشاهد مصورة تحت الماء

أعلى: إطار من فيلم لاختبار مهمة التذكر

أسفل: صور ساكنة لاختبار مهمة التعرف

بعد أن قال المشاهدون إفادتهم عما شاهدوه في كل لقطة من لقطات الصور، عرض عليهم الباحثون صورا ثابتة لستة وتسعين شيئا، نصفها سبق لهم رؤيته والنصف الآخر جديد عليهم لم يروه من قبل. وكانت المهمة المطلوبة هي أن يقولوا إذا ما كانوا قد رأوا هذه الأشياء من قبل أم لا. والجدير ذكره

أن بعض الموضوعات التي رأوها بالفعل قبل ذلك سبق عرضها في بيئتهم الأصلية، والبعض الآخر جرى عرضها في بيئة جديدة. ويجد القارئ أمثلة عن كل من النوعين معروضة في أسفل الرسم. ولوحظ أن قدرة اليابانيين على التعرف على أنهم رأوا الشيء المعروض سابقا تميزت بأنها أكبر موضوعيا حين يكون الشيء معروضا عليهم في بيئته الأصلية مما لو جاء عرضه ضمن بيئة جديدة. ويفيد هذا بأن الشيء المعروض أصبح «مرتبطا لزوما» بالبيئة منذ رؤيته لأول مرة، وظل بصورته هذه المتكاملة في الذاكرة. ولم يظهر أي فارق بالنسبة إلى جميع الأمريكيين، سواء رأوا الموضوع في بيئته الأولية الأصلية أو في بيئة جديدة، مما يوحي بأن إدراك الشيء منفصل تماما عن بيئته.

وقام ماسودا بدراسة للمتابعة عرض أثناءها أنواعا مختلفة من الحيوانات داخل سياقات مختلفة على أمريكيين ويابانيين. ولم يكن هدفه هذه المرة مقصورا فقط على قياس دقة التعرف، بل وأيضا سرعة المعالجة. وتبيّن للمرة الثانية أن اليابانيين أكثر تأثرا من الأمريكيين بتغيير الخلفية إذ وقعوا في عدد أكبر من الأخطاء عند عرض موضوعات الصور على خلفية جديدة، على عكس الحال عند عرضها على الخلفية الأصلية لها. علاوة على هذا فقد تأثرت سرعة أحكام اليابانيين سلبا عند عرض الموضوعات على خلفية جديدة، بينما لم تتأثر سرعة أحكام الأمريكيين.

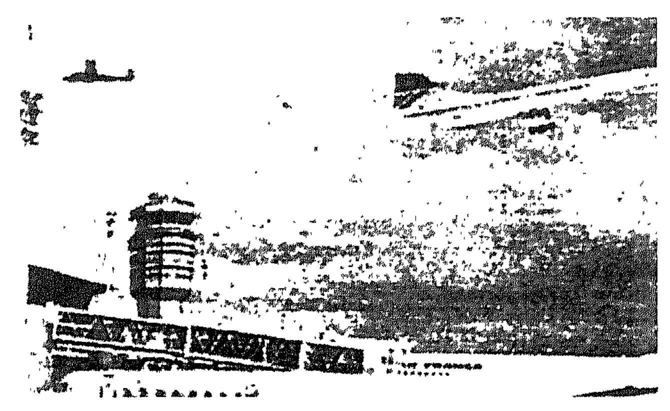
لنفترض أن شخصا اقترب منك وأنت في الطريق وسألك عن الاتجاهات. وبينما أنت تتحدث إلى الشخص اقترب شخصان ووقفا بينكما وهما يحملان لوحا كبيرا من الخشب الرقيق «الأبلكاش»، وأمسك الشخص الذي كان يتحدث إليك بطرف اللوح الخشبي وبقي زميله بعد أن توارى الآخران، كأن زميله هو الشخص ذاته الذي كان يتحدث معك. ترى إلى أي مدى يمكن أن يذهب بك الظن إلى أنك كنت تتحدث مع مخادع؟ إنك ما لم تدرك أن الاثنين كانا توأمين متطابقين ربما تخمن بأن لا مجال لمثل هذا الخطأ. وكم هو يسير في الواقع لخداع الناس بحيلة كهذه. والمعروف أن الناس بعامة لا يقبلون التصديق بواقع أن مشهدا ما يرونه بأعينهم قد تغير موضوعيا. وهذا هو الأسلوب المتبع في بعض الحيل السينمائية.



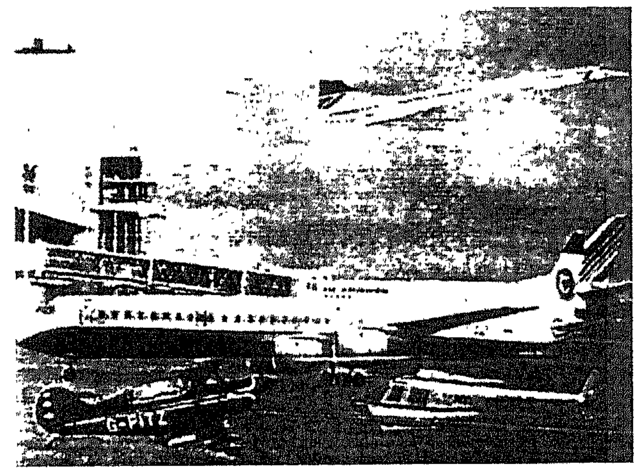
وإحدى الدلالات الضمنية لفكرة أن أبناء شرق آسيا يولون اهتماما أكبر نسبيا من الغربيين للمجال أن لنا أن نتوقع أن يكون الغربيون غير واعين نسبيا بالتحولات التي تطرأ على الموضوعات في الخلفية، وبالتحولات في العلاقات بين الموضوعات. ولنا أن نتوقع أيضا أن الغربيين سيكونون أسرع من أبناء شرق آسيا في إدراك التقلبات الطارئة على الموضوعات البارزة في المقدمة. ورأينا أنا وماسودا أن ندرس هذا الإمكان؛ لذلك عرضنا قصاصات مختصرة لفيلم ملون بالكمبيوتر على مشاركين يابانيين وأمريكيين. كانت القصاصات شبه متطابقة وليست متطابقة تماما. ويوضح الرسم التالي نسخا باللونين الأبيض والأسود لإحدى قصاصتين ويعرض المشهد إطارين من منتصف القصاصتين. وكانت مهمة المشارك الإفادة من نقاط الاختلاف بين القصاصات. ويمكن للقارئ أن يكتشف أنها تختلف من نواح عديدة. مثال ذلك أن دوار الدفع للطائرة المروحية في أسفل الصورة موجود على اليسار في إحدى النسختين وعلى اليمين في النسخة الأخرى. كذلك عجلات الهبوط لطائرة الكونكورد وهي في حالة انطلاق نازلة في إحدى الصورتين ومرتفعة في الصورة الأخرى. وتختلف العلاقات بين الموضوعات أيضا. مثال ذلك الطائرة المروحية والطائرة أحادية المحرك أقرب إحداهما إلى الآخرى في نسخة عن النسخة الأخرى. أخيرا تفاصيل الخلفية مختلفة: برج المراقبة مختلف الشكل في نسخة عن الأخرى.

كما توقعنا مسبقا لحظ المشاركون اليابانيون أكثر من الأمريكيين بكثير عديدا من الاختلافات في الخلفية بين القصاصتين والعديد من الاختلافات في العلاقات. وكان الأمريكيون أميل إلى التقاط المتغيرات في الأشياء التي تحتل بؤرة الصورة والمقدمة.

وإذا كان أبناء شرق آسيا يولون انتباها أكبر من الغربيين للبيئة، فإن لنا أن نتوقع أن يكونوا أكثر دقة في إدراك العلاقات بين الأحداث. ورغبة منا في استكشاف هذه المسألة أنا ولي - جون جي وكي ينج ينج عرضنا على مشاركين صينيين وأمريكيين لوحة على شاشة الكمبيوتر. وأطلقنا وميضا على الجانب الأيسر من الشاشة يضيء شكلا واحدا من بين شكلين جرى اختيارهما كيفما اتفق: كأن يكون على سبيل المثال شكلا تخطيطيا لميدالية



إطار من موقع مطار جوي في فيلم
نسخة ١



إطار من موقع لمطار جوي في فيلم
نسخة ٢

نسختان لموقع مطار جوي من فيلم

أو رسما تخطيطيا لبصيلة مصباح كهربائي. وعقب ذلك مباشرة أطلقنا وميضا على الجانب الأيمن للشاشة يضيء شكلا من شكلين آخرين جرى اختيارهما كيفما اتفق: مثال ذلك إصبع يشير إلى شيء أو رسم تخطيطي لعملة. وبعد بضع محاولات لم يحدث أي ارتباط بين ما ظهر على اليسار

وما ظهر على اليمين. مثال ذلك أنه إذا كانت الميدالية هي التي ظهرت على اليسار فإنه لم يكن مرجحا أن تظهر العملة على اليمين أكثر مما لو كان المصباح الكهربائي هو الذي ظهر على اليسار. ولكن بعد عدة محاولات أخرى ظهر ترابط يبدو أحيانا قويا إلى حد كبير. وسألنا المشاركين عن مدى تقديرهم أو إحساسهم بقوة الترابط خلال كل مجموعة من المحاولات وعن مدى ثقتهم بأنهم على صواب.

أفاد المشاركون الصينيون عن وجود ترابطات بين ما ظهر على اليسار وما ظهر على اليمين، وكانت إفادتهم أقوى مما قال به الأمريكيون. كذلك كانت ثقتهم في أحكامهم أكبر وثقتهم أفضل من الأمريكيين تأسيسا على درجة الارتباط الفعلية. ولكن ما أذهلنا أكثر من أي شيء آخر هو أن الأمريكيين كشفوا عن ميل طبيعي أوضحته دراسات الكشف عن تلازم التغيير Covariation-detection studies يتمثل في أن أحكامهم تأثرت بشدة مفرطة بالتزاوج بين الصور التي شاهدوها أولا. مثال ذلك إذا اقترن المصباح الكهربائي مرارا بالميدالية في المحاولات الأولى؛ فإن الأمريكيين على الأرجح يرون أن هذه هي القاعدة بعامة، حتى إن لم يكن الأمر كذلك. هذا بينما لم يقع الصينيون في مثل هذا الخطأ.

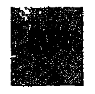
اتجهنا أيضا أنا وجي وينج إلى دراسة ما إذا كان الأمريكيون أقدر من أبناء شرق آسيا على فصل موضوع ما عن سياقه. عرضنا على الآسيويين الشرقيين (أغلبهم صينيون وكوريون) والأمريكيين اختبار المؤشر والإطار الخاص بكشف «الاعتمادية على المجال» والذي ابتكره وتكين وزملاؤه. ويقضي هذا الاختبار بأن نعرض على المشاركين صندوقا طويلا في آخره مؤشر. ويمكن تطويع المؤشر في استقلال عن الصندوق مما يساعد على تأطير الحبل. ومهمة المشارك هنا أن يحكم متى يكون المؤشر رأسيا تماما، وإن كان وضع الإطار يؤثر حتما في الأحكام بشأن المؤشر بدرجة ما. ويعتبر المرء «معتمدا على المجال» بقدر ما تكون أحكامه بشأن الوضع الرأسي المؤشر متأثرة بالسياق، أي توجه الإطار. وتوقعنا مسبقا أن الآسيويين الشرقيين سيكونون أكثر اعتمادا على المجال وهذا ما ثبت صوابه. لقد بدا من الصعب عليهم أكثر من الأمريكيين إصدار أحكام عن وضع المؤشر من دون التأثر بوضع الإطار.



التحكم في العالم

إذا كانت الحياة بسيطة وما على المرء إلا أن يضع عينه على الهدف كي ينجز شيئا ما، إذن فالحياة يمكن التحكم فيها. وإذا كانت الحياة معقدة وعرضة لتقلبات الحظ دون إشعار سابق، فلن يكون مهما نوع الهدف الذي ننشده، إذ ستكون الحياة أمرا يصعب التحكم فيه بسهولة. وتكشف البحوث الاستقصائية أن أبناء شرق آسيا يشعرون بأنهم أقل من نظرائهم الغربيين في السيطرة والتحكم. لذلك فإنهم بدلا من أن يحاولوا التحكم في المواقف نراهم آميل إلى محاولة توفيقها وملاءمتها. درس هذه الظاهرة علماء النفس الاجتماعيين بت مورلنج وشينوبو كيتاياما ويوري مي ياموتو. إذ طلبوا من طلاب يابانيين وأمريكيين أن يحكوا لهم عن حوادث عرضت لهم في حياتهم وتكيفوا فيها مع الموقف، وعن حوادث كانوا مسيطرين فيها على الموقف. كانت الأحداث التي اقتضت تكيفا أكثر شيوعا بين اليابانيين حيث إن الأحداث التي تذكروها كانت أقرب عهدا من الأحداث التي تذكرها الأمريكيون. وبدا آن الأحداث التي أمكن التحكم فيها أكثر شيوعا لدى الأمريكيين عنها لدى اليابانيين. ذلك أن هذا النوع من الأحداث كان أقرب إلى ذاكرة الأمريكيين. وسألت مورلنج مشاركيها عن شعورهم في حالة كل موقف. لاحظت أن الأمريكيين وليس اليابانيون شعروا بالحرج والقلق وفقدان الأهلية عندما كان لزاما أن يتكيفوا مع الموقف.

ويفيد دليل آخر أن شعور المرء بالتحكم ليس مهما لدى الآسيويين بالقدر نفسه لدى الغربيين. وكشفت دراسة استقصائية عن شرق آسيويين وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين أن شعورهم بالتحكم في حياتهم يرتبط ارتباطا قويا بالصحة العقلية عند الأمريكيين الأوروبيين، ولكنه أقل من ذلك كثيرا عند الشرق آسيويين والأمريكيين الآسيويين. علاوة على هذا فإن مشاعر الرفاه يعززها - عند الشرق آسيويين أكثر من الأمريكيين - وجود آخرين حولهم ممن يمكن لهم تقديم المساعدة لتوفير إمكانات التحكم. وبينما يبدو أن الغربيين يؤمنون بأن من الأمور الحاسمة أن تتوافر للمرء قدرة على التحكم الشخصي المباشر، نجد الشرقيين الآسيويين يؤمنون بأن النتائج ستكون أفضل إذا كانوا جميعا معا في مركب واحد.



وطلب عالم النفس المختص بالتنظيم الإداري، بي. كرستوفر إيرلي، من مديرين صينيين وأمريكيين إنجاز مهام إدارية في ظل ظروف عديدة مختلفة. ظن المديرون إما أنهم يعملون وحدهم، أو يعملون مع أعضاء آخرين من فريقهم الخاص، أو مع جماعة من الإقليم نفسه في بلدهم ولهم مصالح مشتركة مطابقة لمصالحهم، أو يعملون مع أبناء جماعة خارجية أي من إقليم آخر من خارج بلدهم لا يجمعهم شيء مشترك إلا القليل. وتم تجهيز الوضع بحيث إن المديرين شعروا فعلا أنهم وحدهم في جميع الظروف. وظن المشاركون في ظروف «الجماعة الداخلية» و«الجماعة الخارجية» أن أداءهم سوف يجري تقييمه على مستوى الجماعة فقط وليس على المستوى الفردي. كان أداء الصينيين عندما رأوا أنهم يعملون مع أعضاء الجماعة الداخلية أفضل من أدائهم حين رأوا أنهم يعملون مع جماعة خارجية. وكان أفضل أداء للأمريكيين حين رأوا أنهم وحدهم ولم يظهر أي فارق بين العمل وهم يعتقدون أنهم مع جماعة داخلية أو خارجية.

إن القول المأثور «الأمان في الأرقام» يمكن أن يكون غربي النشأة، ولكن عالم النفس الاجتماعي سوسومو ياماجوشي وزملاءه بينوا أن طلاب الجامعة اليابانيين أكثر إيمانا وتشبثا بهذه العقيدة من الطلاب الأمريكيين. قالوا للمشاركين في دراستهم إنهم معنيون بالكشف عن آثار ونتائج «خبرة غير سارة» وهي ابتلاع شراب مر في أثناء أداء مهمة محددة. وسوف يجري تخصيص المشاركين إما إلى وضع التحكم وإما إلى وضع الخبرة غير السارة. وإن أيا من الوضعين سوف يتوقف على الحظ في اليانصيب.

تضمنت التجربة في الحقيقة وضعين، ولكنهما كانا وضعا «أحاديا» ووضعا «جماعيا». إذ قيل للمشاركين في الوضع الأحادي أنهم سيسحبون أربع تذاكر يانصيب كل تذكرة مطبوع عليها رقم. واعتقد جميع المشاركين في الوضع الجماعي أنهم جزء من جماعة مؤلفة من خمسة أشخاص (الذين لم يروا أعضاءها على الإطلاق) وأن كل شخص سوف يسحب تذكرة يانصيب. وأوضح الباحثون للمشاركين في الحالين أن مجموع الأرقام على التذاكر الأربعة سوف يحدد من الذي سيتناول الشراب المر. وسأل ياماجوشي وزملاؤه المشاركين عن مدى احتمال أن يكونوا بين غير المحظوظين. (لم يكن هناك أي سبب موضوعي لكي يظن المشاركون في أي من الحالين أن الفرص ستكون

مختلفة في الوضع الأحادي عنها في الوضع الجماعي) وظن اليابانيون أنهم على أرجح تقدير سيفلتون من الخبرة غير السارة في الوضع الجماعي. وظن الأمريكيون أنهم على أرجح تقدير سيفلتون في الوضع الأحادي. وتطابق سلوك النساء الأمريكيات مع سلوك اليابانيات إذ اعتقدن أن الإفلات سيكون مرجحا في الجماعة.

الدراسة التي أجراها ياماجوشي ـ علاوة على دراسة أخرى، سنعرضها فيما بعد في هذا الباب ـ واحدة من الدراسات النادرة التي تكشف عن اختلاف الذكور والإناث الغربيين عن بعضهم وأنه اختلاف أكبر مما هو حادث بين الذكور والإناث من أبناء وبنات شرق آسيا. ويمكن القول بوجه عام إننا إما أن نجد فوارق جنوسية «الجندر» بين كل من الثقافتين الغربية والشرق آسيوية ـ من حجم واحد ـ وإما لا نجد فوارق جنوسية خاصة بأي ثقافة. ولكن كما كان متوقعا، تأسيسا على نظريتنا عن الأصول الاجتماعية للفوارق المعرفية والإدراكية، فإن الإناث في كل من الثقافتين ينزعن إلى أن يكن أكثر انتحاء إلى النظرة الكلية من الذكور في توجهاتهن. بيد أننا نجد هذا فقط في حوالي نصف الحالات بينما الفوارق الجنوسية «الجندر» أصغر دائما من الفوارق الثقافية. وعجزنا عن تحديد الاختلاف بين المهام التي تكشف عن فوارق جنوسية وتلك التي لا تكشف عنها.

وهكذا العالم في نظر الشرق آسيوي مكان معقد مؤلف من جواهر ـ مواد متصلة، يمكن فهمه في ضوء الكل وليس في ضوء الأجزاء، ويخضع للتحكم الجمعي أكثر مما يخضع للتحكم الفردي. والعالم في نظر الغربي مكان بسيط نسبيا مؤلف من موضوعات متمايزة يمكن فهمها دون اهتمام كبير بالسياق، ويخضع بدرجة كبيرة للتحكم الفردي. عالمان مختلفان عن بعضهما غاية الاختلاف في الحقيقة.

ولكن عالم الغربيين ليس عالما يمكن التحكم فيه كما يرون. وها هي إلين لانجر، عالمة مختصة في علم النفس الاجتماعي، تحدد نقطة ضعف أساسية تسميها «وهم التحكم». وتعرفه بأنه توقع أن النجاح الشخصي أكبر مما تكفله الاحتمالية الموضوعية. نعم يمكن أن يفيد الوهم أحيانا في شيء ما. مثال ذلك أن إحدى الدراسات كشفت عن أن الناس يكون أداؤهم أفضل بالنسبة



للمهام الروتينية عندما يؤمنون، عن خطأ، أن بوسعهم التحكم في ضوضاء عالية مشتتة للانتباه والتي تقع على نحو دوري أثناء أداء المهام. وتوجد من ناحية أخرى بعض البراهين بشأن الوهم الذي يجعلنا نبدو بلهاء. في دراستي المفضلة اقتربت لانجر من بعض عمال يعملون بالبناء وسألتهم إذا ما كانوا يرغبون في شراء تذكرة يانصيب مقابل دولار. إذا قال الشخص نعم اشترى فإنها إما أن تناوله التذكرة أو أن تبسط حزمة من التذاكر وتطلب من الشخص أن يختار. وبعد أسبوعين عادت إلى جميع من اشتروا تذاكر وقالت لهم إن أعدادا كبيرة من الناس يريدون شراء تذكرة ولكن التذاكر نفدت. إذا كان أيكم يريد أن يبيع تذكرته لي فليقل ما الثمن الذي يريده؟ لاحظت في المتوسط أن من ناولتهم يدا بيد التذكرة أبدوا رغبة في بيعها لها مقابل دولارين ولكن من سمحت لهم بانتقاء تذاكرهم أرادوا تسع دولارات مقابل التذكرة الواحدة.

إن القدر الأكبر من معارفنا يفيد ضمنا بأن أبناء شرق آسيا أقل تأثرا من الغربيين بمثل هذه الأوهام في التحكم، كما أنهم أقل اهتماما بمسائل التحكم عموما. واختبرنا، أنا وجي وينج هذه الأفكار من خلال صيغ جديدة لاختبار الكشف عن تلازم التغير Covariation detection test واختبار القضيب المعدني والإطار.

أحدثنا تغييرا ظاهريا في مهمة الكشف عن تلازم التغير. والهدف من الصيغة الجديدة هو تحديد مدى احتمال أن يظهر موضوع محدد على الجانب الأيمن من شاشة الكمبيوتر مع ظهور موضوع محدد آخر على الجانب الأيسر. وهيأنا للمشاركين قدرة على التحكم في الموضوع الذي سيظهر على الجانب الأيسر من شاشة الكمبيوتر. وسمحنا لهم باختيار كم الوقت المنقضي مع كل محاولة بين عرض الموضوع على اليسار وعرض الموضوع الآخر على اليمين. ولوحظ في ضوء هذه الظروف أن الأمريكيين رأوا قدر ما رأى الصينيون من تلازم التغير، وكانوا واثقين، شأنهم شأن الصينيين، علاوة على هذا كان الأمريكيون على مستوى معقول من الدقة في تحديد درجة تلازم التغير التي شاهدوها بينما كان الصينيون عمليا أقل قليلا جدا في الدقة عندما تكون لديهم القدرة على التحكم، على عكس الحال إذا لم تكن لديهم هذه القدرة.

وفي اختبار المؤشر والإطار الذي أدخلنا عليه تغييرا بسيطا هيأنا للمشاركين قدرة على التحكم في المؤشر بما يسمح لهم بتدويره بأنفسهم. ووضح في هذه التجربة أن الأمريكيين أصبحوا أكثر ثقة، في دقة أحكامهم بينما لم يصبح أبناء شرق آسيا أكثر ثقة. ولوحظ أيضا أن الرجال الأمريكيين الذين كانوا الأدق بين الجماعات التي بدأنا بها أصبحوا عمليا ولا يزالون هم الأكثر دقة. ولكن الدقة بالنسبة إلى أبناء شرق آسيا وإلى النساء الأمريكيات لم تتأثر نتيجة للقدرة التي هيأناها لهم للتحكم.

ثبات أم تغير؟

«حين نفكر في مستقبل العالم نعتقد دائما أنه سيكون حيث يتعين له أن يكون إذا ما استمر يتحرك كما نراه يتحرك الآن. ونحن لا ندرك أنه لا يتحرك في خط مستقيم... وأن اتجاهه في تغير دائما وأبدا».

الفيلسوف لودفيج فتجنشتين

نحن نميل إلى التسليم دائما بأن الغد سيكون مثل اليوم، وبالمثل حين نكون على وعي بالحركة فإننا نفترض أن الغد سيأتي مختلفا عن اليوم تماما مثلما أن اليوم مختلف عن الأمس... لقد أضحت دورة حياة الإنسان أطول، وسوف تكون أطول مستقبلا. ونقصت ساعات العمل التي يعملها المرء على مدى العام، وسوف تنقص أكثر فأكثر... وكلما ازدادت حدة وعينا بالحركة ازدادت قوة إيماننا باتصال واستمرار الحركة مستقبلا».

الفيلسوف السياسي برتراند دو جوفينال

كما يبين في نهاية الأمر فإن «نا» تمثل تعميما مفرطا للغاية. لقد كان لدى فلاسفة الإغريق القدامى نزوع قوي نحو الاعتقاد أن الأمور لا يطرأ عليها تغير كبير أو أنها، إذا كانت تتغير حقا، فإن التغير مستقبلا سوف يستمر في



الاتجاه نفسه، وبالمعدل نفسه، للتغير الراهن. ويصدق الرأي نفسه بالنسبة إلى الغربيين المحدثين العاديين. ولكن أبناء شرق آسيا المحدثين مثلهم مثل الطاويين والفلاسفة الكونفوشيوسيين القدامى يؤمنون بأن الأشياء في تغير دائب، وأن الحركة في اتجاه بذاته أبعد من أن تشير إلى حدوث التغيرات مستقبلا في الاتجاه نفسه، وربما تكون علامة على أن الأحداث ربما تعكس الاتجاه.

وإن هذه الافتراضات المختلفة عن التغير يمكن أن نستمدها من صور فهم مختلفة عن تعقد العالم، والتي تكون بدورها نتيجة وتجليا للاهتمام بالجزء الصغير في البيئة، بدلا من جماع أو مجموعات من الأجزاء. وإذا بدا العالم مكانا صغيرا لأننا لا نولي القسط الأكبر منه اهتماما وانتباها، فإننا لن نتوقع تغيرا كبيرا. وحيث يكون التغير واقعا مطردا فليس لدينا مبرر لافتراض بأنه سيؤدي إلى أي شيء غير استمراره في اتجاه واحد، ولكن إذا ما بدا العالم مكانا شديد التعقد - لأننا نلحظ قدرا كبيرا من أحداثه - فإن الثبات سيكون هو الاستثناء والتغيير هو القاعدة، وكلما ازداد عدد العوامل المؤثرة والفاعلة ازداد احتمال أن يؤدي متغير ما إلى تعديل معدل التغير أو حتى يعكس اتجاهه. وجدير بالملاحظة أن الافتراضات الدورية تحديدا التي تقول بها الطاوية يمكن أن تنبثق من هذه النظريات عن التعقد. أو ربما العكس تماما: الإيمان بأن العالم في حالة عود على بدء دائما، وهو اعتقاد من شأنه أن يفرز افتراض التعقد. ولكي نكون جدليين في هذه النظرة يمكن القول باحتمال فعالية الاتجاهين معا وأن كلا منهما يغذي الآخر بالتبادل... في صورة دورة.

واشتركت مع لي - جون جي، الذي كان وقتذاك طالبا بجامعة ميتشيجان ويانجي سو، زميل بجامعة بكين، وذلك لدراسة المعتقدات الصينية والأمريكية عن التغير. وسألنا في دراسة منها طلاب جامعة ميتشيجان وجامعة بكين إلى أي مدى يعتقدون أن المرجح أن يطرأ تحول جذري على وضع ما لبعض الأمور. مثال ذلك: «لوسيا وجيف كلاهما من قدامى طلاب الجامعة نفسها. اعتادا أن يلتقيا معا بانتظام على مدى عامين. إلى أي مدى ترجحون أن علاقتهما سوف تنقطع بعد التخرج؟»



وكان هناك أربع موضوعات كهذه للسؤال عن احتمال التغير. لوحظ في الحالات الأربعة جميعها أن الصينيين رأوا التغير أكثر ترجيحا من الأمريكيين. ورأى الصينيون في المتوسط أن التغير مرجح بنسبة ٥٠ بالمائة من الوقت ورأى الأمريكيون أن التغير مرجح بنسبة ٣٠ بالمائة من الوقت.

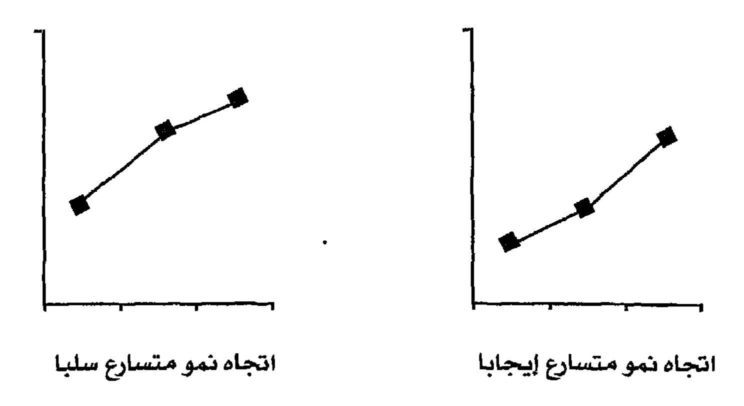
وفي دراسة أخرى عرضنا أنا وجي وسو على المشاركين من طلاب جامعة بكين اثني عشر رسما بيانيا في كراسة. ويعرض كل رسم بياني خريطة لاتجاه مزعوم على مدى فترة زمنية من مثل معدل النمو الاقتصادي العالمي أو معدل الوفيات في العالم بسبب السرطان. مثال ذلك: معدلات نمو الاقتصاد الكوكبي (تغير النسبة المئوية سنويا من إجمالي الناتج القومي الحقيقي) كانت ٣,٢ بالمائة، ٢,٨ بالمائة، ٢,٠ بالمائة للأعوام ١٩٩٥، ١٩٩٧، ١٩٩٩ على التوالي.

وسألنا المشاركين عما يرونه مرجحا لمعدل النمو الاقتصادي الكوكبي أن يرتفع أم ينخفض أم يظل كما هو عام ٢٠٠١.

وكانت الاتجاهات المعروضة إما النمو أو الانخفاض، وكان معدل التغيير إما متسارعا أو متناقصا. ويوضح الرسم منحنى نمو متسارع إيجابي ومنحنى نمو متسارع سلبي. وذهبنا في تفكيرنا إلى أنه كلما تعاظمت الزيادة في معدل التغير كان مرجحا أكثر أن الصينيين سيتوقعون تباطؤا أو حتى تحولا عكسيا للاتجاه. وكلما زاد معدل التغير في اتجاه معين كان علامة على تحول عكسي في المستقبل القريب. ولكن بالنسبة للأمريكيين فإن الزيادة في التسارع ربما تكون مؤشرا قويا جدا على استمرار الحركة في اتجاه بذاته. ولهذا توقعنا أن تظهر الاختلافات على هذا النحو بين الصينيين والأمريكيين وستكون عند تقييم الاتجاهات المتسارعة إيجابيا أكبر منها عند تقييم الاتجاهات المتسارعة سلبيا.

وتبين لنا، كما توقعنا، أن الأمريكيين قدموا تنبؤات متسقة مع الاتجاهات التي عرضناها عليهم أكثر مما قدم الصينيون. وصدق هذا بالنسبة لكل الاثني عشر رسما بيانيا التي عرضناها عليهم. ولوحظ أنه إذا صعد اتجاه معين كان الأمريكيون أميل من الصينيين إلى التنبؤ بأنه سيواصل الصعود. وإذا هبط الاتجاه كان الأمريكيون أميل من الصينيين إلى التنبؤ بأن الانخفاض سيطرد. وكانت هذه الاختلافات، كما توقعنا أيضا، أكبر بالنسبة لاتجاهات التسارع الإيجابي عنها بالنسبة للاتجاهات المتسارعة سلبا.





مثالان لاتجاهات النمو المتسارعة إيجابا وسلبا

وفي شكل آخر لهذه الدراسة عرضنا المجموعة نفسها من الرسوم البيانية الاثني عشر مع البيانات الثلاثة الأولية الخاصة بها على فريق جديد من المشاركين وسألناهم أن يحددوا عمليا ما يتوقعون أن تكون عليه بيانات النقطتين التاليتين. كان الأمريكيون أميل إلى مواصلة السير في الاتجاه نفسه وبالمعدل نفسه كما بالإمكان أن نستنتج من الموضوعات السابقة. ولكن الصينيين في المتوسط العام تنبأوا بثبات التغير عند مستوى محدد وكانوا في مرات عديدة أميل من الامريكيين إلى التنبؤ بأن يسير التغير في اتجاه عكسي. وأعود لأقول إن هذه الاتجاهات بدت أكثر وضوحا عندما كانت الرسوم البيانية متسارعة إيجابيا عما كانت متسارعة سلبيا.

وجدير بالذكر أن المعتقدات التي تؤمن بالحركة خطية المسار مقابل الحركة دائرية المسار تنطبق على التغير على مدى فترات زمنية طويلة جدا. إن الدراسة السياسية التي كتبها توماس مور عام ١٥١٦ تضمنت تأملا بشأن شكل نظام الحكم الكامل. وابتكر مور مصطلح «يوطوبيا» كاسم لهذا المجتمع. والكلمة ضرب من التورية لجذر يوناني يحمل معنيين «اللامكان» و«المكان الفاضل». ولا ريب في أن يوطوبيا مور ليست الأولى، كما أنها، يقينا، ليست الأخيرة على مدى تاريخ طويل للابتكارات الغربية، بما في ذلك جمهورية أفلاطون والحركة البيوريتانية وطوائف الهزازين(*) ومذهب المورمون

(*) طوائف دينية أمريكية تؤمن بأن حركات الجسم التي تشبه الذكر جزء من العبادة [المترجم].



والثورتان الأمريكية والفرنسية والمذهب الشيوعي والفاشية. وجدير بالملاحظة أنه باستثناء اليوطوبيات - التي صيغت نماذجها طبقا لأفكار الكتاب المقدس عن جنة عدن والوعد الإلهي في التوراة بأورشليم القدس الجديدة - فإن اليوطوبيات الغربية تتسم بخمس سمات بارزة وهذه السمات جميعها تجعلها مختلفة اختلافا كبيرا عن إيمان كونفوشيوس وغيره من المفكرين الصينيين القدماء بأن العالم الكامل وجد في الماضي وأن كل ما نملكه هو الأمل فقط في أن نجاهد ونكابد للتحرك من واقعنا الراهن المتدني إلى ذلك الزمان زمان الكمال.

وتؤمن اليوطوبيات الغربية بما يلي:

- هناك تقدم ثابت وخطي بدرجة أو بأخرى في اتجاههم.
- ما أن تتحقق اليوطوبيات حتى تصبح حالة ثابتة.
- نصل إليها بفضل الجهد البشري وليس القدر أو تدخل مفارق.
- تلتزم عادة بالمساواتية.
- تُبنى عادة على أساس عدد قليل من الفروض المتطرقة عن الطبيعة البشرية.

وتعتبر هذه الصفات من نواح كثيرة النقيض التام للمستقبل كما يمكن أن يتصوره العقل البشري، الذي يميل إلى البحث عن طريق وسطي بين متطرفين ويفترض ردة لا تقدما، أي عودا إلى البداية.

وجدير بالذكر هنا أن العبرانيين القدامى كانوا من هذه الناحية أقرب إلى الصينيين منهم إلى الإغريق. إن يوطوبيا العبرانيين التي تمثلها جنة عدن كانت قائمة في الماضي وتمنوا لو تعود، أو إحياءها من جديد. وكانت فكرتهم عن طبيعة التغير مماثلة لفكرة الصينيين - إذ كانت لديهم فكرة واضحة عن ين ويانج الحياة. ولقد باع أنبياء العبرانيين في القرن الثامن قبل الميلاد عقاراتهم وممتلكاتهم إذا ما أصاب اليهود خير وسارت حياتهم رخاء - إذ كانوا على يقين بأن الحياة دوارة وسرعان ما تستدير نحو الأسوأ - واعتادوا أن يشتروا حين تسوء الأمور! ولا يزال هذا الاتجاه من الحياة باقيا لدى طائفة اليهود المحدثين وتحكي عنه نكات لا حصر لها: «أمي خمني ماذا - كسبت سيارة بونتياك من اليانصيب!» الأم: «آه، الضرائب وحدها ستسد علينا السبل وتضعنا أسرى الفقر».



إذا استمرت الفوارق في الافتراضات بشأن اتجاه التقدم البشري، وإذا صاغ الناس الحياة على غرار اتجاه حياة بشرية وحيدة، فإن لنا أن نتوقع أن يؤمن الغربيون بأن مستقبلهم الخاص سوف يتحرك باستمرار في اتجاه واحد - من شر إلى خير أو من خير إلى شر. ويمكن لأبناء شرق آسيا أن يتوقعوا أن تعاني حياتهم من تقلبات في الحظ - من خير إلى شر إلى خير، أو من شر إلى خير إلى شر. ورغبة منا في دراسة هذه الإمكانات عمدت أنا وجي وسو إلى مطالبة عدد من طلاب جامعتي ميتشيجان وبكين بأن يتنبأوا بمسار السعادة في حياة كل منهم. وعرضنا عليهم ثمانية عشر اتجاها مختلفا للاختيار من بينها، ست منها مسارات خطية - مستقيمة صعودا أو هبوطا ولكن مع تذبذبات على مدى المسار - واثنا عشر منها لا خطية - إما تتوقف عند الاتجاه الأول وإما تعكس مسار الاتجاه الأول لتغير الحياة. لوحظ أن نصف الأمريكيين تقريبا اختاروا واحدا من المسارات الستة الخطية للحياة باعتقادهم أنه الأكثر احتمالا. هذا بينما أقل من ثلث اختيارات الصينيين كانت خطية. (لم تكن الاختيارات مردها إلى افتراضات تشاؤمية أو تفاؤلية عن مسار الحياة. إذ كان الفريقان متعادلين من حيث الشعور بأنهم سيبلغون النهاية سعداء وكذا من حيث الشعور بأنهم سينتهون إلى وضع غير سعيد).

معنى هذا أن أبناء شرق آسيا مثلهم مثل أسلافهم يؤمنون بأن العالم زاخر بالتغيرات وأنه ما طار طائر وارتفع إلا كما طار انخفض. بينما الغربيون (أو لنقل الأمريكيين - حيث لا توجد لدينا بيانات عن غربيين آخرين فيما يتعلق بهذه النقطة) يعتقدون بأن ما يصعد ليس بحاجة إلى أن يهبط ثانية.

ورأينا في الباب الثالث أن التنظيم الاجتماعي والممارسات الاجتماعية لدى أبناء شرق آسيا المحدثين تشبه ما كان لدى الصينيين قديما، وأن التنظيم الاجتماعي والممارسات عند الأوروبيين المحدثين تشبه ما كان لدى الإغريق القدامى. ورأينا في هذا الباب أن أبناء شرق آسيا المحدثين مثلهم مثل الصينيين القدماء يرون العالم في صورة كلية: إنهم يرون جانبا كبيرا من المجال خاصة أحداث الخلفية العامة. وإنهم مهرة في إدراك العلاقات بين الأحداث، ويرون العالم مركبا وقابلا للتغير بدرجة كبيرة وأن مكوناته متداخلة متشابكة. كذلك يرون الأحداث تتحرك في دورات بين طرفين متناقضين، ويشعرون بأن التحكم في الأحداث يستلزم تآزرا وتنسيقا مع الآخرين. ولكن

الغربيين المحدثين، مثلهم مثل الإغريق القدامى، يرون أن العالم في صورة تحليلية ذرية، وأن الموضوعات متمايزة ومنفصلة عن بيئاتها؛ وأن الأحداث تتحرك في مسار خطي - إذا تحركت أصلا، ويشعرون بأنهم شخصيا متحكمون في الأحداث والوقائع، حتى وإن لم يكونوا كذلك. والملاحظ أن الاختلاف ليس قاصرا فقط على النظرة إلى العالم من حيث المفاهيم بل وأيضا ينظرون إلى العالم حرفيا بأسلوبين مختلفين. يرى أبناء شرق آسيا الصورة الكبرى الكلية ويرون الموضوعات في علاقتها بالبيئة - إلى الحد الذي يتعذر عليهم فيه فصل الموضوعات بصريا عن بيئاتها. ولكن الغربيين يركزون على الموضوعات بينما يهملون المجال، ويرون حرفيا عددا أقل مما يرى أبناء شرق آسيا من موضوعات وعلاقات في البيئة.

وإذا كان هناك بعض من يرى العالم من خلال عدسة منفرجة الزاوية ويرون الموضوعات في سياقاتها، بينما يركز آخرون أولا وأساسا على الموضوع وخواصه، إذن فمن المرجح أن يفسر كل طرف الأحداث تفسيرا مختلفا عن الآخر. إن أصحاب النظرة منفرجة الزاوية ربما يميلون إلى أن يروا الأحداث ناتجة عن نقل عوامل في سياقات معقدة ومتداخلة. بينما من ينظرون عبر بؤرة ضيقة نسبيا ربما يكونون أميل إلى تفسير الأحداث أولا وأساسا في ضوء خواص الموضوعات. وسوف نرى في الباب التالي إذا ما كانت النظرتان المختلفتان إلى العالم مرتبطتين حقا بأنواع مختلفة من التفسيرات السببية للحدث نفسه.



5 «البذرة الشريرة» أم الصبية الآخرون أغروه بهذا الفعل؟

في عام ١٩٩١ خسر طالب صيني في قسم الفيزياء بجامعة يووا واسمه جانج لو جائزة في منافسة تقدم لها. طعن في القرار دون جدوى، وفشل نتيجة لذلك في الحصول على وظيفة أكاديمية، وفي ٣١ أكتوبر دخل قسم الفيزياء وأطلق الرصاص على المشرف عليه، وعلى الشخص الذي نظر طعنه وعديد من زملائه الطلاب، وبعض من تصادف وجودهم ثم على نفسه.

ولحظ ميشيل موريس، طالب تخرج في ميتشيجان في الوقت نفسه، أن التفسيرات المطروحة عن سلوك جانج لو في صحف الجامعة ركزت فقط تقريبا على الصفات المفترضة التي كان يتصف بها لو: نقاط الضعف النفسية لدى القاتل (طبع سيئ جدا - ميل شرير لشخصيته)، مواقفه (إيمان شخصي بأن البنادق وسيلة مهمة لإصلاح الظلم) ومشكلات نفسية (مضطرب سوداوي خرج بنفسه على طريق النجاح والتدمير، «مشكلة نفسية بسبب ما واجهه من تحديات»). وسأل موريس زميله كيبنج ينج

> «إن الشعب الصيني أميل إلى أن يعزو سبب سلوك ما إلى السياق، بينما الأمريكيون أميل إلى أن يعزوا سبب السلوك نفسه إلى الفاعل»
>
> **المؤلف**



عن أنواع التفسيرات التي تتردد في الصحف الصينية. كانت مختلفة. أكد المحررون الصينيون على الأسباب المتعلقة بالسياق الذي عاش وعمل فيه لو. وتركزت التفسيرات على علاقات لو («لم يكن على وفاق مع المشرف عليه»، «الغيرة من الطالب القتيل» و«العزلة عن المجتمع الصيني») والضغوط داخل المجتمع الصيني (ضحية السياسة التعليمية إزاء طلاب القمة الصينيين) وجوانب السياق الأمريكي (السماح بحمل الأسلحة في المجتمع الأمريكي).

ورغبة في التأكد من صحة انطباعاتهما عمد موريس وينج إلى عمل تحليل محتوى منهجي للتقارير المنشورة في نيويورك تايمز وصحيفة وورلد جورنال باللغة الصينية. وأوضح هذا الإجراء الموضوعي صواب ملاحظاتهما الأولية. هل يمكن اعتبار اختلاف مظان الأسباب نوعا من التعصب القومي «الشوفينية»؟ وجه المحررون الأمريكيون اللوم إلى الجاني الذي تصادف أنه صيني، بينما وجه المحررون الصينيون اللوم إلى العوامل الموقفية وربما لحماية ابن وطنهم. وكما هي العادة فإن فحص جريمة قتل جماعي سوف يسمح لنا بأن نتبين هل التعصب القومي أم النظرة إلى العالم هو سبب الاختلاف في أنماط التفسير.

وحدث في العام نفسه، الذي ارتكب فيه جانج لو جريمة أو جرائم القتل والانتحار، أن عامل بريد أمريكيا في رويال أوك من أعمال ميتشيجان ويدعى توماس ماك إلفان فقد وظيفته. طعن في القرار لدى نقابته ولكن دون جدوى، وفشل في العثور على وظيفة بديلة كل الوقت. وفي ١٤ نوفمبر دخل مكتب البريد الذي كان يعمل فيه في السابق، وأطلق الرصاص على رئيسه السابق الذي نظر في طعنه، كما أطلق الرصاص على عديد من زملائه السابقين وعدد ممن كانوا هناك بالمصادفة ثم انتحر.

قام موريس و بنج بعمل الدراسة نفسها لتحليل المحتوى في ضوء تقارير النيويورك تايمز وصحيفة وورلد جورنال عن جريمة القتل الجماعي التي ارتكبها ماك إلفان. ووجدا أن التقارير سارت في الاتجاه نفسه تماما مثلما حدث بالنسبة إلى القاتل الصيني. إذ ركز المحررون الأمريكيون على الاستعدادات الشخصية لدى ماك إلفان - الاتجاهات والسمات الشخصية التي استنتجوها من سلوكه في الماضي («كثيرا ما كان يهدد باستخدام العنف» «ضيق الصدر» متحمس للفنون العسكرية،



«غير مستقر ذهنيا»). وأكد المحررون الصينيون على العوامل الموقفية التي أثرت في ماك إلفان («رجل مسلح فُصل أخيرا من عمله»، «كان رئيسه في العمل يناصبه العداء»، «تأثر بجريمة قتل حدثت أخيرا في تكساس واتخذها مثلا له»).

قدم موريس وبنج أوصاف الجرائم إلى عدد من طلاب الجامعة الأمريكيين والصينيين. وطلبا منهم أن يحددوا أهمية عدد كبير من الصفات الشخصية المفترضة والعوامل الموقفية المنتقاة من بين تقارير الصحف. لوحظ أن الطلاب الأمريكيين، سواء أكانوا يفسرون الجريمة الجماعية الأمريكية أم الصينية، ركزوا أساسا على الاستعدادات المفترضة لدى الجاني. هذا بينما شدد الطلاب الصينيون على العوامل الموقفية لكل من الجريمتين الجماعيتين. ولعل ما يثير أكثر أن موريس وبنج أعدا قائمة تضم عددا من العوامل الموقفية وطلبا من المشاركين الحكم على ما إذا كانت الجريمة ما كان لها أن تقع لو أن الظروف والملابسات كانت مختلفة. إذ إنهما - على سبيل المثال - سألا الآتي «هل كان بالإمكان تجنب الكارثتين لو أن لو تسلم وظيفة» أو «إذا كان لماك إلفان أصدقاء كثيرون أو أقارب في رويال أوك؟». اختلفت إجابات المشاركين الأمريكيين والصينيين اختلافا كبيرا. اعتقد الصينيون أن الجريمتين ما كان لهما أن تقعا في حالات كثيرة. ولكن الأمريكيين لإيمانهم أن الاستعدادات الراسخة لدى القاتل هي مفتاح وعلة ثورته واهتياجه، فقد رأوا أن الأرجح أن جرائم القتل كانت ستقع دون اعتبار لاختلاف الظروف.

في بيان الأسباب في الشرق والغرب

حري ألا ندهش، لأن الشعب الصيني أميل إلى أن يعزو سبب سلوك ما إلى السياق، بينما الأمريكيون أميل إلى أن يعزوا سبب السلوك نفسه إلى الفاعل. ورأينا في الفصل الأخير أن أبناء شرق آسيا يهتمون بالسياق أكثر من الأمريكيين. وإن ما يأسر انتباه المرء هو على الأرجح ما يعتبره المرء مهما من الزاوية السببية. ويبدو أن العكس مستساغ بالقدر نفسه: إذا ما رأى المرء شيئا ما مهما كسبب فسوف يهتم به على أرجح تقدير. وهكذا تنشأ دورة حيث الآراء عن السببية ومحور الاهتمام تعزز بعضها.



وثمة شواهد ودلائل وفيرة على أن الاختلافات في نسبة الأسباب تعكس، كالمرآة، الاختلافات في الانتباه والاهتمام. وسبق أن أعدت عالمة نفس النمو جوان ميللر أول دراسة مقارنة ثقافية عن نسبة الأسباب، حيث قارنت بين هنود شرق الهند والأمريكيين. طلبت من مشاركيها، وهم من متوسطي الأعمار ومن أبناء الطبقة الوسطى، أن يصفوا لها سلوك أحد المعارف الذي «يعتبرونه خطأ ما كان ينبغي أن يحدث»، وسلوكا لأحد المعارف «يعتبرونه لائقا بشخص آخر». طلبت بعد ذلك من مشاركيها أن يفسروا لها لماذا أقدم الناس على السلوك الذي فعلوه. اتجه المشاركون الأمريكيون إلى تفسير السلوك في ضوء السمات المفترضة للشخصية وغير ذلك من استعدادات لدى الفاعل: «سالي حذرة، غير متحفظة وودودة». وكان الأمريكيون ضعف الهنود في هذا النهج في تفسير الأسباب. واتجه الهنود إلى تفسير السلوك في ضوء عوامل سياقية: «كان الظلام يسود المنطقة ولم يكن هناك أحد ليقدم العون». وكانت تفسيرات الهنود المعتمدة على السياق ضعف تفسيرات الأمريكان في بيان الأسباب.

ولم يقدم الأمريكيون والهنود أنواعا مختلفة من الإجابات؛ لأنهم وصفوا أنواعا مختلفة إلى حد ما من الأحداث. إذ عندما طلبت ميللر من الأمريكيين تفسير السلوكيات التي ذكرها الهنود، فسرها الأمريكيون باستخدام الأنواع نفسها من التفسيرات المبنية على الاستعدادات والتي فسروا بها سلوكياتهم هم. وقدمت ميللر عرضا توضيحيا إضافيا مهما، أوضحت فيه أنها تحتاج إلى وقت لتعلم كيف تفسر السلوك المقبول ثقافيا. إن الأطفال في الثقافتين لا يختلفون من حيث أنواع التفسيرات التي يقدمونها. ويظل الوضع كذلك حتى سن البلوغ، وهنا يبدأ الهنود والأمريكان في التباعد في ما يقدمونه من تفسيرات. ورغبة في أن تبلغ بهذه الدراسة إلى ذروتها سألت ميللر هنودا إنجليز أو بريطانيين من أصل هندي أضحت ثقافتهم غربية إلى حد ما. كانت تفسيراتهم، سواء من حيث إرجاع السبب إلى الاستعدادات أو إلى السياقات، تحتل موقعا وسطا بين الهنود من الهند والأمريكيين.

سلوك آخر نلمسه في تفسير الكسب والخسارة في المباريات الرياضية، يبدو واضحا أن الأسباب التي يعزو إليها الناس النصر أو الهزيمة تختلف في أمريكا عنها في شرق آسيا. وقد عمدت عالمة النفس المختصة بعلم



النفس التنظيمي وزملاؤها إلى تحليل ما كتبه محررو الرياضة عن تفسير المدربين واللاعبين للأسباب في الولايات المتحدة وهونج كونج. يرى الأمريكيون أن النتائج هي في الغالب الأعم تعبير عن قدرات اللاعبين فردا فردا: سمبسون يقود فريقه ليسجل أحد عشر هدفا ولكن نجاحه يتمثل في قوة دفاعه. لقد كان معنا حارس مرمى ممتاز في مباراة كذا، والذي سبق له أن كان مدافعا في نهائيات العام الماضي، ولكن أبطال الرياضة والمدربين في هونج كونج أميل إلى الإشارة إلى الفريق الآخر وإلى السياق: «كنا محظوظين إذ سجلنا هدفا تفوقنا به، وكنت دائما على ثقة بأننا سنتفوق عليهم. وأحسب أن فريق جنوب الصين كان مجهدا إلى حد ما بعد أن لعب مباراة في الدورة الرباعية في الصين».

الفوارق في نسبة الأسباب بين الشرق آسيويين والغربيين تمضي إلى ما هو أعمق من تفسير السلوك البشري. وأوضح موريس وبنج أن الصينيين يميلون إلى أن يعزوا سلوك السمك في مشاهد الفيديو إلى عوامل خارجية، بينما يعزوها الأمريكيون إلى عوامل داخلية. وأوضح بنج وزملاؤه أن الفوارق بين أبناء شرق آسيا والغربيين أعمق من هذا أيضا - إذ تصل إلى الإدراك الحسي للسببية الفيزيقية. إذ عرضوا على نساء صينيات وأمريكيات لوحات كارتون أو رسوما متحركة تجريدية من نوع الرسوم المعروضة في الصفحة التالية. وتعرض كل لوحة حركة من نوع محدد يمكن تفسيرها على أساس هيدروليكي أو مغناطيسي أو أيروديناميكي. وكما كان متوقعا فسر المشاركون اللقطات العليا في الرسم على أنها شيء خفيف الوزن (كرة ستطفو على سطح السائل). ولكن الدائرة في الصورة التي تحت السابقة تسقط إلى ما دون الخط العلوي، وتوشك أن تستقر على الخط السفلي. وهنا أيضا، وكما كان متوقعا، رأى المشاركون هذه الحركة باعتبارها شيئا ثقيل الوزن يسقط ليصل إلى قاع الوعاء الذي يحتوى على السائل. وسأل الباحثان المشاركين إلى أي مدى رأوا أن حركات هذا الشيء تأثرت بعوامل داخلية (شيء ما داخل الشيء نفسه أو خاصا به وكان سببا في سقوطه). أفاد الأمريكيون أنهم تصوروا أن الحركات جاءت نتيجة لأسباب أو عوامل داخلية، وكانوا في تصورهم للأسباب الداخلية أكثر مما ذهب الصينيون.



سقوط ـ مقاومة

سقوط

طفو ـ حركة

طفو ـ تصادم

مسارات الحركة في عروض بالكمبيوتر
توحي بوجود سائل في الوعاء



ظلت هونج كونج تحت السيطرة البريطانية زهاء مائة عام، وكان الأطفال هناك يتعلمون الإنجليزية منذ المرحلة الابتدائية. وظل النفوذ الغربي ثقافيا ولسانيا قويا حتى بعد أن عادت الجزيرة إلى السيطرة الصينية منذ عام ١٩٩٧، وجعل هذا من المدينة معملا مهما وأثيرا لأغراض دراسة التفاعل الثقافي.

ويبدو واضحا أن مواطني هونج كونج بوسعهم، إذا ما صادفوا تشجيعا، أن يفكروا بأسلوب شرق آسيا أو بأسلوب غربي إذا ما عرضنا عليهم صورا توحي بهذه الثقافة أو تلك. وعرضت ينج - يي هونج وزملاؤها صورا مماثلة للصور المتحركة (الكارتون) عن السمك التي سبق أن عرضها موريس وبنج على طلاب بجامعة هونج كونج. ولكنهم عرضوا في البداية عليهم صورا توحي بأي من الثقافة الغربية أو الشرقية. وعرضوا على بعض المشاركين صورا ترتبط ارتباطا قويا بالثقافة الأمريكية: مثال ذلك مجلس النواب الأمريكي، شخص من رعاة البقر (كاوبوي) على صهوة جواد؟ وميكي ماوس. وعرضوا على مشاركين آخرين صورا ترتبط ارتباطا قويا بالثقافة الصينية: مثال ذلك صورة تنين، معبد، أشخاص يكتبون رسوما صينية مستخدمين فرشاة في الكتابة. وعرضوا على فريق ثالث من المشاركين صورا حيادية تصور مناظر طبيعية. وبعد عرض مجموعة من الصور على المشاركين عرضت هونج وزملاؤها عليهم صورة كارتون لسمكة تسبح أمام سمكة أخرى وسألوهم عما يعتقدونه أنه السبب الرئيسي الذي جعل السمكة تسبح في مقدمة السمكة الأخرى وتسبقها. لوحظ أن المشاركين الذين رأوا الصور الأمريكية عرضوا أسبابا تتعلق بحوافز السمكة الوحيدة أكثر مما عرض المشاركون الذين رأوا الصور الصينية، وعرضوا تفسيرات ذات علاقة بالسمكة الأخرى أو السياق أقل من التفسيرات التي قال بها المشاركون الذين رأوا الصور الصينية. هذا بينما من رأوا الصور المحايدة فقد احتلوا موقعا وسطا.

درس بنج وزميله إريك نوليس الأمريكيين الآسيويين، واكتشفا أن بالإمكان أن يميزا إما الذوات الآسيوية للمشاركين، أو ذواتهم الأمريكية.

وعرضا على الطلاب مجموعة من الصور لحركة فيزيقية، مثل تلك المصورة في الرسم التوضيحي، وطلب الباحثان من الطلاب أن يقدروا المدى الذي تكون فيه حركة الشيء ناجمة عن عوامل خاصة بالاستعداد (مثل



الشكل والوزن)، مقابل عوامل خاصة بالسياق (مثل الجاذبية والاحتكاك)، ولكنهما طلبا من المشاركين أولا عمل أحد شيئين: إما أن يتذكروا خبرة كانت لديهم جعلت هوية المرء - بوصفه أمريكيا - واضحة لهم، أو أن يتذكروا خبرة جعلت هويتهم الآسيوية واضحة. كان لأسس التمييز أثرها، ذلك أن المشاركين ممن كانت الميزة لهويتهم الأمريكية ذهبوا في تقديرهم إلى أن الأسباب الذاتية للشيء هي الأهم، على عكس المشاركين ممن كانت الميزة لهويتهم الآسيوية.

سألنا أنا وأرا نورنزايان وأنكيول طلابا جامعيين كوريين وأمريكيين عددا من الأسئلة بهدف سبر غور آرائهم عن أسباب السلوك. طلبنا منهم تعيين درجة لكل من الفقرات العديدة التي تعبر بدقة عن آرائهم بشأن الأسباب التي تجعل الناس يسلكون على النحو الذي يسلكون به. ونورد فيما يلي الجملتين الأوليين من كل فقرة.

١- شخصية الناس هي التي تحدد في الغالب الكيفية التي يسلكون بها. إن شخصية المرء تهيئ الاستعداد المسبق للمرء للسلوك، وتوجهه نحو السلوك على نحو محدد دون سواه بغض النظر عن الظروف والملابسات التي تحيط بالمرء.

٢- الموقف الذي يوجد فيه الناس هو الذي يحدد غالبا الكيفية التي يسلكون بها. إن الموقف له سلطان قوي جدا على المرء حتى ليمكن القول إن نفوذه على السلوك أقوى من نفوذ الشخصية.

٣- الكيفية التي يسلك بها الناس تحددها دائما بالاشتراك معا شخصية الناس والموقف الذي يجدون أنفسهم فيه. ولا يسعنا القول إن العامل المحدد لسلوكنا هو إما الشخصية وإما الموقف فقط.

اعتبر الكوريون والأمريكيون الشخصية (١) مهمة بالقدر نفسه في تحديد السلوك، ولكن الكوريين أولوا العوامل الموقفية (٢) والتفاعل بين المواقف والشخصيات (٣) أهمية أكبر مما رأى الأمريكيون.

وسألنا أيضا عددا من المشاركين عددا من الأسئلة عن معتقداتهم بشأن مرونة وطواعية الشخصية. مثال ذلك، سألناهم عن رأيهم في أن شخصية المرء أمر لا سبيل في تغييره كثيرا. اعتقد الكوريون أن الشخصيات تخضع للتغير أكثر مما ذهب الأمريكيون.



ولا غرابة أبدا في أن يعتبر الأمريكيون الشخصيات ثابتة نسبيا بينما يعتبرها أبناء شرق آسيا أكثر مرونة وطواعية. إذ إن هذا يتسق مع التراث الغربي العريق في النظر إلى العالم باعتباره وجودا إستاتيكيا إلى حد كبير، بينما تراث شرق آسيا العريق يرى العالم في تغير دائم.

وأوضح علماء النفس الاجتماعيين ميشيل موريس وكووك ليونج وشيتا سيتي (إيينجار) أن أبناء شرق آسيا والغربيين يفضلون، كل منهم، أنواعا مختلفة من إستراتيجيات التفاوض، التي يمكن أن تكون مرتبطة بآراء عن قابلية الشخصية للتكيف. سألوا المشاركين من هونج كونج والأمريكيين أي نوع من القضاء يفضلونه للفصل في خلاف ما والوصول إلى اتفاق مع شخص تصرف على نحو يمكن وصفه بأنه معاد أو غير معقول. آثر المشاركون من أبناء هونج كونج الفصل في القضية على أساس التحقيق على يدي طرف ثالث يحقق مع طرفي الخصومة، ويحاول الوصول إلى حكم مقبول من الاثنين. هذا بينما كان الأمريكيون أميل إلى تفضيل الفصل في القضية على أساس أنها خصومة بين طرفين أمام القضاء مع وجود محام عن كل من الطرفين.

هل لنا أن نفترض أن أبناء شرق آسيا لديهم أفكار ورؤى عن الشخصية البشرية مختلفة في أساسها عن أفكار ورؤى الغربيين؟ هل يؤمن أبناء شرق آسيا بأن الفوارق بين أفراد البشر طفيفة جدا؟ أم أنهم يرون أن هناك فوارق ولكنها تبدو في ضوء فهم الغرب سمات غريبة أو غير ذات موضوع؟

الإجابة عن هذه الأسئلة كلها من المحتمل أن تكون لا. وأذكر أنني حين كنت في الصين عام ١٩٨٢ قرب نهاية الثورة الثقافية، كان المجتمع كتوما لا يزال يعيش في حالة صدمة بعد أن قضى ثلاثين عاما في تجربة اجتماعية واقتصادية مصحوبة بتشنجات عصبية. بدت الثقافة مختلفة، ومختلفة جذريا عن ثقافة الغرب على نحو تعذر علي معه أن أصوغ صورة ومفهوما واضحين. لمست، كما يبين من هذا الكتاب، فوارق لافتة للنظر من نظرة الإنسان إلى العالم وفي عمليات الإدراك والتفكير. بيد أنني ألفيت نفسي خلال ثلاثة أسابيع قادرا على أن أثرثر مع مضيفي عن الصين. استطعنا أن نتحدث عن أدب فونج وخضوعه، وعن غطرسة شان وتحفظ لين ونفهم



بعضنا جيدا. وتيسر لي لحسن الحظ دليل أفضل من القصة التي عندي. قدم الباحثون كمّا كبيرا من الشواهد والدلائل التي تشير إلى أن النظريات عن الشخصية في شرق آسيا مماثلة جدا للنظريات في الغرب. وإن العوامل الرئيسية المحددة لسمات الشخصية - والتي يصفها أصحاب نظريات الشخصية بعبارة الخمسة الكبار - نجد لها نظائر كثيرة بين الناس في الغرب. وتظهر هذه العوامل نفسها عند ترجمة اختبارات الشخصية الغربية، وعند تطبيقها على الصينيين أو الكوريين أو اليابانيين، وإن لم يتسن أحيانا تحديد أكثر من أربعة عوامل.

ووجد عالما النفس الثقافيين كيو - شو يانج وميشيل بوند أن هناك قدرا كبيرا من التشابه عندما تكون مواد وبنود الاختبار مبنية على أساس أوصاف سلوكية شائعة في الثقافة المحلية، وليست مترجمة من اللغات الغربية. وبذلت فاني شيونج وزملاؤها جهدا بعد ذلك لتطوير قائمة بسمات الشخصية الصينية. ووصولا إلى هذا انتقوا مفردات تصف الشخصية من خلال أعمال صينية شعبية معاصرة من مثل الروايات والحكم الصينية وأوصافهم لأنفسهم وللآخرين على لسان العامة أو حددها علماء النفس المهنيون. وتأسيسا على هذه المواد صاغت شيونج وزملاؤها «اختبار تقييم الشخصية الصينية». وطبقوا هذا الاختبار على عينة كبيرة من أهالي هونج كونج والصين الأم. واكتشفوا عوامل أربعة، تتطابق ثلاثة منها بشكل عام مع الانبساط النفسي والعصابية والحساسية الضميرية extraversion, neuroticism, conscientiousness، وهي أقوى العوامل الخمسة الكبرى في الغرب. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الباحثين اكتشفوا عاملا لا يظهر في الاختبارات المطورة في الغرب. ووصفوا هذا العامل بقولهم «عامل التراث الصيني»، وهي صياغة تجمع صفات الشخصية ذات الصلة بالتناغم الباطني والتناغم فيما بين الناس. وبدا مثيرا للاهتمام أن نبحث عما إذا كان هذا العامل يمكن أن يكون موجودا في صيغة من صيغ الاستبيان الصيني عند ترجمتها إلى اللغات الغربية. إن التناغم ليس هو أول سمة تصادف الباحثين الغربيين عند التفكير في الشخصيات، ولكن ربما يكون لهذا المعنى أهمية لدى الغربيين على الرغم من ذلك.



تحاشي الخطأ الأساسي في رد السلوك إلى استعدادات مسبقة للشخصية

يبدو أن أبناء شرق آسيا والغربيين ليسوا على هذا القدر من الاختلاف الكبير في أبعاد الشخصية التي يستخدمونها. لماذا إذن يركز الغربيون بقوة على سمات الشخصية في تفسيرهم للسلوك؟ الإجابة على ما يبدو هي أن أبناء شرق آسيا أميل إلى ملاحظة عوامل موقفية مهمة، وإدراكهم أن هذه العوامل لها دورها في توليد السلوك. ونتيجة لذلك فإن مجتمعات شرق آسيا أقل تعرضا لما يصفه عالم النفس الاجتماعي لي روس «الخطأ الأساسي في نسبة السلوك إلى استعدادات مسبقة للشخصية». Fundamental Attribution Error أو اختصارا FAE.

تخيل أنك رأيت طالبا جامعيا طلب منه البعض أن يصحب عددا من المانحين المحتملين في جولة في الجامعة على مدى يوم كامل، وقدموا لهذا الطالب مقابل خدمته مبلغا ضئيلا من المال - أقل من الحد الأدنى للأجر - ولنتخيل آن الطالب رفض. هل نظن أن من المرجح أن يقبل هذا الطالب التطوع للمساعدة في حملة للصليب الأحمر للتبرع بالدم؟ من المحتمل ألا يقبل. ولكن لنفترض أن أحد أصدقائك رأى طالبا آخر تقاضى مبلغا مقبولا من المال - لنقل يزيد ٥٠ في المائة عن الحد الأدنى للأجر - ليصاحب وفد المانحين، وقبل الطالب ذلك. هل تعتقد أن الصديق سيرى أن من المرجح أن يقبل الطالب التطوع للمساعدة في حملة التبرع بالدم؟ الشيء المحتمل أن القبول مرجح أكثر مما تظن أنت وما تتوقعه من الطالب. إذا كان ذلك صحيحا فإن كليكما، أنت وصديقك، تعرضان صيغة لنسبة السلوك إلى استعدادات مسبقة لدى الشخص وليس إلى عامل موقفي مهم - وهو هنا المال - واعتبار العامل الموقفي القوة الدافعة الأولى وراء السلوك.

هذا الخطأ - إغفال الموقف واختراع تفسيرات للسلوك على أساس استعدادات قوية مسبقة - خطأ شائع جدا. إن هذا يجعل الناس يثقون خطأ في أن شخصا ما يرونه يجري اختبارا شخصيا لشغل وظيفة مهمة فيصفونه بأنه شخص عصبي بطبيعته، أو أن شخصا آخر يرونه منسحبا ومنزويا في حفل ما (بينما يكون السبب لأنه لا يعرف أحدا من الحضور) ونصفه بأنه خجول، أو أن نرى شخصا لَسِنا يجيد ويطيل الحديث عن موضوع ما يعرفه أمام جمهور مألوف له ونقول إنه متحدث رائع وشخص واثق بنفسه كل الثقة.



وأول برهان تجريبي راسخ عن هذا الخطأ قدمه عالم النفس الاجتماعي المبرز إدوارد إي. جونس وزملاؤه. ففي دراسة منشورة عام ١٩٦٧ طلبوا من طلاب جامعيين قراءة خطاب أو مقال زعموا أن كاتبه طالب آخر. وسوف يسمون هذا الطالب الآخر باسم «هدف». وأوضحوا لهم أنه طُلب من هدف أن يكتب الخطاب أو المقال داعما لجانب محدد من قضية بعينها. مثال ذلك أنهم طلبوا من الهدف أن يكتب مقالا في علم السياسة يعرب فيه عن تفضيله لرئيس كوبا كاسترو، أو أن يدلي بخطاب في محفل جدلي يعارض تشريعا يسمح بالماريجوانا. وطلب الباحثون من المشاركين أن يوضحوا ما يظنونه الفكر الحقيقي للطالب الهدف الذي كتب المقال أو ألقى الخطاب. القيود والضغوط الموقفية الحادة ستجعل المشاركين يعترفون بأنهم لم يعرفوا شيئا عن الآراء الحقيقية للهدف، ولكنهم في الحقيقة تأثروا بشدة بما قاله الهدف. إذا قال الهدف إنه يؤيد أسلوب كاسترو في إدارة شؤون كوبا، فإن المشاركين يفترضون أنه ميال بالفعل إلى هذا الرأي. وإذا ما قال الهدف إنه يعارض إصدار تشريع يسمح بتداول الماريجوانا، فإن المشاركين يميلون إلى افتراض أنه مؤمن فعلا بهذا الرأي.

وكما ثبت في النهاية فإن هذا الوهم قوي إلى حد أن أبناء شرق آسيا أنفسهم يتأثرون به. لقد شارك صينيون ويابانيون وكوريون في صيغ مختلفة من هذه التجربة، وتبين أنهم يستنتجون أن الأهداف (أي الكتاب) لديهم بالفعل مواقف واتجاهات تتطابق مع الآراء التي قرأوها في مقالاتهم المزعومة. ولكن ثمة فارقا بين قابلية تأثر الشرقي الآسيوي وقابلية تأثر الأمريكي بهذا الوهم: إن أبناء شرق آسيا لا يقعون في الخطأ إذا ما وضعوا أنفسهم أولا موضع الهدف. وحدث أن وضعنا أنا وإنكيول شوي المشاركين أنفسهم في المواقف التي يطالبون فيها بكتابة مقال عن موضوع بذاته، وأن يتخذوا موقفا محددا، وأن يستخدموا مجموعة محددة من الحجج الأربع في كتابة مقالهم. وقرأوا بعد هذا مقالا كتبه شخص يعرفون أنه كان في الموقف ذاته الذي كانوا هم فيه أنفسهم. لم يكن لهذا أي أثر بالتحديد في الأمريكان: لقد كانت استدلالاتهم المبنية على أساس الاستعدادات الشخصية للآخرين قوية، إلى الحد الذي بدوا وكأنهم هم أنفسهم لم يعيشوا تماما خبرة وتجربة الموقف الذي عاشه الشخص الهدف. ولكن التجربة خلقت مناعة لدى الكوريين حالت دون وقوعهم في الخطأ.

ويشير دليل آخر إلى أن إبراز العوامل الموقفية له أثره، وإن أثره في أبناء شرق آسيا أكبر من أثره في الغربيين. وحدث أن طلبنا أنا وأرا نورنزايان وإنكيول شوي من طلاب جامعيين أمريكيين وكوريين أن يقرأوا سيناريو واحدا من اثنين ثم يخمنوا إذا ما كان الشخص الهدف سيعطي شخصا ما أجر ركوب الأوتوبيس. ويبدأ السيناريوهان على النحو التالي:

قابلت جيم وهو جار جديد لك. وبينما أنت وجيم تسيران معا في الحي الذي تسكنونه اقترب من جيم شخص أنيق الملبس وقال إن سيارته أصابها عطب ويريد أن يستدعي الميكانيكي بالهاتف. ثم أردف قائلا بصوت خجول طالبا من جيم ربع دولار ثمن المكالمة التليفونية. رأيت جيم يبحث في جيوبه وعثر على ربع دولار وأعطاه للرجل. وفي يوم تال كان جيم في طريقه سيرا على قدميه إلى محطة الأوتوبيس ليلحق بالأوتوبيس قاصدا عمله. وبينما هو يمشي اقترب منه شاب في العشرينات يتأبط بعض الكتب وسأل جيم في أدب إذا كان يمكنه أن يستعير منه دولارا أجرة الأوتوبيس موضحا موقفه بأنه نسي حافظة نقوده في البيت ويحتاج ثمن تذكرة أوتوبيس ليصل إلى مدرسته.

في إحدى الصيغتين للسيناريو التي قرأها فريق من المشاركين يبحث جيم في جيوبه ويكتشف أن معه عدد من الدولارات. وفي الصيغة الثانية التي قرأها فريق آخر من المشاركين يكتشف أن ما معه من نقود يكفي بالكاد أجرة الأوتوبيس الذي سيركبه هو. لوحظ أن المشاركين الكوريين كانوا أميل إلى الإقرار بأن على جيم أن يفكر في إعطاء ابن العشرينات النقود التي يريدها مادام معه عدة دولارات على عكس موقفهم حين يجد أن ما معه يكفيه للانتقال هو وحده.

وقدمنا للمشاركين مجموعة من ست سيناريوهات مختلفة، كل سيناريو من صيغتين مختلفتين، ووجدنا أن الكوريين في كل منها أكثر استجابة من الأمريكيين إلى المعلومات الموقفية، ويتنبأون بأن سلوكا معينا سيكون هو الأرجح إذا ما كانت هناك عوامل موقفية تيسره، على عكس الحال إذا كانت العوامل الموقفية مثبطة.

وهكذا نجد الشواهد والدلائل بشأن رد الأسباب تتداخل مع الشواهد والدلائل عن الإدراك. نلاحظ أن الغربيين يهتمون أساسا بالموضوع أو الشخص المحوري الذي يحتل البؤرة بينما الشرق آسيويين يهتمون بشكل أعم

بالمجال وبالعلاقات بين الموضوع والمجال. وينزع الغربيون إلى افتراض أن الأحداث سببها الموضوع، بينما الشرق آسيويين يميلون إلى أن يعزوا أهمية أكبر إلى السياق.

بناء نماذج سببية

الفوارق بين أبناء شرق آسيا والغربيين في التفكير الاستدلالي عن الأسباب أوسع نطاقا من مجرد تفضيل المجال أو تفضيل الموضوع. الغربيون ينغمسون أكثر في المدى الزمني الذي يردون فيه الأسباب. وجدير بالذكر أن المؤرخة ماساكو فاتانابي قدمت عرضا جميلا لهذه الفكرة خلال دراساتها عن الوسائل التي يتعامل بها اليابانيون والأمريكيون مع الأحداث التاريخية من جانب التلاميذ في مدارسهم الابتدائية، وطلاب الجامعات وكذا المعلمين.

يبدأ المعلمون اليابانيون بعرض سياق مجموعة من الأحداث بشيء من التفصيل. ثم ينطلقون من هذا إلى عرض الأحداث المهمة في ترتيب زمني بحيث يربطون كل حدث بما يليه. ويشجع المعلمون طلابهم على تصور الحالات الذهنية والانفعالية للشخصيات التاريخية وذلك بالتفكير على سبيل المماثلة والمناظرة بين مواقف تلك الشخصيات ومواقف الحياة اليومية للطلاب. ويشرعون بعد هذا في تفسير الأفعال والأعمال في ضوء هذه المشاعر. ونرى التركيز على الحدث «الأولي» الذي كان بمثابة قوة الدفع للأحداث التالية. ويرى المعلمون أن الطلاب أصبحت لديهم قدرة جيدة على التفكير تاريخيا حين يكشفون عن قدرة على التقمص الوجداني للشخصيات التاريخية، بمن في ذلك أعداؤهم. والملاحظ أن أسئلة «كيف» هي التي تتكرر كثيرا ـ حوالي ضعف السؤال عنها في الفصول الدراسية الأمريكية.

ويقضي المعلمون الأمريكيون وقتا أقل من المعلمين اليابانيين في تحديد السياق، إذ يبدأون بالنتيجة وليس بالحدث الأولي أو الحافز. ويتحطم النظام الكرونولوجي أي الترتيب الزمني للأحداث خلال العرض. ونجد بدلا من هذا أن العرض يفرضه ويحدده النقاش بشأن العوامل السببية المفترض أنها مهمة (الإمبراطورية العثمانية انهارت لأسباب ثلاثة أساسية). ويعتبر الطلاب لديهم قدرة جيدة على التفكير الاستدلالي التاريخي حين تتوافر لديهم قدرة

على إيراد الأدلة التي تتلاءم مع نموذجهم السببي للنتيجة النهائية. والملاحظ أن أسئلة «لماذا» تتكرر في الفصول الدراسية الأمريكية ضعف حدوثها داخل الفصول الدراسية اليابانية.

وتصف واتانابي التحليل التاريخي الأمريكي بالتفكير الاستدلالي الارتجاعي Backward reasoning لأنه يعرض الأحداث حسب ترتيب السبب والنتيجة. ونلحظ التشابه بين هذا النهج والاستدلال الهادف أي الموجه نحو هدف goal-oriented reasoning: يحدد الهدف المطلوب إنجازه واستحداث نموذج يهيئ لك إمكان الوصول إليه. ونلحظ أيضا أن التوجه الهادف يمثل خاصية مميزة للغربيين أكثر منها لأبناء شرق آسيا وذلك لاقترانه لدى الغربيين بإحساسهم للفعالية الذاتية. وتساعدنا هذه الرؤية النافذة على فهم السبب في أن الإغريق القدامى وليس الصينيون هم الذين انشغلوا في صوغ نماذج سببية للظواهر الطبيعية. إن نمذجة - أي صياغة نماذج للأحداث بأسلوب التحليل السببي الارتجاعي يبدو أكثر وأيسر على نحو طبيعي بالنسبة لمن لديهم حرية تحديد أهدافهم إزاء موضوع ما وأن يصوغوا مخططاتهم لإنجاز تلك الأهداف. وتستشهد واتانابي بمقولة معلم أمريكي يدرس الإنجليزية كلغة ثانية، إذ يقول «كم هو عسير أشد العسر على المعلمين الأمريكيين أن يفهموا بحوث الطلاب اليابانيين لأننا لا نرى فيها أي إشارة سببية، بينما العلاقة بين السبب والنتيجة تعتبر منطقا أوليا في الولايات المتحدة.

وجدير بالذكر أن الغربيين في اتساق مع عالمهم الأقل تعقدا يرون عوامل أقل مما يراها أبناء شرق آسيا وثيقة الصلة بفهم العالم. وأذكر أن إنكيول شوي وزملاءها وصفوا حادثة القتل التي ارتكبها طالب قسم الفيزياء الصيني على عدد من المشاركين الأمريكيين والكوريين. وقدمت شوي وزملاؤها بعد هذا مائة مادة معلومات تتعلق بالطالب والأستاذ والمدرسة وغير ذلك، وطلبوا من المشاركين حذف العوامل التي لا يمكن اعتبارها ذات صلة في خلق الحافز إلى القتل. لوحظ أن المشاركين الكوريين رأوا أن ٣٧ بالمائة فقط من مواد المعلومات غير ذات صلة. رأى الأمريكيون أن ٥٥ بالمائة من مواد المعلومات غير ذات صلة على الأرجح. (ودرسوا أيضا وضع مشاركين أمريكيين من أصول شرق آسيوية ووجدوا أنهم يحتلون موقعا وسطا بين الأمريكيين والأوروبيين والكوريين).



ووجدت شوي وزملاؤها أيضا دليلا على أن الميل لأن يرى المرء عوامل كثيرة جدا ذات صلة بالنتيجة مرتبط بدرجة إيمان المرء بمعتقدات النظرة الكلية عن العالم. وطلبوا من مشاركيهم الإجابة عن استبيان خاص «بالنظرة الكلية» holism يشير إلى مدى اعتقادهم بأن الأحداث مرتبطة ببعضها. من أمثلة ذلك:

- كل شيء في الكون مرتبط على نحو ما بكل شيء آخر.
- ليس بالإمكان فهم الأجزاء دون وضع الصورة الكلية في الاعتبار.

ووجدت شوي وزملاؤها أن الكوريين أكثر من الأمريكيين في الإيمان بالنظرة الكلية. علاوة على هذا فإنه كلما كان المرء أكثر نزوعا إلى النظرة الكلية - سواء أكان أمريكيا أم كوريا - أحجم عن افتراض أن مادة بذاتها من المعلومات يمكن أن تكون غير ذات صلة.

ولكن اتساع أفق العقل والإيمان بأن العالم معقد يمكن أن تكون لهما مثالبهما أيضا كما سنرى فيما يلي.

تجنب النظرة البعدية Hindsight

يمكن القول إن حادث انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ من الأحداث التاريخية القليلة التي ما كانت لتبدو حتمية في رأي أعداد كبيرة من المؤرخين المحترفين أو غيرهم. إن سقوط الإمبراطورية الرومانية وصعود الرايخ الثالث إلى السلطة ونجاح أمريكا في الوصول قبل الروس إلى القمر، ناهيك عن أحداث أخرى أقل إثارة وخطرا اعتاد المعلقون اعتبارها أحداثا حتمية - وإن كنت أشك أن أحدا لم يكن بوسعه التنبؤ بوقوعها - ونحن حين نحاول «التنبؤ» بالماضي نجد أنفسنا بصدد مشكلتين: (١) الاعتقاد - على الأقل عند النظر إلى الأحداث بعد وقوعها - أنه كان بالإمكان رؤية أن الأحداث ما كان لها أن تأخذ مسارا غير الذي سارت فيه و(٢) حتى التفكير بأنه كان من اليسير على المرء، في واقع الأمر، أن يتنبأ مقدما بأن الأحداث سوف تنتهي إلى ما انتهت إليه.

كيف لنا أن نعرف أن الناس يميلون إلى الوقوع في مثل هذه الأخطار؟ اصطنع عالم النفس المعرفي باروخ فيسكهوف منهجا ذكيا لبيان أن الناس يبالغون في تقديرهم لمدى تنبُّئهم بنتيجة حدث ما، ويكونون أقل دهشة مما



ينبغي إزاء ما يطرأ على الأحداث من تحولات غير عادية. أعطى فيسكهوف لمشاركيه معلومات كافية لتهيئة المسرح لوقوع أحداث تاريخية متباينة. مثال ذلك أن وصف فيسكهوف الموقف في البنغال عام ١٨١٤، عندما حاول البريطانيون إحكام سيطرتهم على الهند. كان عليهم التصدي للغارات التي يشنها الجوركاس من نيبال. وقرر القائد البريطاني أن يتصدى للجوركاس بغزو إقليمهم الجبلي. أمكن توفير تفاصيل الموقف آنذاك وقت الغزو وسأل فيسكهوف بعد ذلك مشاركيه عن النتائج المحتملة التي فكروا فيها. وأعطى لمشاركين آخرين المعلومات نفسها ولكنه قال لهم النتيجة النهائية الفعلية (الوقوع في ورطة). وسأل مشاركيه ما هي النتيجة التي كان يمكن أن يذهب إليها تفكيرهم لو لم يقلها لهم. ووجد فيسكهوف أن مشاركيه إذا كانوا عارفين بالنتيجة فإنهم عادة يبالغون في احتمال القول بها مقدما.

فكرنا أنا وأنيكول شوي أنه ربما يكون أيسر على المرء تجنب مغالطة النظرة البعدية إذا ما اتجه إلى صوغ نماذج سببية محددة وواضحة عن العالم. ذلك أن النماذج المحددة الواضحة ستكشف على الأرجح العوامل التي توحي بأكثر من نتيجة نهائية واحدة، ومن ثم، وبناء على ذلك يمكن أن يكون المرء أقل ميلا إلى الثقة بأن نتيجة بذاتها هي التي ستحدث. علاوة على هذا يمكن للمرء أن يدهش عندما يثبت له أن تنبؤاته أخطاء. والدهشة من شأنها أن تحفز على البحث عن عوامل محتملة وثيقة الصلة، وكذا على مراجعة النموذج الذي يمكن بدوره أن يسفر عن فهم أدق للعالم. وإذا كانت صياغة النماذج، من ناحية أخرى، أقل وضوحا وتحديدا، وإذا فكر المرء بأن عددا كبيرا من العوامل من المحتمل أن تكون ذات صلة بخاتمة معينة، إذن يمكن أن يكون من اليسير حينئذ التفكير في أسباب انتهاء حدث بعينه إلى ما انتهى إليه. عمدنا إلى اختيار هذه الأفكار في سلسلة من التجارب تقارن بين الكوريين والأمريكيين.

قصصنا على المشاركين في إحدى الدراسات قصة شاب طالب بمعهد ديني وكان، كما أكدنا لهم، عطوفا جدا ومتدينا للغاية. وبينما كان في طريقه عبر الحرم الجامعي إلى حيث يلقي عظته التقى رجلا راقدا على الأرض عند أحد المداخل يسأل الناس المساعدة. وقلنا للمشاركين أن الطالب بالمعهد الديني كان متأخرا عن موعد إلقاء العظة.

في الحالة «أ» لم يكن المشاركون يعرفون ماذا فعل طالب المعهد الديني، وطلبنا منهم أن يقولوا لنا عما تصوروا أن من المحتمل أن يحدث من حيث أن يقدم الهدف مساعدة، وما مدى دهشتهم إذا ما تبين لهم أنه لم يساعد السائل. أفاد كل من الكوريين والأمريكيين بأن الاحتمال ٨٠ في المائة أن يقدم الهدف مساعدة ما، وأشاروا إلى أنهم سوف يكونون مذهولين إذا لم يفعل ذلك. وفي الحالة «ب» قلنا للمشاركين أن طالب المعهد الديني ساعد الضحية، وفي الحالة «ج» قلنا للمشاركين أن الهدف لم يساعد الضحية. وسألنا المشاركين في الحالتين «ب، ج» عن ماذا سيكون اعتقادهم لو حدث ما كان محتملا من أن يقدم الطالب مساعدة ـ إذا لم نكن قد قلنا لهم حقيقة ما حدث ـ وأيضا عن مدى دهشتهم إزاء سلوكه الفعلي. مرة أخرى أشار كل من الكوريين والأمريكيين في الحالة «ب» أنهم كانوا سيعتقدون أن تقديم المساعدة محتمل بنسبة ٨٠ في المائة وأفاد الفريقان أنهم لم يستغربوا لأنه قدم مساعدة. ولكن الأمريكيين في الحالة «ج» التي لم يساعد فيها الطالب على غير ما كان متوقعا، أفادوا أيضا أنهم كانوا سيعتقدون أن احتمال تقديم المساعدة بنسبة ٨٠ في المائة وقالوا إن دهشتهم ستكون كبيرة لو لم يفعل ذلك، وعلى العكس من ذلك أفاد الكوريون في الحالة «ج» بأنه كان ظنهم أن الطالب سيقدم مساعدة بنسبة ٥٠ في المائة، وأن دهشتهم قليلة لأنه لم يفعل ذلك. وهكذا أعرب الأمريكيون عن دهشة في موضع لم يبد فيه الكوريون دهشة، وأبدى الكوريون انحيازا واضحا إلى النظرة البعدية للأمور، إذ إن كثيرين منهم أفادوا أنهم ظنوا أنهم عرفوا شيئا وهو ما لم يكن واقعيا. (يصف السيناريو المعروض في تجربتنا تجربة حقيقية أجريناها مع طلاب بمعهد برينستون الديني). وكان مرجحا جدا أن الشباب في هذه الدراسة على استعداد لمساعدة الشخص الجالس يتأوه بجوار المدخل ـ ما لم يكونوا في عجلة من أمرهم وهو ما جعل غالبيتهم يمسك عن تقديم المساعدة.

أشرفنا أنا وشوي على إجراء دراسة أخرى تشير إلى أن أبناء شرق آسيا لم تدهشهم مثل الأمريكيين نتائج غير متوقعة مسبقا. عرضنا الدراستين على مشاركين أمريكيين وكوريين وأعطينا كلاّ فرضا واحدا عن كل دراسة أو فرضين متضادين ـ أحدهما تنبأ بالناتج النهائي الفعلي؛ والثاني الذي تنبأ



بالنقيض. مثال ذلك أنه قيل لبعض المشاركين عن دراسة تدرس فرضا يقضي بأن الواقعية تزيد الصحة العقلية. وقلنا للمشاركين الآخرين أن الفرض الذي تم التفكير فيه - هو وفرض بديل - يرى أن نزعة التفاؤل تعزز الصحة العقلية. وقرأ جميع المشاركين بعد ذلك أن النتائج الفعلية للبحث تشير إلى أن الواقعية تعزز الصحة العقلية. وطلبنا من المشاركين أن يبينوا لنا مدى ما تحمله هذه النتيجة من أسباب للدهشة والاهتمام. أفاد الأمريكيون بأنهم أكثر دهشة - ووجدوا الدراسة مثيرة أكثر للاهتمام - عندما عرضنا عليهم فرضين بينهما تنافس حاد. هذا بينما لم يكن الكوريون عندما عرضنا عليهم فرضين متضادين أكثر دهشة ولا اهتماما عما كانوا عليه عندما عرضنا عليهم فقط فرضا واحدا وهو الذي يتنبأ بالنتيجة الفعلية.

يلاحظ أن أبناء شرق آسيا أقرب يقينا من الغربيين في صدق إيمانهم بأن العالم مكان شديد التعقد، بينما الغربيون دون شك يكشفون عن تفكير عقلي شديد البساطة في ما يصوغونه من نماذج صريحة محددة عن العالم. وإن عدم دهشة أبناء شرق آسيا كما يحدث منهم غالبا ما هو إلا ثمن زهيد يدفعونه مقابل توافقهم مع نطاق واسع من العوامل السببية المحتملة.

ويبدو واضحا جدا من ناحية أخرى أن النماذج البسيطة هي الأفيد - على الأقل في العلم - لأنها هي الأيسر عند إثبات خطئها ومن ثم تحسينها. وجدير بالذكر أن غالبية قضايا أرسطو عن الطبيعة ثبت خطؤها بالبرهان في نهاية الأمر. ولكن أرسطو عرض قضايا عن العالم قابلة للاختبار وهو ما لم يفعله الصينيون: إذ إن الغربيين هم الذين أسسوا المبادئ الفيزيائية الصحيحة. ربما فهم الصينيون مبدأ التأثير عن بعد ولكن أعوزتهم الوسيلة لإثبات صوابه. والمعروف أن الغربيين هم الذين أثبتوا صوابه إذ لم يصدقوه بادئ الأمر، وهم الذين حاولوا فعلا إثبات أن الحركة في جميع صورها من نوع حركة كرة البلياردو، حيث الأشياء تتحرك فقط لتماسها مع شيء آخر.

إن نجاح الغربيين في العلم وميلهم إلى الوقوع في أخطاء معينة خلال التحليل السببي أمران نابعان من المصدر نفسه. إن الحرية لمتابعة وإنجاز الأهداف الفردية من شأنها أن تحث الناس على صوغ نموذج للموقف



بغية إنجاز تلك الأهداف، وهو ما من شأنه بالتالي أن يشجع على صوغ نماذج للأحداث، بتتبع الأحداث في مسار ارتجاعي من النتائج إلى الأسباب المحتملة لها. وطبيعي أن يصبح بالإمكان تصحيح النموذج المصطنع حين يتوافر إمكان منهجي لاختباره على نحو ما هو حادث في العلم. ولكن النماذج التي يصطنعها الغربيون أميل إلى أن تكون محددة بدقة شديدة للشيء أو الموضوع المستهدف وقاصرة عليه وعلى خواصه مع إغفال الدور المحتمل للسياق. وطبيعي حين يكون الهدف صوغ نموذج للحياة اليومية وهي حياة تعج بالطنين والتشوش، فإن الاعتراف بالخطأ سيكون أكثر صعوبة. وكم هو عسير أيضا تصحيح نموذج خاطئ في مثل هذه الحالة. لهذا فإن الغربيين، على الرغم من تاريخهم في التفكير العلمي والعقلية العلمية، عرضة بوجه خاص للوقوع في الخطأ الأساسي في نسبة الأسباب وكذا الوقوع في المبالغة بشأن القدرة على التنبؤ بالسلوك البشري.

وكما سيتضح لنا في الفصل التالي، فإن البساطة الأثيرة لدى الغربيين والتعقد المفترض لدى أبناء شرق آسيا كليهما يشتملان على ما هو أكثر من النهجين هنا وهناك في تناول السببية. إن تفضيلات هؤلاء وأولئك يتسع نطاقها لتشمل سبل تنظيم المعارف على نحو أكثر عمومية.





6 هل العالم مؤلف من أسماء أم أفعال؟

يحكي لنا جورج لويس بورخيس الكاتب الأرجنتيني أنه كانت هناك دائرة معارف صينية قديما تحمل اسم «الموسوعة السماوية للمعارف الخيرية» أو «الموسوعة السماوية للعلم النافع». وتضمنت التصنيف التالي للحيوانات: (أ) الحيوانات المملوكة للإمبراطور، (ب) المحنطة (ج) المروضة المدربة (د) الخنازير الرضيعة (هـ) الحوريات (و) الحيوانات الخيالية، (س) الكلاب الضالة (ص) تلك الواردة في هذا التصنيف (ع) تلك التي ترتعد كأنها مجنونة (ف) الحيوانات المرسومة بفرشاة رقيقة صقيلة جدا مصنوعة من شعر الحمل (ق) حيوانات أخرى (م) تلك التي كسرت زهرية (ي) تلك التي تشبه الطيور عن بعد.

«الألوان الخمسة تعمي عيني المرء
الأنغام الخمسة تصيب أذني المرء بالصمم
المنكهات الخمس تفسد حاسة الذوق»

من كتاب «طاو تي شنج»

إننا حتى إن قلنا إن بورخيس ربما اخترع هذا التصنيف لأغراض في نفسه، إلا أن المؤكد أن الصين القديمة لم تصنف العالم إلى فئات بالطرق نفسها التي اتبعها الإغريق القدامى. ذهب الإغريق القدماء إلى أن الأشياء تدخل ضمن مقولة أو فئة واحدة إذا كان بالإمكان



وصفها بصفات واحدة. ولكن الفيلسوف دونالد مونرو يوضح لنا في حديثه عن الصينيين أن الصفات المشتركة بين الأشياء لا تعني تأسيس فئة عضوية مشتركة بينها. وإنما كان الأمر على العكس من ذلك إذ جرى تصنيف الأشياء في فئة مشتركة لأنهم ظنوا أنها تؤثر بعضها في بعض عن طريق الرنين. مثال ذلك المنظومة الصينية للعمليات الخمس التي تضم فئات الربيع والشرق والخشب والرياح والأخضر، ذلك لأن بعضها يؤثر في البعض الآخر. وإن أي تغير يطرأ على الرياح من شأنه أن يؤثر في كل الفئات الأخرى - في عملية أشبه بالصدى الجمعي دون تماس فيزيقي يتخلل أيا منها». ويلحظ أيضا الفيلسوف دافيد موسار أن التماثل بين الفئات، وليس التماثل بين أفراد الفئة نفسها هو ما كان يهم الصينيين قديما. إنهم ببساطة لم يكونوا معنيين بالعلاقة بين الأفراد أعضاء الفئة: فئة «حصان» مثلا ثم الفئة إجمالا ككل «أحصنة».

ويبدو في الحقيقة أن الصينيين كان لديهم عزوف عن التصنيف الفئوي. هكذا نجد الفيلسوف الطاوي قديما شوانج تسو يقول «... المشكلة... فيما يتعلق بعدد البنود والصفات التي يمكن تحديدها، تقود المرء إلى اتجاه خاطئ. إن تصنيف أو تحديد المعرفة يحطم المعرفة الأعظم ويفتتها». ونقرأ في كتاب «طاو تي شنج» النظرة السوداوية التالية عن الآثار الناجمة عن الاعتماد على الفئات:

الألوان الخمسة تعمي عيني المرء
الأنغام الخمسة تصيب أذني المرء بالصمم
المنكهات الخمس تفسد حاسة الذوق

والملاحظ أن عدم الاهتمام بفئات الموضوعات المشتركة فيما بينها في صفات واحدة يتسق مع المخطط العام الذي التزم به الصينيون قديما في نظرتهم إلى العالم وتعاملهم معه. إذ رأوا أن العالم مؤلف من جواهر - مواد متصلة. لذلك كان ما يعنيهم هو ثنائية الجزء - الكل. ولكن البحث عن القسمات المشتركة بين الموضوعات وتقسيمها إلى فئات على هذا الأساس لم يكن يمثل في نظرهم نشاطا جم الفائدة، ما لم تكن الموضوعات نفسها وحدة التحليل. وحيث إن عالم الإغريق القدامى مؤلف من موضوعات فإن العلاقة الطبيعية في نظرهم هي علاقة الفرد - الفئة. ولقد كان إيمان الإغريق القدامى بأهمية هذه العلاقة يشكل محور إيمانهم بإمكان الاستدلالات الاستقرائية الدقيقة: إذ إن معرفة أن موضوعا ما ينتمي لمقولة - فئة ما ذات خاصية مميزة يعني إن بوسع المرء أن



يفترض أن موضوعات أخرى تنتمي إلى الفئة لها أيضا الخاصية نفسها. فإذا قلنا إن إحدى الثدييات لها كبد فإن لنا أن نقول إن جميع الثدييات كذلك ونكون على صواب. وطبيعي أن التركيز على تنظيم المعرفة على أساس واحد ـ كثير، فرد ـ فئة من شأنه أن يشجع الاستقراء من قضية واحدة مفردة، ولكن التمثيل المعرفي على أساس الجزء ـ الكل لا يفيد في ذلك.

الفئات مقابل العلاقات في الفكر الحديث

مرة أخرى نحن إزاء تراثين فكريين مختلفين أشد الاختلاف في اليونان القديمة والصين القديمة. ومرة أخرى لنا أن نتساءل عما إذا كانت العادات الذهنية للفلاسفة القدماء تشبه الإدراك والتفكير عند عامة الناس اليوم. لنا أن نتوقع تأسيسا على الشواهد والدلائل التاريخية بشأن الفوارق المعرفية وعلى نظريتنا عن الأصول الاجتماعية لها بأن الغربيين المعاصرين (أ) لديهم ميل أكثر من أبناء شرق آسيا إلى تصنيف الموضوعات إلى فئات، (ب) يجدون من الأيسر لهم تعلم فئات ـ مقولات جديدة عن طريق تطبيق قواعد عن الخواص على الحالات الفردية، (ج) الإكثار من الاعتماد على الاستقراء على أساس المقولات ـ الفئات بمعنى التعميم انطلاقا من الحالات الجزئية للفئة، وصولا إلى حالات أخرى أو إلى الفئة ككل. ولنا أن نتوقع أيضا أن أبناء شرق آسيا تأسيسا على إيمانهم واقتناعهم بالصلة الوثيقة الممكنة بين كل حادثة وحادثة أخرى ينظمون العالم أكثر مما يفعل الغربيون في ضوء العلاقات المدركة وأوجه التماثل فيما بين الظواهر.

لنلق نظرة على الموضوعات المصورة في الرسم المبين في الصفحة التالية. إذا كان للقارئ أن يضع اثنين معا فأيهما؟ لماذا يرى أن كل منهما ينتمي إلى الآخر؟

إذا كنت غربيًا فالأرجح أن ترى أن الدجاجة والبقرة تنتميان كل منهما إلى الأخرى. وعرض عالم نفس النمو ليانج ـ هوانج شيو صورة ثلاثية العناصر مثل هذه الموضحة في الرسم على أطفال أمريكيين وصينيين. ووجد شيو أن الأطفال الأمريكيين فضلوا تجميع الموضوعات لأنها تنتمي أو تندرج تحت فئة «التصنيفية للحيوانات». أي أن الشرط التصنيفي يمكن أن ينطبق على أي منهما وفضل الأطفال الصينيون تجميع الموضوعات على أساس العلاقات. لذلك كان الأرجح عندهم أن يقولوا البقرة والعشب في الصورة ينتميان كل منهما إلى الآخر، إذ إن «البقرة تأكل العشب».

وحصلنا أنا ولي - جون جي وجيونج جانج على نتائج مماثلة من مقارنة بين طلاب من الولايات المتحدة الأمريكية وطلاب من الصين الأم وتايوان. واستخدمنا في هذا الكلمات بدلا من الصور. عرضنا على المشاركين مجموعات مؤلفة من ثلاث كلمات (مثل باندا وقرد وموز) وطلبنا منهم بيان أي اثنين من الثلاثة أكثر تقاربا. كشف المشاركون الأمريكيون عن تفضيل واضح للتجميع على أساس الانتماء إلى فئة مشتركة: حيوان الباندا والقرد إذ يندرجان في مقولة - فئة الحيوان. وكشف المشاركون الصينيون عن تفضيل واضح للتجميع على أساس العلاقات الموضوعية (مثل قرد وموز) وبرروا إجابتهم في ضوء العلاقات. القرد يأكل الموز.

دجاجة
أ

عشب
ب

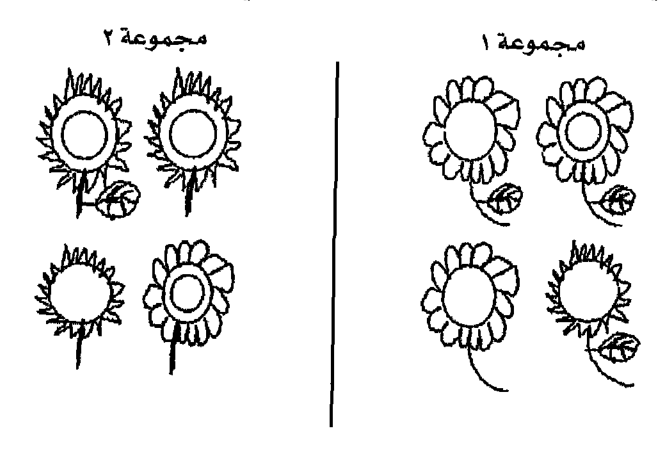
بقرة

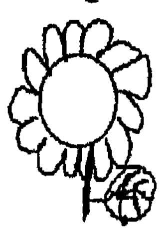
أيهما يلائم هذه؟ «أ» أم «ب»
مثال لقياس أفضلية تقديرية للتجميع على أساس الفئات أم العلاقات



إذا كانت السبيل الطبيعية لتنظيم العالم عند الغربيين هي تنظيمه في ضوء مقولات - فئات والقواعد المحددة لها، إذن لنا أن نتوقع أن يكون إدراك التماثلات بين الأشياء عند الغربيين متأثرا تأثرا كبيرا بالدرجة التي يمكن بها تصنيف الموضوعات إلى فئات عن طريق تطبيق مجموعة من القواعد. ولكن إذا كانت الفئات أقل بروزا ووضوحا لإدراك أبناء شرق آسيا، إذن لنا أن نتوقع أن إدراكهم للتماثل سينبني أكثر على أساس التشابه الفصيلي بين الموضوعات.

ورغبة منا في اختبار هذه الإمكانية عمدنا أنا وأرا نورنزايان وإدوارد إي. سميث وبيوم جون كيم إلى الآتي. أعطينا أشكالا تخطيطية عامة كما هو موضح في الرسم التالي إلى مشاركين كوريين وأمريكيين أوروبيين وأمريكيين آسيويين. ويتألف كل عرض من موضوع في أسفل اللوحة ومجموعتين من الموضوعات المبينة أعلى اللوحة. وحددنا مهمة المشاركين بأن يقولوا فقط أي مجموعة من الموضوعات يبدو معها الموضوع الهدف أكثر تماثلا. ولعل القارئ يريد أن يتخذ حكما بشأن الموضوعات المبينة في اللوحة قبل القراءة عنها.





مثال لقياس بند ما سواء أكانت أحكام التماثل مبنية على التشابه التفصيلي أم على القواعد



ذهب غالبية الكوريين إلى الظن بأن الموضوع الهدف أكثر شبها بالمجموعة التي على اليمين (١) بينما اعتقد أغلب الأمريكيين الأوروبيين أن الموضوع أقرب شبها بالمجموعة (٢) على اليسار. والملاحظ أن الموضوع الهدف يحمل شبها فصيليا واضحا بالمجموعة التي على اليمين (١) لذا من اليسير علينا أن نتبين لماذا رأي الكوريون الموضوع أكثر شبها بتلك المجموعة. وواقع الأمر أنهم فعلوا هذا بنسبة ٦٠ في المائة في المرة. ولكن ثمة قاعدة بسيطة غير متغيرة مشتركة مع المجموعة (٢) على اليسار. والقاعدة هي «أن لها جذعا مستقيما» (عكس المنحني). وهذه هي تحديدا القاعدة التي اكتشفها الأمريكيون الأوروبيون ووضح أن ٦٧ في المائة في كل مرة وجدوا أن الموضوع الهدف أكثر شبها بالمجموعة من هذه الزاوية التي تشكل القاعدة الأساسية للتقسيم الفئوي. واحتلت أحكام الأمريكيين الآسيويين مكانا وسطا، ولكن أقرب شبها بأحكام الكوريين.

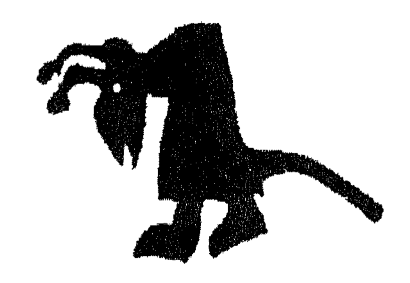
يجري أحيانا تعلم المقولات ـ الفئات عن طريق تطبيق القواعد على القسمات المميزة. نحن نقول إن الأرانب حيوانات ثديية لأننا تعلمنا قاعدة هي أن الحيوانات التي ترضع صغارها حيوانات ثديية. (وهذا صحيح حسب تحديد معنى الفئات من حيث الشكل. ولكن الملاحظ عمليا أن غالبية الناس ربما يتعلمون معرفة الثدييات على أساس وصفها ظاهريا بهذه الصفة: «هذا الأرنب حيوان ثديي» و«هذا الأسد حيوان ثديي». ومن هنا فإن الفئة العامة السائدة والتي يتعلمها الجمهور إنما تنبع من الخصائص المشتركة التي نشاهدها ـ جسمه مغطى بالفرو، له أربعة أقدام... الخ).

ويبدو أن النمذجة الصريحة المحددة أو صياغة القاعدة خاصية مميزة للتفسير السببي عند الغربيين أكثر مما هي مميزة عند أبناء شرق آسيا. وإذا كان استخدام أبناء شرق آسيا للقواعد والقوانين لفهم العالم أقل احتمالا، وإذا كان استخدامهم أيضا للمقولات ـ الفئات أقل احتمالا كذلك فإنهم ربما يجدون من الصعب عليهم استخدام الفئات، وربما يجدون عسيرا عليهم تعلم الفئات عن طريق تطبيق قواعد وقوانين صريحة ومحددة على الموضوعات. وأراد أرا نورنزايان وزملاؤه اختبار هذا الاحتمال. لذلك عرضوا أشكالا كارتونية ملونة تشبه الأشكال المعروضة بالأسود والأبيض في الرسم التالي على طلاب من أبناء شرق آسيا وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين في جامعة ميتشيجان. وقلنا للمشاركين إنهم سيتعلمون كيف يصنفون الحيوانات على أساس أنها وافدة من كوكب الزهرة أو كوكب زحل.



مرحلة التدريب

معروف من الزهرة



معروف من زحل



مرحلة الاختبار: نظير موجب

الزهرة



مرحلة الاختبار: نظير سلبي

زحل



مثال لحيوانات كارتونية مستخدمة لدراسة مدى سهولة تعلم التصنيفات الفئوية على أساس من القواعد والقوانين



قلنا للمشاركين إننا نعتبر الحيوان وافدا من الزهرة إذا توافرت له ثلاث قسمات من بين خمس رئيسية: ذيل معقوص، وحوافر ورقبة طويلة وفم وأذنين طويلتين مثل الإيريال. ويعتبر الحيوان من كوكب زحل إذا لم تكن له هذه القسمات. والملاحظ أن الحيوان في يمين أعلى الصورة (ويبدو في الشكل المعروض على المشاركين ذا لون أزرق) تنطبق عليه معايير الحيوان الوافد من الزهرة. والحيوان في يسار أعلى الصورة (ويبدو للمشاركين بلون أحمر) ليست به هذه القسمات ويوضع في خانة أو فئة زحل. وبعد أن تعلم المشاركون كيف يصنفون الحيوانات بطريقة صحيحة اختبرنا مدى تحكمهم في هذه الفئات وذلك بأن عرضنا عليهم حيوانات جديدة لنرى مدى السرعة والدقة في تصنيفهم لها. واشتملت الحيوانات الجديدة على نمطين يشبهان الأنماط السابق عرضها. بعض هذه الحيوانات كانت «نظائر موجبة»: تشبه حيوانا رآه المشاركون من قبل أثناء محاولات التدريب، وتنتمي إلى الفئة نفسها من حيث القواعد الخاصة بقسماتها. وحيوانات أخرى «نظائر سلبية»: تشبه حيوانا رأوه من قبل ولكنها، طبقا للقواعد، تنتمي إلى فئة أخرى مختلفة عما رأوه في مرحلة التدريب. ويلاحظ أن الحيوان في أسفل يمين الصورة يعتبر نظيرا موجبا للحيوان أعلى يمين الصورة: إذ يشبه الحيوان الذي جرى تصنيفه على أنه من كوكب الزهرة، وهذا هو ما توضحه القواعد أيضا. ولكن الحيوان أسفل يمين الصورة نظير سلبي: إذ يشبه حيوان كوكب الزهرة ولكن القواعد تقول غير ذلك.

استغرق المشاركون من أبناء شرق آسيا وقتا أطول من الأمريكيين الأوروبيين أو الأمريكيين الآسيويين لإصدار أحكامهم بشأن ما إذا كان الحيوان من الزهرة أم من زحل. وتساوت الفرق الثلاثة من حيث السرعة والدقة بالنسبة إلى النظائر الموجبة وهي النظائر التي تساعد فيها كل من الذاكرة التي تعي المثل الذي رأوه في السابق، وكذا التطبيقات الصائبة للقواعد في تحديد الفئة من أجل الوصول إلى إجابة صحيحة. ولكن النظائر السالبة فهي على العكس إذ لا يمكن تصنيفها تصنيفا صحيحا إلا إذا كان المشاركون يتذكرون جيدا القواعد ويمكنهم تطبيقها على نحو صحيح، ولهذا كانت أخطاء المشاركين من أبناء شرق آسيا في التصنيف ضعف أخطاء كل من الأمريكيين الأوروبيين أو الأمريكيين الآسيويين. ويبدو أن التصنيف الفئوي على أساس القواعد ليس يسيرا على أبناء شرق آسيا بقدر ما هو يسير على الغربيين.



أي من النتيجتين المذكورتين فيما بعد، وكلتاهما تنتهي بعبارة «دم الأرانب يحتوي على إنزيم كيو» تبدو أكثر إقناعا لك؟ ولماذا؟

(١)

دم الأسود يحتوي على أنزيم كيو
دم النمور يحتوي على أنزيم كيو

دم الأرانب يحتوي على أنزيم كيو

(٢)

دم الأسود يحتوي على أنزيم كيو
دم الزراف يحتوي على أنزيم كيو

دم الأرانب يحتوي على أنزيم كيو

غالبية الغربيين الذين سألناهم هذا النوع من الأسئلة يقولون إن النتيجة ٢ أفضل. ويعطون سببا لذلك يتمثل في صورة نتيجة قائمة على «التنوع» أو «الشمول». ذلك أن الأسود والنمور نوعان متشابهان من نواح كثيرة وبذا فإنهما لا يشملان كل أعضاء فئة الثدييات التي ينتمي إليها الأرنب. ومن ثم فإن جماعتي الأسود والزراف تمثلان طابعا أفضل شمولا لفئة الثدييات، لأنهما مختلفتان إحداهما عن الأخرى. والآن لنفكر في النتيجتين التاليتين وكلتاهما تنتهي بعبارة «يحتوي دم الثدييات على أنزيم كيو». أيهما تبدو أكثر إقناعا لك؟

١

يحتوي دم الأسود على أنزيم كيو
يحتوي دم النمور على أنزيم كيو

يحتوي دم الثدييات على أنزيم كيو

٢

يحتوي دم الأسود على أنزيم كيو
يحتوي دم الزراف على أنزيم كيو

يحتوي دم الثدييات على أنزيم كيو

مرة أخرى يقول الغربيون النتيجة الثانية أكثر إقناعا ويدللون على هذا بأن النتيجة الثانية تعبر عن شمول لفئة الثدييات أفضل من النتيجة الأولى.

عرضنا أنا وأنكيول شوي وإدوارد إي. سميث مشكلات كهذه على طلاب جامعيين كوريين وأمريكيين. لوحظ أن الكوريين، دون الأمريكيين، أميل إلى تفضيل النتيجة الثانية عند ذكر الفئة ضمن النتيجة. ذلك أن الفئة الثديية لا تبدو في نظر الكوريين بارزة ما لم يَجْرِ التأكيد عليها بالإشارة إليها



تحديدا وبشكل عملي. ونتيجة لهذا يعتبر مبدأ التنوع أهم لاستدلالاتهم عندما نذكرهم صراحة وتحديدا أن الموضوعات التي يستهدفها السؤال هي ثدييات. وثمة نتيجة مرجحة بالنسبة إلى الفئات الأقل بروزا في نظر أبناء شرق آسيا، وهي أنها لا تُذكي عند أبناء شرق آسيا فعالية الاستدلالات الاستقرائية بنفس القدر الذي تحدثه لدى الغربيين.

أن ينشأ المرء في عالم من الموضوعات أم العلاقات

كيف يتسنى لأبناء شرق آسيا اليوم أن يكون لديهم اهتمام قليل بالفئات، ويجدوا صعوبة في تعلم فئات جديدة عن طريق تطبيق القواعد بشأن الخصائص، ويستخدموها تلقائيا استخداما محدودا جدا لأغراض الاستقراء؟ لماذا يميلون أكثر كثيرا من الغربيين إلى الاهتمام بالعلاقات في تنظيمهم للموضوعات؟ يقينا ليس السبب فقط هو أن الفلاسفة الصينيين قديما استخدموا المقولات - الفئات بشكل محدود جدا، وكانوا مهتمين أكثر بالعلاقات بين الجزء - الكل وبالتشابهات الموضوعية أكثر من الاهتمام بالتصنيفات على أساس العضو - المقولة أو الفئة. ونحن نشك في القول بأن اهتمامات الفلاسفة أثرت في الأحكام الخاصة بموضوعات الحياة اليومية حتى إن كانوا فلاسفة معاصرين. ومن ثم إذا كانت العلاقات دون المقولات - الفئات هي التي لها الأهمية نسبيا عند أبناء شرق آسيا اليوم فلا بد أن هناك عوامل لا تزال تعمل وتؤثر في التنشئة الاجتماعية للأطفال من شأنها أن تدعم مثل هذه الأساليب المختلفة في الإدراك وفي التفكير العقلي. ولنحاول معا، قبل البحث عن هذه العوامل، أن نتأمل بعض الفوارق المهمة بين المقولات - الفئات وبين العلاقات.

الفئات - المقولات يشار إليها عادة بالأسماء. ويبدو واضحا أن الأسماء سيكون تعلمها أيسر من الأفعال بالنسبة إلى الأطفال. إن كل ما عليك أن تفعله لتعرف أن الحيوان الذي تراه الآن هو «دب» أن تلحظ قسماته المميزة - حجما ضخما، أنيابا ومخالب كبيرة، فروا كثا، مظهرا مثيرا مفزعا - وهنا يمكنك أن تختزن هذا الموضوع في ذاكرتك تحت هذا الاسم والوصف. ويغدو هذا الوصف ميسورا لتطبيقه على أي موضوع آخر له هذه الخاصيات.

ولكن العلاقات، من ناحية أخرى، تشتمل صراحة أو ضمنا على فعل. إن تعلم معنى فعل متعد يتضمن عادة ملاحظة موضوعين ونوعا من النشاط يربط بين الفعلين على نحو ما. «أن ترمي» يعني أن تستخدم ذراعك وقبضة يدك لنقل شيء ما عبر الهواء إلى موقع آخر جديد. وإن مجرد الإشارة إلى الفعل لا يضمن لامرئ ما أن يعرف ما الذي تشير إليه.

ونظرا إلى غموض الأفعال نسبيا يبدو من العسير تذكرها. كذلك الأفعال عرضة لتقلب معناها أكثر من الأسماء حين يتواصل شخص مع آخر، أو عندما يفسر ما قاله آخر. وتحديد معنى الأفعال أصعب من الأسماء عند ترجمتها من لغة إلى أخرى. أكثر من هذا أن معنى الأفعال، وغيرها من المصطلحات التي تصف العلاقات، تختلف أكثر مما تختلف الأسماء في اللغات المختلفة. ويقول عالم النفس المعرفي ديدر جنتنر «الأفعال تتصف بقدر عال من التفاعلية بينما الأسماء أميل إلى الركود وفقدان الحركة».

إذا ما سلمنا بهذه الفوارق بين الأسماء والأفعال لن ندهش كثيرا حين نعرف أن جنتنر اكتشف أن الأطفال يتعلمون الأسماء أسرع كثيرا من تعلمهم للأفعال. والحقيقة أن الأطفال الذين يحبون يمكنهم تعلم الأسماء بمعدل اسمين في اليوم الواحد. وهذا معدل أسرع كثيرا من معدل تعلم الأفعال.

وذهب جنتنر إلى الظن على أساس معقول تماما، أن الميزة الكبرى للأسماء ميزة عالمية كلية شاملة. ولكنها تنتهي إلى غير ذلك. إذ اكتشفت عالمة نفس النمو تويلا تارديف وآخرون أن أطفال شرق آسيا يتعلمون الأفعال بالمعدل نفسه لتعلم الأسماء، وبسرعة أكبر كثيرا من سرعة تعلمهم الأسماء مع بيان بعض التعريفات بشأن ما يعتبر اسما. وثمة عوامل عديدة يمكن أن تشكل أساسا لهذا الاختلاف الواضح.

أولا: الأفعال أكثر وضوحا وبروزا في لغات شرق آسيا منها في اللغة الإنجليزية ولغات أوروبية أخرى كثيرة. وتنزع الأفعال في اللغات الصينية واليابانية والكورية إلى أن تأتي إما في أول الجمل أو في آخرها، وكلاهما موقعان واضحان نسبيا. ونلحظ في اللغة الإنجليزية أن الفعل عادة يكون مختفيا وسط الجملة.

THE ... ALEXANDRIN
مكتبة الاسكندرية

ثانيا: لعل القارئ يتذكر ما ذكرته في الفصل الثالث عن الأب الذي سمعته يختبر طفله بشأن صفات البنطلون. إن الآباء في الغرب أسرى هاجس الأسماء، يشيرون بأصابعهم لتحديد الأشياء إلى أطفالهم، ويسمونها لهم، ويحكون لهم صفاتها. وكم يبدو غريبا في نظر الغربيين أن أبناء شرق آسيا لا يعبأون كثيرا بتسمية الموضوع باعتبار الاسم جزءا من مهمة أحد الأبوين عند وصف شيء ما. وأذكر أن عالمتي علم نفس النمو آن فيرنالد وهيرومي موريكاوا دخلتا بيوتا يابانية وأمريكية بها أطفال رضع تتراوح أعمارهم بين ستة شهور واثني عشر شهرا أو تسعة عشر شهرا. وطلبتا من الأمهات إبعاد لعب الأطفال عن مكان اللعب وقدمتا بدلا منها لُعبا عديدة أحضرتاها معهما: كلبا محشوا وخنزيرا محشوا وسيارة وشاحنة. وطلبتا من الأمهات أن يلعبن باللعب مع أطفالهن كما يحدث بينهم عادة. واكتشفتا فوارق كثيرة في سلوك الأمهات حتى في سلوكهن مع صغارهن. استخدمت الأمهات الأمريكيات صفات وأسماء الأشياء ضعف استخدام الأمهات اليابانيات لها. وانهمكت الأمهات اليابانيات في تعليم معايير الأدب ضعف اهتمام الأمهات الأمريكيات بذلك (التقمص الوجداني، والتحيات على سبيل المثال). ولوحظ أن ثرثرة الأم الأمريكية مع طفلها تجري على النحو التالي: «هذه سيارة. هل ترى السيارة؟ هل تحبها؟ السيارة لها عجلات جميلة». ولكن الأم اليابانية يمكن أن تقول: «هاي، هذه دوك دوك. أعطيها لك. أعطها الآن لي. نعم. شكرا». ويتعلم الأطفال الأمريكيون أن العالم مكان به موضوعات وأشياء، ويتعلم الأطفال اليابانيون أن العالم في الغالب الأعم هو علاقات.

ثالثا: نعرف أن تسمية الموضوعات التي تشترك معا في مجموعة من الخاصيات تسفر عن تعلم فئة تتشكل من موضوعات تشترك فيما بينها من قسمات. كذلك فإن تسمية الموضوعات التي بينها قسمات مشتركة يحفز إلى الانتباه للقسمات التي تسمح لهم بتشكيل فئات جديدة مبنية على أساس مجموعات متماثلة من الخاصيات. وحدث أن عالمة نفس النمو ليندا سميث وزملاءها عهدوا، بشكل عشوائي إلى أطفال في الشهر السابع عشر من العمر بإحدى مهمتين إما حالة ضابطة control condition أو حالة تستمر لمدة تسعة أسابيع يلعبون ويسمعون خلالها مرات ومرات أسماء لفئات موضوعات غير مألوفة ومحددة بالشكل: مثال ذلك «كأس». أدى هذا إلى أن تعلم

الأطفال الذين يحبون على الأرض الاهتمام بالشكل وصوغ فئات من موضوعات - حتى تلك التي رأوها خارج الوضع التجريبي - يمكن تجميعها معا على أساس بعض القسمات المحددة لها. وتمثلت النتيجة في أن كشف الأطفال بعد تدريبهم عن زيادة درامية في تحصيل أسماء موضوعات جديدة على مدى مرحلة الدراسة.

رابعا: يلاحظ أن الأسماء العامة (أي أسماء الفئات) في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية تتميز غالبا ببناء نحوي خاص. إذ عندما يتحول النقاش إلى طائر مائي يمكنك القول «بطة» أو «البطة» أو «البط» أو «بط». وتمثل الكلمة الأخيرة كلمة عامة، وهذا ما يقوله التركيب النحوي للجملة. وإنه لأمر لازم عادة الإبانة عما إذا كنت تتكلم عن موضوع أم عن فئة من الموضوعات هذا على الرغم من أن السياق قد يؤدي هذه المهمة أحيانا. ولكن الملاحظ في اللغة الصينية وفي غيرها من اللغات ذات الأصول الصينية أن المعايير السياقية والبرجماتية قد تكون هي الأنواع الوحيدة من المعايير التي يتعين على السامع متابعتها والبناء عليها. إن وجود بطة تخوض ماء بحيرة لتصل إلى الطعام، على سبيل المثال، قد يفيد معنى «البطة» التي يتحدث عنها المرء وليست «بطة» أو «البط» أو «بط». ودرست عالمتا نفس النمو سوزان جيلمان وتويلا تارديف أمهات يتكلمن الإنجليزية وأمهات يتكلمن لغة صينية ولحظتا أن الكلمات العامة التي ينطق بها في عدد من السياقات أكثر شيوعا لدى الأمهات اللاتي يتكلمن الإنجليزية.

أخيرا هناك شواهد وأدلة مباشرة على أن أطفال شرق آسيا يتعلمون كيف يصنفون الموضوعات فئويا في مرحلة متأخرة عن أطفال الغرب ودرس عالما نفس النمو واللسانيات أليسون جوبنيك وسونجا تشوي أطفالا يتحدثون الكورية والفرنسية والإنجليزية ابتداء من عمر سنة أو سنة ونصف السنة. واكتشفا أن مهارات تسمية الأشياء وتصنيفها إلى فئات تتطور لدى المتحدثين بالكورية في فترة متأخرة عن المتحدثين بالإنجليزية والفرنسية. ودرس الباحثان أحكام الوسائل - الغايات (من مثل اكتشف كيف تأخذ هذه الأشياء من داخل الحاوية) والتصنيف الفئوي الذي درسوه عن طريق عرض أربعة موضوعات من نوع واحد على الأطفال، وعرض أربعة من نوع آخر عليهم من مثل أربعة مربعات صفراء مستوية السطح وأربعة أشكال بشرية صغيرة.



وطلبا من الأطفال ترتيبها في شكل محدد بحيث تبدو ذات معنى ودلالة. لوحظ أن صغار الأطفال المتحدثين بالإنجليزية أو الفرنسية تحكموا في أداء مهام الغاية ـ الوسيلة ومهام التصنيف الفئوي في المرحلة العمرية نفسها. لكن الأطفال الكوريين تعلموا التصنيف متأخرين ثلاثة أشهر عن تعلمهم قدرات الغاية ـ الوسيلة.

الاستعدادات والثبات والفئات

كان الإغريق القدامى مغرمين بالمقولات ـ الفئات واستخدموها أساسا لاكتشاف القواعد والقوانين وتطبيقها. وكانوا كذلك يؤمنون بالثبات وفهموا كلا من العالمين الطبيعي والاجتماعي في ضوء صفات أو استعدادات ثابتة. ولم يكن من قبيل المصادفة والتوافق العرضي، ولا هي حقائق غير ذات صلة أن الصينيين القدامى كانوا غير معنيين بالفئات، ومن ثم آمنوا بالتغير أو التحول وفهموا سلوك كل من الموضوعات الفيزيائية والاجتماعية باعتبار أنها نتيجة لتفاعل الموضوع مع مجال القوى المحيطة به.

وإذا قلنا إن العالم مكان ثابت مستقر إذن فمن المهم أن نحاول استحداث قواعد وقوانين لفهمه ولصقل المقولات ـ الفئات التي تنطبق عليها القواعد والقوانين، ويلاحظ أن الكثير من المقولات ـ الفئات المستخدمة لفهم العالم تشير إلى صفات مفترضة للموضوع: الصلابة، البياض، الرحمة، الخنوع. وطبيعي أن أبناء شرق آسيا يستخدمون مثل هذه الصفات أيضا، ولكنهم أقل ميلا إلى تجريدها من موضوعات بذاتها. هناك بياض الحصان أو بياض الثلج في فلسفة الصين قديما ولكن ليس البياض كمفهوم مجرد يمكن التحدث عنه مستقلا عن شيء ويمكن تطبيقه على أي شيء آخر تقريبا. والموضوعات في التراث الغربي لها جوهر مؤلف من مزيج متناظر من الصفات أو الكيفيات المجردة. وتهيئ هذه الجواهر إمكان التنبؤ عن ثقة بالسلوك المستقل عن السياق. والملاحظ في تراث شرق آسيا أن الموضوعات لها خاصيات عيانية محسوسة تتفاعل مع الظروف والملابسات البيئية لإنتاج السلوك ولم يكن هناك أي اهتمام على الإطلاق في مناقشة الخاصيات مجردة كأن لها حقيقة واقعة غير كونها خاصية أو سمة لموضوع بذاته.

وأهم من ذلك أن استعدادات الموضوعات ليست بالضرورة شيئا ثابتا في نظر أبناء شرق آسيا. والملاحظ في الغرب أن الطفل ضعيف الأداء في الرياضيات يمكن اعتبار أن قدرته في الرياضيات ضعيفة أو ربما «معوق تعليميا». ولكن مثل هذا الطفل في شرق آسيا يعتبرونه في حاجة إلى العمل بجدية أكثر أو ربما أن معلمه يتعين عليه أن يبذل معه جهدا أكبر، أو ربما يلزم تغيير أسلوب التعليم.

إن هاجس الاهتمام بالمقولات ـ الفئات من نوع إما / أو يستحوذ على تاريخ الفكر الغربي كله. وتطفو على السطح تقسيمات ثنائية كل قرن وتمثل أساسا لجدل عقيم لا طائل منه: مثال ذلك ثنائية «العقل ـ الجسد» والسجالات الفكرية الدائرة حولها ونلاحظ في هذه السجالات أنصار الثنائية يأخذون جانبا يدور حول موضوع هل من الأفضل لنا لفهم سلوك بعينه أن نفهمه باعتباره ناتجا عن العقل في استقلال عن أي تجسيد بيولوجي. أو أن ننظر إليه باعتباره رد فعل فيزيقيا محضا لا تتوسطه عمليات ذهنية. كذلك السجال الدائر بشأن موضوع «الطبيعة أم التنشئة» فهو صورة أخرى لهذا الضرب من الجدل الذي كثيرا ما ولد حرارة من دون ضوء ينير. وسبق أن أوضح عالم البيولوجيا التطورية ريتشارد ألكسندر أن كل مظاهر السلوك تقريبا المميزة لمرتبة الثدييات العليا إنما تحددها كل من الطبيعة والتنشئة. والحقيقة أن التقسيم الثنائي «العاطفة ـ العقل» أخفى أكثر مما كشف الحقيقة. وقال دافيد هيوم في هذا الصدد «العقل عبد للعاطفة وينبغي أن يظل كذلك»؛ ويفيد التمايز بين الاثنين لأغراض التحليل فقط. وإن إصرار الغربيين الدائم، كما رأى البعض، على التمييز بين «بشري» و«حيواني» جعل من الصعوبة بمكان قبول مفهوم التطور. وهكذا نجد أن الروح في غالبية منظومات الفكر في شرق آسيا يمكن أن تأخذ شكل أي حيوان. ولم يصادف التطور ملاحاة وجدالا على الإطلاق في شرق آسيا ذلك لأنه لم يعرف افتراضا يقضي بأن البشر يعتلون قمة سلسلة الكون، وأنهم بشكل أو بآخر فقدوا طبيعة الحيوانية.

وساد اعتقاد على مدى التاريخ الفكري الغربي يفيد أن بالإمكان أن تحدد الشروط الضرورية والكافية لأي مقولة ـ فئة. إن المربع موضوع ذو بعدين له أربعة أضلع متساوية الطول وأربع زوايا قائمة. ومن ثم لا شيء تعوزه هذه

الخاصيات يمكن أن يكون مربعا، وأي شيء له هذه الخاصيات هو ـ تحديدا وحسب التعريف ـ مربع. وجدير بالذكر أن لودفيج فتجنشتين في كتابه «بحوث فلسفية» حطم كل مشروع الضرورة والكفاية على الأرض في الغرب. كشف فتجنشتين عن اقتناعه (وربما فزعه، وهو ربما أهم الفلاسفة التحليليين في الغرب) أن إثبات الشروط الضرورية والكافية لأي مقولة معقدة أو مهمة، من مثل «لعبة» أو «حكومة» أو «مرض» لن يكون ممكنا أبدا. إن شيئا ما يمكن أن يكون لعبة حتى وإن لم يكن لهوا، حتى وإن لعبها المرء وحده، وحتى إذا كان الهدف الرئيسي منها هو كسب المال. إن شيئا ما ليس بالضرورة لعبة، حتى إن كان لهوا ودعابة أو نشاطا غير منتج، شاملا عددا من الناس في تفاعل ممتع. ولكن العظة التي يقول بها فتجنشتين لم يكن ليحتاج إليها شرق آسيا. إنهم لن ينظروا هناك في دهشة إلى القول بأن المقولات ـ الفئات المعقدة لا يمكن دائما وأبدا تحديدها على أساس من شروط ضرورية وكافية.

هل اللغة هي المسؤولة عن هذا الدور؟

إذا سلمنا بالفوارق الموضوعية في استعمال اللغة بين أبناء شرق آسيا والغربيين فهل يصبح بالإمكان القول إن اللغة وحدها هي الدافعة لاختلافات الميول في تنظيم العالم في ضوء إما الأفعال أو الأسماء؟ وهل الاكتشافات بشأن تنظيم المعرفة مردها فقط إلى حقيقة أن اللغات الغربية تشجع استخدام الأسماء الذي يفضي إلى تصنيف الموضوعات إلى فئات، وأن لغات شرق آسيا تشجع استخدام الأفعال مما يؤدي إلى التأكيد على العلاقات؟ أو لنسأل سؤالا أكثر عمومية كم من الاختلافات المعرفية الموثقة في هذا الكتاب هي نتيجة للغة؟

هناك في الحقيقة عدد من التوازيات بين أنواع الفوارق المعرفية التي ناقشناها في هذا الكتاب والفوارق بين اللغات الهند ـ أوروبية واللغات الشرق آسيوية. وهذه التوازيات مثيرة بشكل خاص للاهتمام نظرا إلى أن لغات شرق آسيا، وبخاصة اللغتان اليابانية والصينية، هي ذاتها مختلفة بعضها عن بعض اختلافا كبيرا من نواح كثيرة. بيد أنها، مع هذا، مشتركة مع بعضها في صفات كثيرة تمايزها عن اللغات الهند ـ أوروبية.



علاوة على الممارسات التي أسلفنا مناقشتها - من مثل التحديد بالإشارة والتسمية، وموضع الأفعال في الجمل، ووصف أسماء بأنها عامة وما إلى ذلك - هناك وسائل عديدة تتحدد بها استعمالات اللغة على أساس الفوارق في استعمال الفئة - المقولة.

إن اهتمام الغرب بالمقولات - الفئات يتجلى واضحا في اللغة. إن العبارات الاسمية التي تشتمل على «اسم عام» أكثر شيوعا لدى المتكلمين بالإنجليزية عنها لدى المتحدثين باللغة الصينية. ولعل سبب ذلك أن اللغات الغربية تبرز بطريقة أكثر صراحة وتحديدا ما إذا كان التفسير العام لمنطوق ما هو التفسير الصحيح. وواقع الأمر أننا لا نجد في اللغة الصينية وسيلة تكشف لنا عن الفارق بين جملة «تأكل السناجب البندق» وجملة «هذا السنجاب يأكل حبات بندق». ولكن السياق وحده هو الذي يفيد هذه المعلومة. ويعرف الناطقون بالإنجليزية من المحددات اللسانية إذا ما كنا نتحدث عن فئة أم عن فرد.

وتشجع اللغة اليونانية وغيرها من اللغات الهند - أوروبية تحويل خاصيات الموضوعات إلى موضوعات واقعية بحكم ذاتها - وذلك لمجرد إضافة اللاحقة ness أو ما يعادلها. ولحظ الفيلسوف دافيد موسر أن هذه الممارسة يمكن أن تعزز التفكير في الخاصيات باعتبارها كيانات مجردة والتي يمكن أن تؤدي دور التفسيرات النظرية. ورأى أفلاطون أن هذه المجردات لها واقعية أكبر من خاصيات الموضوعات في العالم الفيزيقي. ولم تعرف الفلسفة الصينية أبدا هذه الدرجة من التفكير النظري بشأن المجردات.

وتتسم لغات شرق آسيا بأنها «سياقية» بدرجة كبيرة. إذ إن الكلمات أو «الفونيمات» أي الوحدات الصوتية اللغوية لها معان عديدة ومن ثم يستلزم فهمها وضع سياق الجمل في الاعتبار. ولكن الكلمات الإنجليزية متمايزة نسبيا هذا علاوة على أن المتحدثين بالإنجليزية معنيون بالتأكد من أن الكلمات والعبارات المنطوقة في حاجة إلى أقل قدر من السياق. وأوضح عالم الأنثروبولوجيا اللسانية شيرلي برايس أن الآباء والأمهات الأمريكيين من الطبقة الوسطى يحاولون عن عمد إخراج اللغة من سياقها قدر المستطاع عند الحديث إلى أطفالهم. إنهم يحاولون جعل الكلمات مفهومة في استقلال عن سياق الأفعال، وجعل العبارات المنطوقة مفهومة في استقلال عن السياق

الموقفي لها. مثال ذلك حين يقرأ أب لطفله عن كلب نجد الأب ربما يسأل طفله عن ماهية هذا الحيوان «بوبي... هذا صحيح» ومن عنده كلب «نعم جون عنده كلب». وهكذا يجري فصل الكلمة عن سياقها الطبيعي الذي تحدث فيه وربطها بسياقات أخرى حيث يكون للكلمة المعنى ذاته.

وتلزم اللغات الغربية المتكلمين بها بالاهتمام بالموضوعات المحورية التي تحتل البؤرة مقابل السياق. إن اللغة الإنجليزية لغة «تبرز الفاعل» إذ لابد أن يكون هناك فاعل حتى ولو في جملة مثل «إنها تمطر». ولكن اللغات الصينية واليابانية والكورية، على العكس من هذا، هي لغات «تبرز الموضوع». ذلك أن الجمل لها وضعها، هو ـ تحديدا ـ الوضع الأول الذي يتعين ملؤه بالموضوع الراهن: «هذا المكان، التزحلق جيد». وجدير بالملاحظة أن هذه الحقيقة تطرح تفسيرا بديلا على أساس اكتشافنا، بعد أن رأينا المشاهد تحت سطح الماء، أن الأمريكيين يبدأون بوصف موضوع ما (هناك سمكة ضخمة، ربما تكون من نوع التروت تتحرك بعيدا تجاه اليسار). هذا بينما يبدأ اليابانيون بتحديد السياق («يشبه غديرا»)، وإن كان من غير الملزم حسب قواعد النحو، إلا أن الجملة اليابانية الاصطلاحية تبدأ بالسياق بدلا من القفز مباشرة إلى الفاعل كما هي الحال مرارا في الإنجليزية.

يرى الغربيون أن الذات هي صانعة الفعل، ويرى أبناء شرق آسيا الفعل شيئا يجري النهوض به في تضافر وتنسيق مع الآخرين، أو لنقل إنه نتيجة الذات النشطة وسط مجال من القوى. وتكشف اللغات عن هذا الاختلاف في نوع الفعالية. وحري أن نتذكر أن هناك كلمات كثيرة للدلالة على «أنا» في اليابانية وكذا (في الماضي على أي حال) في اللغة الصينية، وتعكس هذه الكلمات العلاقة بين الذات والآخر. وهكذا نجد «أنا» في علاقة مع زميلي، و«أنا» في علاقة مع زوجتي أو زوجي... وهلم جرا. وعسير على الياباني أن يفكر في خصائص تصدق على «نفسي» ولكن ما أيسر أن يفكروا في خصائص تصدق على أنفسهم في أوضاع معينة وفي علاقتهم مع أناس محددين. ويعكس النحو اللغوي حسا مختلفا عن كيفية صدور الفعل. إن غالبية اللغات الغربية هي لغات «ذاتية الفاعلية» agentic بمعنى أن اللغة تنقل ما يفيد أن الذات عملت وأثرت في العالم: «أسقطها» (باستثناء الإسبانية). ولكن اللغات الشرق آسيوية فهي بوجه عام ونسبيا «غير ذاتية الفاعلية» non agentic «سقطت منه» أو فقط «سقطت».



وثمة فارق في ممارسة اللغة يصيب كلا من متحدثي الصينية والإنجليزية بالذهول حين يسمعون كيف يتناوله ويعبر عنه الفريق الآخر منهما. ويتمثل هذا في الطريقة الصحيحة لسؤال شخص ما عما إذا كان يريد أن يشرب مزيدا من الشاي. إذ يكون السؤال في الصينية «تشرب مزيدا؟» ولكن في الإنجليزية «مزيد من الشاي؟». الأمر غاية في الوضوح بالنسبة إلى المتحدثين الصينيين، إذ إن الحديث منصب على الشاي وإمكان المزيد منه. لذلك فإن ذكر كلمة الشاي ضرب من التزيد وعدم الاقتصاد في اللغة. ولكن بالنسبة إلى المتحدثين بالإنجليزية واضح تماما أن المرء يتحدث عن شرب الشاي مقابل أي نشاط آخر يمكن أن يؤديه المرء، لذلك من الغريب أن يتضمن السؤال إشارة إلى الشرب.

وذهب عالما الأنثروبولوجيا اللسانية إدوارد سابير وبنيامين وورف إلى أن عمليات التفكير المعتادة لدى الناس تعكس فوارق البنية اللسانية بين اللغات. وصادف هذا الفرض قبولا ورفضا وجدلا بين علماء اللسانيات وعلماء النفس على مدى عقود. ولكنه الآن يعيش أزهى فتراته التي يحظى فيها بقبول عام. وجدير بالإشارة هنا إلى أن بعض شواهدنا وبراهيننا بشأن اللغة والتفكير مردها مباشرة إلى فرض سابير - وورف.

وحري أن نتذكر أن لي - جون جي وجيونج جانج وأنا درسنا موضوع ما إذا كانت اللغة من حيث هي تؤثر في أسلوب الناس في تصنيف الموضوعات إلى فئات. ووصولا إلى هذا قدمنا ثلاثيات مكتوبة تشمل ثلاث كلمات (مثل الباندا والقرد والموز) إلى طلاب جامعيين صينيين وأمريكيين وطلبنا منهم بيان أي اثنين من هذه الثلاثة أقرب إلى بعضهما. وكان الطلاب الصينيون إما مقيمين في الولايات المتحدة أو في الصين. وجرى تطبيق الاختبار عليهم إما باللغة الإنجليزية أو الصينية.

إذا كان فرض سابير - وورف صحيحا إذن لابد أن يظهر فارق من حيث اللغة التي نختبر بها الصيني ثنائي اللغة، أي الذي يتحدث لغتين في أمريكا. وتوقعنا في هذه الحالة أن من المرجح أن يفضل الصينيون العلاقات (القرد والموز) باعتبارها أساسا للتجميع عند اختبارهم باللغة الصينية. وتوقعنا كذلك أن الأرجح أن يفضلوا التصنيف على أساس الفئة (الباندا والقرد) عند اختبارهم باللغة الإنجليزية، ولكن هناك طرقا مختلفة يكون بها المرء ثنائي

اللغة. إن علماء نفس اللسانيات يمايزون بين ما يسمونه «ثنائيي اللغة النظيرية coordinate bilinguals وثنائيي اللغة الدمجية compound bilinguals. وثنائيو اللغة النظيرية هم من يتعلمون لغة ثانية في مرحلة متأخرة نسبيا من حياتهم، ويكون استعمالهم لها مقتصرا على عدد محدود من السياقات. ومن المفترض أن التصورات الذهنية عن العالم عند هؤلاء يمكن أن تختلف من لغة إلى لغة أخرى. ولكن ثنائيي اللغة الدمجية فهم من تعلموا لغة ثانية في مرحلة مبكرة من حياتهم ويستخدمونها في سياقات كثيرة. وتكون التصورات الذهنية عن العالم لدى هؤلاء متلاحمة مادامت اللغتان لا تستعملان لأداء وظائف مختلفة أو يجري استعمالهما حصرا في مواقف مختلفة. ولنا أن نتوقع أن يكون أبناء الصين وتايوان ثنائيي اللغة النظيرية لأنهم يتعلمون الإنجليزية في فترة متأخرة نسبيا، علاوة على أن استعمالها مقتصر تقريبا على السياقات المدرسية الشكلية. ولكن أبناء هونج كونج وسنغافورة سيكونون على الأرجح ثنائيي اللغة الدمجية لأنهم يتعلمون الإنجليزية في فترة مبكرة نسبيا ويستخدمونها في سياقات أكثر. هذا علاوة على أن هذين المجتمعين، خاصة هونج كونج، اكتسبا صفات وثقافات غربية إلى حد كبير.

وإذا كانت اللغة هي سبب الاختلاف في فهم العالم نظرا إلى أن اللغات المختلفة هي أساس التصورات الذهنية المختلفة، إذن لنا أن نتوقع دعما يعزز فرض سابير - وورف. إذ هنا سنجد ثنائيي اللغة النظيرية سيعمدون، على الأقل، إلى تجميع الكلمات على نحو مختلف عند اختبارهم باللغة الصينية عن تجميعهم للكلمات عند اختبارهم باللغة الإنجليزية. وإذا كانت اللغة هي سبب الاختلاف نظرا إلى أن القسمات البنائية للغة تفرض عمليات تفكير مختلفة، إذن لنا أن نتوقع حتى من ثنائيي اللغة الدمجية تجميع الكلمات بطريقتين مختلفتين عند اختبارهم باللغة الصينية ثم بالإنجليزية. وطبيعي أنه إذا لم تكن اللغة ذات شأن ودور أساسيين لأداء المهام المعرفية من مثل عملية التجميع التي ذكرناها، إذن لنا ألا نتوقع أي أثر للغة في أي من عمليتي التجميع السابقتين.

لن نجد نتائج أوضح من ذلك. أولا: توجد فوارق واضحة بين الأمريكيين الأوروبيين الذين اختبرناهم باللغة الإنجليزية وبين النظائريين المتحدثين بالصينية الذين اختبرناهم باللغة الصينية سواء في الصين أو في الولايات المتحدة. كان ميل الأمريكيين إلى التجميع على أساس التصنيف الفئوي ضعف



ميلهم إلى التجميع على أساس العلاقات. كذلك بالنسبة إلى الصينيين في الصين الأم أو في تايوان والذين اختبرناهم بلغتهم الوطنية، إذ كان ميلهم إلى التجميع على أساس العلاقات ضعف ميلهم إلى التجميع على أساس التصنيف الفئوي. وصدق هذا سواء اختبرناهم في بلادهم أو في الولايات المتحدة. ثانيا: أحدثت لغة الاختبار فارقا كبيرا بالنسبة إلى الصينيين من أبناء تايوان أو الصين الأم. إذ عندما اختبرناهم بالإنجليزية كانوا أقل ميلا إلى التجميع على أساس العلاقات. وهكذا يظهر جليا أن الإنجليزية تدعم أسلوبا في تصور العالم مختلفا عن الصينية بالنسبة إلى هؤلاء المشاركين.

ولكن الأمر اختلف تماما بالنسبة إلى ثنائيي اللغة الدمجية من أبناء هونج كونج وسنغافورة. حيث تحولت عمليات التجميع عندهم تحولا موضوعيا في الاتجاه الغربي. كانوا لا يزالون معتمدين على العلاقات أكثر من اعتمادهم على التصنيف الفئوي، ولكن تفضيلهم لهذا أضعف كثيرا من تفضيل ثنائيي اللغة النظيرية المتحدثين بالصينية من أبناء الصين الأم وتايوان، وأهم من ذلك لم يظهر أي فارق تحديدا بالنسبة إلى ثنائيي اللغة الدمجية سواء أدوا الاختبار بالصينية أو بالإنجليزية.

النتائج هنا واضحة الدلالة. الثقافة لها تأثيرها على الفكر في استقلال عن اللغة، ونحن نعرف هذا لأن كلا من المتحدثين بالصينية من ثنائيي اللغة النظيرية وثنائيي اللغة الدمجية جمعوا الكلمات على نحو مختلف عن الأمريكيين بغض النظر عن لغة الاختبار. كذلك فإن الفوارق بين المتحدثين النظائريين والدمجيين تشير إلى اختلاف ثقافي مستقل عن اللغة. إن المتحدثين الدمجيين من أبناء الأقاليم المتغربة أي التي اكتسبت ثقافة غربية تحولوا إلى اتجاه غربي - وبالدرجة نفسها - بغض النظر عن لغة الاختبار. وهناك أيضا تأثير واضح للغة مستقل عن الثقافة - ولكن فقط بالنسبة للمتحدثين النظائريين من الصين وتايوان. إذ إنهم يجيبون إجابتين مختلفتين تماما على أساس لغة الاختبار هل هي الصينية أم الإنجليزية.

وثمة إجابة مبدئية عن سؤال سابير - وورف من حيث علاقته بموضوعنا في هذا الكتاب. وحري أن تظل مبدئية للغاية لأننا فقط كنا نناقش دراستين تتناول نوعا واحدا للعملية الذهنية. والإجابة هي أن اللغة تؤثر بالفعل في الفكر مادامت اللغات المختلفة تقترن على نحو معقول وظاهر بمنظومات تصورية مختلفة.



إننا إزاء دليل واضح على أن أبناء شرق آسيا يرون العالم في ضوء العلاقات أكثر مما يراه الغربيون الذين ينزعون أكثر من أبناء شرق آسيا إلى أن يروا العالم في ضوء موضوعات استاتيكية يمكن تجميعها في صورة فئات. ولا ريب في أن ممارسات تربية وتنشئة الأطفال لها دورها في توليد هذه الرؤى المختلفة أشد الاختلاف. إن أطفال شرق آسيا يتوجه انتباههم، بفضل التربية، إلى العلاقات بينما يتوجه انتباه أطفال الغرب إلى الموضوعات والفئات التي تنتمي إليها هذه الموضوعات. وثمة احتمال بأن اللغة لها دورها، الذي يتمثل على الأقل في المساعدة على تركيز الانتباه، وربما تسهم أيضا في تثبيت التوجهين المختلفين على مدى حياة المرء. ويبدو في ظاهر الأمر أن لا دور لبناء اللغة هذا على الرغم من أنه عمليا يفرض أن يكون العرض في ضوء إحدى اثنتين إما الفئات وإما العلاقات.

وجدير بالذكر، كما سوف نرى في ما يلي، إن النهجين المختلفين تماما في فهم العالم لا ينتهيان مع مهمة تنظيم المعرفة. إن نهج الغربيين في التأكيد على الموضوع وتجريده من السياق، ونهج أبناء شرق آسيا في التكامل والدمج والتركيز على العلاقات يفضيان بكل فريق إلى أسلوب مختلف أشد الاختلاف في الاستدلال العقلي.



7 «هذا ليس منطقا» أم «أنت حققت فوزا في هذه النقطة»؟

الفارق المذهل أكثر من سواه بين تراثين يحتلان طرفي العالم المتحضر هو قدر المنطق ومصيره. إذ ظل المنطق عند الغرب محوريا، ولم ينقطع أبدا الخيط الممتد لرسالته.

الفيلسوف آنجوس جراهام

أن يكون العقل الصيني مغرقا في بنيته العقلية هو تحديدا السبب في رفضه لأن يصبح عقلاني النهج... لفصل الشكل عن المحتوى.

الفيلسوف شو - هسيين ليو

ظل هدف التعليم الكلاسيكي الصيني دائما تنشئة إنسان معقول في تفكيره كنموذج للثقافة. إذ حري بالإنسان المتعلم أن يكون أولا وقبل كل شيء كائنا مفكرا معقولا يتميز دائما بحسه المشترك وحبه للاعتدال وضبط النفس، وكراهيته للنظريات المجردة ومظان التطرف المنطقي.

الناقد الأدبي لين يوتانج

«حين يشعر المرء بأنه الأسعد فإنه حتما سيشعر بالحزن في الوقت نفسه»

كونفوشيوس



المحاجاة التزاما بالاتساق المنطقي... يمكن ألا تكون مثيرة للاستياء فحسب بل والنظر إليها باعتبارها أمرا فجا.

عالم الأنثروبولوجيا نوبوهيرو ناجاشيما

كم هو عسير على الغربي أن يفهم أن منطقة شرق آسيا شهدت حركتين فقط قصيرتي العمر وضعيفتي التأثير، اشتركتا في روح البحث المنطقي التي ظلت دائما شائعة ومشتركة في الغرب. هاتان الحركتان هما «ال منج جيا» و(تعني المناطقة)، و«الموهيين» أو أتباع مو ـ تسو. وتنتميان معا إلى الفترة الكلاسيكية القديمة. حقق المناطقة في الواقع تقدما ضئيلا في اتجاه المنطق الشكلي؛ إذ كانوا مهتمين بالمعرفة من أجل المعرفة، على عكس جميع التقاليد الأخرى في تراث الفلسفة الصينية. وتضمن تراث مو ـ تسو اهتمامات منطقية عديدة من أبرزها أفكار عن الشروط الضرورية والكافية ومبدأ عدم التناقض وقانون الوسط المرفوع. ولكن على الرغم من هذا قصرت جهود الموهيين عن إنتاج مذهب محكم صارم للاستدلال المنطقي. أكثر من هذا أنه على الرغم مما أحرزه أتباع مو ـ تسو من تقدم في مجال الهندسة فإنهم لم يصوغوها في الصورة الغربية، ولم يستحدثوا مجموعة من المبادئ التأسيسية التي تهيئ إمكانا لاستنباط حلول على أساس منطقي.

وأفضل تفسير لاهتمام الإغريق بالمنطق هو أنهم أدركوا فائدته في المحاجاة. لذلك يبدو أن ليس من المصادفة في شيء أن مو ـ تسو كان معنيا بالمنطق، كما آمن في الوقت نفسه بأن المحاجاة ذات قيمة كبيرة لتوضيح القضايا وللمساعدة في التمييز بين الصواب والخطأ. وأراد مو ـ تسو تطوير سبل لتعظيم الخير العام إلى أقصى حد. وطور بالفعل صيغة عامة مبدئية لتحليل التكلفة والعائد cost-benefit analysis، ووضعته هذه الحقائق أقرب ما يكون إلى روح الفلسفة الغربية الحديثة عنه إلى الفلسفة الإغريقية القديمة. بيد أنه وعلى الرغم من هذه المظاهر التي يتصف بها جهده ظل محتفظا بتوجه شرق آسيوي. ذلك أنه شأن الفلاسفة الصينيين الآخرين لم يمايز بين صدق القضية ومفادها الأخلاقي. وهذا وضع قاتل للمنطق مهما كانت آثاره على علم الأخلاق.



ومع حلول الألفية الأولى من التقويم الميلادي لم تكن قد ظهرت بعد أي آثار لنهج منطقي في فهم العالم. وإنما نجد بدلا عن هذا ثقة في الانطباعات الحسية وفي الحس المشترك. ولم تظهر على الإطلاق، حتى بين المناطقة وأتباع مو ـ تسو رغبة في قبول الحجج التي تتحدى الخبرة، هذا على عكس الإغريق الذين اعتادوا أن يبتهجوا أحيانا لأفكار شواهد وبرهان الحواس. وظل الصينيون، كما سوف نرى، أكثر التزاما بالمعقولية دون العقل.

المنطق أم الخبرة

ارتبط نقص الاهتمام بالمنطق في شرق آسيا ارتباطا عضويا بالشك في تجريد الموضوع من السياق، أي الشك في التفكير في بنية حجة ما بمعزل عن محتواها، كما ارتبط بالنفور من الاستدلال على أساس القضايا المجردة وحدها. وثمة دراستان أجريتهما أنا وتورنزايان وإدوارد إي. سميث وبيوم جون كيم. وتوضح هاتان الدراستان كيف أن هذا لا يزال صحيحا بالنسبة إلى الإنسان العام في شرق آسيا في القرن الواحد والعشرين.

ليحاول القارئ أن يفكر في الحجتين القياسيتين التاليتين. هل إحداهما أكثر إقناعا من الأخرى؟

١ـ كل الطيور لها شرايين زندية.

لذلك كل النسور لها شرايين زندية.

٢ـ كل الطيور لها شرايين زندية.

لذلك كل طيور البنجوين لها شرايين زندية.

(لا حاجة إلى أن يعرف القارئ ما هو الشريان الزندي. إنه في الواقع خاصية «فارغة» ومستخدمة بحيث لا تتطفل المعرفة بالعالم الواقعي على عملية تقييم لحجة قياسية).

إحدى سبل قياس مدى اعتماد الناس تلقائيا على المنطق الشكلي دون المعرفة الخبرية في التفكير هي دراسة كيف تعطي هذه فكرة صحيحة عن الخصائص ـ بشأن «الشرايين الزندية» في المثال السابق ـ ابتداء من المقولات الكبرى أو الأولية (الطيور) وصولا إلى المقولات الصغرى أو الثانوية (النسور والبنجوين). وحري أن يلحظ القارئ أن الحجتين لهما مقدمتان متطابقتان غير أن النتيجتين تتباينان من حيث تحديد نوعية الطائر الهدف. إن النسور



طيور أكثر نموذجية من البنجوين. وإذا ما كنا بصدد نمط منطقي صرف عند تقييمنا لقضايا مثل تلك التي أسلفناها فإننا سوف نضيف لكل حجة المقدمة الوسطى الضمنية الخاصة بها (كل النسور طيور، وكل البنجوين طيور). وواضح أن من يفعلون هذا من الناس سيجدون الحجتين متكافئتين من حيث الإقناع. ولكن الناس غالبا ما يجدون الحجج الدالة على حالات نموذجية أكثر إقناعا من الحجج الدالة على حالات شاذة وغير قياسية. إن الخبرة السابقة تجعلهم أكثر قبولا، للنظر إلى النسور باعتبارها طيورا عن اعتبار أنواع البنجوين طيورا.

وطلبنا من مشاركين كوريين وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين أن يقيموا ما يستشعرونه من قناعة في عشرين حجة من هذا النوع، عشر منها تشتمل نتيجتها على أهداف قياسية من مثل النسور، وعشر أخرى تشتمل على أهداف لا قياسية من مثل البنجوين. ووجدنا أن الكوريين أكثر اقتناعا بالحجج القياسية عن الحجج غير القياسية. ولكن الأمريكيين الأوروبيين على العكس إذ كانوا شبه مقتنعين بالحجج القياسية وغير القياسية على السواء. هذا بينما احتلت إجابات الأمريكيين الآسيويين مكانا وسطا بين إجابات الأمريكيين الأوروبيين والكوريين.

ولنفكر معا في الحجج التالية. أيها تبدو لك صحيحة منطقيا؟

مقدمة أولى: لا يوجد كلب بوليسي عجوز.

مقدمة ثانية: بعض الكلاب المدربة تدريبا عاليا عجوزة.

النتيجة: بعض الكلاب عالية التدريب ليست كلابا بوليسية.

مقدمة أولى: كل ما هو مصنوع من نباتات مفيد للصحة.

مقدمة ثانية: السجائر مصنوعة من نباتات.

النتيجة: السجائر مفيدة للصحة.

مقدمة أولى: لا «أ» هي «ب».

مقدمة ثانية: بعض «ج» هو «ب».

النتيجة: بعض «ج» ليس «أ».



الحجة الأولى تفيد معنى وذات نتيجة مقبولة. والحجة الثانية ذات معنى ولكن نتيجتها غير مستساغة. والحجة الثالثة مغرقة في التجريد بحيث لا معنى لها على الإطلاق. بيد أن جميع الحجج الثلاث صواب منطقيا.

ويكون الناس على الأرجح في جانب الصواب في أحكامهم بشأن الصواب المنطقي للحجج حين تكون الحجة ذات معنى ونتيجتها مقبولة. ويكونون بعيدين عن الصواب المؤكد حين تكون الحجة ذات معنى ونتيجتها غير مقبولة عقلا. وحدث أن عرضنا على طلاب جامعيين كوريين وأمريكيين حججا هي إما صواب وإما غير صواب، ولها نتائج إما مقبولة وإما غير مقبولة. وطلبنا منهم تقييم ما إذا كانت نتيجة كل منها لازمة منطقيا عن مقدمات كل حجة أم لا. ودرسنا أربعة نماذج للقياس تتراوح ما بين أبسطها [إذا كانت «أ» هي «ب»، و«ب» هي «ج» إذن «أ» هي «ج»] وحتى البنية الصعبة من طراز المثال الثالث الذي أسلفناه.

لوحظ أن كلا من الكوريين والأمريكيين كانوا أميل إلى وضع القياسات ذات النتائج المقبولة في خانة الصواب. ولكن، كما توقعنا، كان الكوريون أكثر تأثرا من الأمريكيين بمدى المقبولية والاستساغة العقلية. ولا شك في أن هذا الفارق يرجع إلى أن المشاركين الكوريين أقل قدرة من المشاركين الأمريكيين على أداء العمليات المنطقية. وتساوت أخطاء المشاركين الأمريكيين والكوريين فيما يتعلق بالقياس المجرد المحض. ويبدو أن الفارق بين المجموعتين هو أن الأمريكيين أكثر ألفة من الكوريين مع تطبيق القواعد المنطقية، ولهذا فهم أقدر على إغفال عنصر الاستساغة في النتائج.

إذن أبناء شرق آسيا أميل إلى أن يطرحوا المنطق جانبا لمصلحة الالتزام بمدى تطابق النتائج مع النموذج ومدى استساغتها. وهم أيضا أميل إلى طرح المنطق جانبا لمصلحة مدى استصواب النتيجة رغبة فيها.

وأوضح وليام ماك جوير أن الناس إذا ما طلب منهم الحكم على احتمالية أحداث ما ذات علاقة منطقية بعضها ببعض، نلحظ أن أحكامهم القائمة على الاحتمال تتحرك في تساوق مع بعضها بحيث تؤدي إلى زيادة التلاحم المنطقي للمعتقدات ككل. مثال ذلك: سأل ماك جوير المشاركين إلى أي مدى يرون أن من المرجح: (أ) سيحدث جفاف هذا العام. (ب) الجفاف يعني تلوث الشواطئ بسبب عدم توافر مياه المطر التي تخفف

منه. (ج) إذا تلوثت الشواطئ فسوف تغلقها السلطات (د) الشواطئ ستغلق. ووجد ماك جور أنه بمرور الوقت زاد الاتساق المنطقي بين معتقدات الناس بشأن القضايا ذات الصلة. وترجع الزيادة بسبب مطالبتهم بالتفكير في مدى رجحان صدق ما قالوا. ولوحظ أنه بعد مرور أسبوعين على إصدار تقييماتهم لعدد من البنود المماثلة لما ذكرناه آنفا أصبحت الاحتمالات التي ذكرها المشاركون بالنسبة إلى القضايا المختلفة أكثر توافقا مع الشروط المنطقية مما كانت أولا، أي قبل أن يتوافر لهم الوقت للتفكير فيها. وهكذا فعلى الرغم من أن الناس لا تريد إغلاق الشواطئ فإنهم بعد التفكير في ذلك لفترة من الوقت، وعلاقة هذا بالقضايا الأخرى المرجحة أكثر من سواها، والتي تفيد بشكل مباشر أو غير مباشر بأن الشواطئ سيجري غلقها، هنا أصبح الناس أكثر تشاؤما فيما يتعلق بخططهم الصيفية على شاطئ البحر.

وظن أرا نورنزايان وبيوم جون كيم أن أبناء شرق آسيا سيكونون أقل ميلا إلى أن تأخذ معتقداتهم وجهة غير سارة عن طريق التفكير مليا في معلومات تنطوي على احتمالات حدوث نتائج غير مرغوب فيها ـ بسبب أن أبناء شرق آسيا لا يألفون كثيرا تطبيق المنطق على أحداث الحياة اليومية. وإنهم لهذا السبب ربما يكون بوسعهم التشبث بمعتقدات تناهض القضايا الأخرى التي طلب الباحثون منهم التفكير فيها. لهذا أعطوا طلابا كوريين وأمريكيين قضايا ذات علاقة منطقية بعضها ببعض. ولكنهم خلطوها مع قضايا أخرى كثيرة بحيث لم يكن من المرجح أن يدرك المشاركون أنه جرى اختبار مدى الاتساق في أحكامهم عن الاحتمال. وتناثرت داخل الاستبيان، على سبيل المثال، قضايا مثل ما يلي:

أسعار الغداء في الخارج ستزداد.

إذا أدى فرض قوانين صحية أكثر صرامة على
المطاعم إلى زيادة كلفة تشغيل عمال جدد
فإن ثمن الغداء في الخارج سيرتفع.

إن فرض قوانين صحية أكثر صرامة على المطاعم
سيؤدي إلى زيادة كلفة تشغيل عمال جدد.



كانت بعض القضايا موجبة: من مثل «سيكون بوسع عدد أكبر من الفقراء الحصول على طعام كاف لبقائهم في حالة صحية جيدة». وثمة قضايا أخرى مثل تلك التي ذكرناها عن زيادة كلفة الغداء خارج البيت كانت لا تستهوي قارئها. وسأل كيم ونورنزايان المشاركين في وقتين مختلفين عن الاحتمالات التي وضعوها لمختلف القضايا: أي فور قراءتهم لكل قضية، ثم بعد مرور بضع دقائق عقب انتهائهم من قراءة جميع القضايا.

وكشفت معتقدات المشاركين الكوريين والأمريكيين عن اتساق متعادل عند اختبارهم في المرة الأولى. كذلك كان الاتساق بين الفريقين متعادلا - وبمعدل أكبر بالنسبة إلى الفريقين - خلال المرة الثانية بالنسبة إلى القضايا الموجبة. بيد أن الأمريكيين قطعوا شوطا أبعد في اتجاه الاتساق بالنسبة إلى القضايا السالبة وهو ما لم يحدث بالنسبة إلى الكوريين. وبات واضحا أن الدفعة المنطقية حين بلغت غاية منشودة كانت الدلالات المنطقية لبعض المعتقدات بالنسبة إلى غيرها أقل قابلية للتأثير في أحكام الاحتمالات للكوريين عنها للأمريكيين.

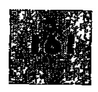
إما - أو مقابل كلا من - و

أي مجموعة من مجموعتي الحكم والأمثال التاليتين تستهويك أكثر من الأخرى - الثلاثة الأولى أم الثلاثة الأخيرة؟

نصف رغيف أفضل من لا شيء.
واحد ضد الجميع مآله السقوط يقينا.
«على سبيل المثال» ليست برهانا.

التواضع الشديد نصف كبرياء.
الحذر من الأصدقاء، أما الأعداء فلا.
الإنسان أقوى من الحديد وأضعف من ذبابة.

تعبر المجموعة الثانية من الحكم عن تناقض واضح: التواضع ليس كبرياء، والأصدقاء ما هم إلا نوع الشخص الذي لا يلزم الحذر منه. ولكن المجموعة الأولى يمكن أو لا يمكن أن تبدو غاية في البلاغة، ولكن ليس من بينها ما ينطوي على تناقض. ووجدت أنا وكايبنج بنج أن الطراز الثاني من الحكم والأمثال هو



الأكثر شيوعا في المعجم الصيني للحكم والأمثال عنه في مجموعة أمريكية. وعندما طلبنا من مجموعة من الطلاب بجامعة ميتشيجان وجامعة بكين أن يحددوا درجات لمدى إعجابهم بالحكم والأمثال وجدنا أن الطلاب الصينيين يفضلون الحكم والأمثال التي تنطوي على تناقضات، بينما فضل الأمريكيون الحكم والأمثال التي لا تشتمل على تناقض. ورغبة منا في التأكد من أن الفوارق ليست ناجمة عن الألفة مع الحكم والأمثال أجرينا دراسة أخرى استخدمنا فيها حكما وأمثالا باللغة الييدية (*) التي هي فرع من الألمانية. وحصلنا على نتائج مماثلة: الأمريكيون والصينيون مغرمون، بقدر متساو، بالحكم والأمثال التي لا تحمل تناقضا؛ ولكن الصينيين استهوتهم الحكم والأمثال التي تحمل تناقضا أكثر مما كانت الحال بالنسبة إلى الأمريكيين (ها هنا وللمرة الثانية نجد تماثلا بين تراث الشرق الأقصى وتراث الشرق الأدنى: «حيث إن الحكم والأمثال باللهجة اليدية مثلها مثل الصينية زاخرة بالتناقضات»).

والجدير ذكره أن أسباب هذه الاختلافات في تفضيل التناقض أسباب عميقة. إذ يوجد في فكر شرق آسيا أسلوب للتفكير العقلي يرجع تاريخه إلى الصين قديما، وكان يسمى التفكير الجدلي. ويعني هذا أنه يركز على التناقضين، وكيفية حسمهما أو التعالي عليهما، أو كشف الصدق في كل منهما. ونستطيع أن نعرض فيما يلي ثلاثة مبادئ مهمة للجدل والتي حدد معالمها كايبنج بنج، وإن كنا نخاطر بأن نقول شططا بشأن روح الجدل الذي لا يلجأ إلى قواعد تفكير عقلاني جامدة أو راسخة ثابتة.

مبدأ التغير يؤكد تراث الفكر الشرق آسيوي على التحول الدائم المطرد لطبيعة الواقع. العالم ليس في حالة ثبات «إستاتيكي» بل دينامي ومتحول أبدا. وإذا بدا لنا في حالة بذاتها فليس ذلك سوى علامة على أن هذا الوضع في سبيله إلى التحول. ونظرا لأن الواقع في حالة فيض دائم فإن المفاهيم التي تعكس الواقع تتسم بالسيولة والذاتية أكثر من كونها ثابتة وموضوعية.

مبدأ التناقض نظرا لأن العالم في تحول مطرد فإن هذا يخلق باستمرار أضدادا ومفارقات ومظاهر شذوذ. القديم والجديد، الخير والشر، القوي والضعيف جميعها موجودة في كل شيء. والحقيقة أن الأضداد يُتمم بعضها بعضا وتتراكب وتتكامل. ويرى الطاويون جانبي أي تناقض ظاهري قائم في

(*) لغة مشتقة من لهجات ألمانية قديمة مع مفردات مأخوذة من العبرية والسلافية وسادت بين طوائف يهود شرق أوروبا [المترجم].



حالة تناغم نشط، نعم تتعارض ولكنها تترابط، وتحكم بعضها بعضا. الطاو نتصوره معا الموجود وغير الموجود. وأوضح هذا لاو تسو مؤسس المدرسة الطاوية: «حين يعرف كل الناس في العالم الجمال من حيث هو جمال، هنا يظهر الاعتراف بالقبح. وحين يعرفون جميعا الخير من حيث هو خير، يظهر آنذاك الاعتراف بالشر. وهكذا الوجود واللاوجود ينتج أحدهما الآخر...». أو ما قاله ماو تسي تونج الذي حكم الصين زمنا طويلا ورأى في نفسه فيلسوفا وشاعرا وسياسيا ومحاربا في آن واحد؛ إذ قال «... نجد من ناحية أن الأضداد تناقض بعضها بعضا وهي من ناحية أخرى مترابطة فيما بينها، نافذة بعضها داخل بعض، متغلغلة فيما بينها ومعتمدة بعضها على بعض، وهذه هي الخاصية التي نصفها بالهوية».

مبدأ العلاقة أو الكلية نتيجة للتغير والتضاد لا يوجد شيء منعزل مستقل عن سواه، بل مترابط بكم هائل من الأشياء المختلفة. إننا لكي نعرف شيئا ما على حقيقته يتعين علينا أن نعرف كل علاقاته، إنه مثل النغم الموسيقي المفرد ثاو في اللحن العام.

ويلاحظ أن المبادئ الثلاثة للتفكير الجدلي مترابطة. التغير ينتج التناقض، والتناقض علة التغير. والتغير والتناقض الدائبان يفيدان بأن لا معنى لأن نناقش الجزء المفرد دون أن نفكر في علاقاته بالأجزاء الأخرى وبالحالات السابقة. وتفيد المبادئ أيضا معتقدا آخر مهما ينبني عليه الفكر الشرق آسيوي، وهو الإصرار على ضرورة إيجاد الطريق الوسطى بين الأضداد المتطرفة. ويسود افتراض أولي وهو أن التناقضات ما هي إلا مظهر وأن نؤمن بأن «أ» على صواب وأن «ب» ليس خطأ. وهذا هو عين الموقف الذي استوعبه القول البوذي المأثور «ما هو ضد الحقيقة الكبرى صادق أيضا».

ويمكن أن تبدو هذه الأفكار بالنسبة إلى كثيرين من الغربيين أفكارا معقولة بل ومألوفة. علاوة على هذا عرف الفكر الغربي مثل هذا النوع من التراث الجدلي، منذ أيام كانط ونيتشه وهيجل (هذا على الرغم من أن الجدل الهيجلي أو الماركسي بتأكيده على الأطروحة ونقيضها والمركب منهما هو جدل أكثر حسما وقطعية من الجدل في شرق آسيا. ذلك لأن الجهد المبذول فيه يهدف دائما إلى محو التناقض وليس قبوله أو التعالي عليه أو استخدامه لفهم وضع ما على نحو أفضل.



ولكن الغربيين ينزعون إلى إغفال قوة التزامهم ببعض المبادئ المنطقية التي تتعارض مباشرة مع روح النزعة الجدلية في فكر شرق آسيا. ونذكر من بين هذه المبادئ «قانون الهوية» Law of identity الذي يقرر أن الشيء هو هو وليس آخر، وقانون عدم التناقض، الذي يقرر أن القضية لا تكون صادقة وكاذبة في آن واحد. وإن إصرار الغرب على هذين المبدأين المنطقيين، وكذا روح النزعة الجدلية في فكر شرق آسيا يبدوان في ظاهرهما على الأقل متضادين تضادا مباشرا.

يؤكد قانون الهوية على الاتساق بين المواقف. «أ» هي «أ» بغض النظر عن السياق. ويحدد قانون عدم التناقض أن قضية ما ونفيها لا يكونان صادقين معا: «أ» وليس «أ» مستحيلان معا. وعلى النقيض من هذا مبدأ الكلية، النظرة الكلية، إذ يفيد بأن شيئا ما يكون مختلفا في سياق ما عنه في سياق آخر. ويفيد مبدأ التغير أن الحياة في حالة تحول مطرد من حالة وجودية إلى حالة أخرى. وهكذا الوجود هو لا وجود أو عدم، واللاوجود هو وجود. إن إنسانا ما هو حرفيا إنسان مختلف داخل أسرته عنه حين يؤدي دوره كرجل أعمال؛ والثروة تعني أن الفقر يتربص بك وراء الجدار.

والجدير ذكره أن أبناء شرق آسيا المحدثين واعون تماما بطبيعة الحال بالمبادئ المنطقية ذاتها التي يعتز بها الغربيون، ويفيدون بالمنطق في بعض سياقات الفكر كما سبق أن أشرنا. ولكن قانون عدم التناقض من وجهة نظر الشرق آسيويين يصدق فقط على مجال المفاهيم والمجردات. وإن رفض النتائج لأنها تبدو متناقضة صوريا يمكن أن يكون خاطئا لأن المفاهيم ما هي إلا انعكاسات للأشياء، ويمكن أحيانا أن يكون أكثر معقولية وقبولا لنا التسليم بوجود تناقض ظاهري، أفضل من الإصرار على أن وضعا ما إما أن يكون هو الصادق أو نقيضه.

وحري الإشارة إلى أن الاختلاف في الموقفين إزاء التناقض له نتائج مهمة من حيث التفكير العقلي في مجالات كثيرة.

طلبنا، أنا وبنج، من عدد من الطلاب الأمريكيين والصينيين خريجي جامعة ميتشيجان قراءة قصص عن النزاعات بين الناس، وعن نزاعات بين دوافع متعارضة لشخص واحد. أفادت إحدى القصص عن صراع قيمة بين أمهات وبناتهن، وعرضت قصة أخرى صراعا بين رغبة في اللعب والمزاح ورغبة في العمل الجاد في المدرسة. وطلبنا من المشاركين تحليل هذه الصراعات،



ووضعنا علامات شفرية، لبيان ما إذا كانت القرارات تمثل طريقا وسطى أم قرارات جدلية أم غير جدلية. وتضمنت الإجابة الجدلية عادة جملا ترد سبب المشكلة إلى كل من الجانبين، وتحاول التوفيق بين الآراء المتعارضة عن طريق حل وسط أو التعالي عليها. مثال ذلك أن إجابة تقول «كل من الأمهات والبنات فشلن في فهم بعضهن بعضا» اعتبرناها إجابة جدلية، شأنها شأن إجابة توضح أنه من المرجح في المستقبل غير البعيد جدا أن تلتقي الاثنتان وجها لوجه كل تنظر إلى الأخرى بعينيها. ولكن الإجابات غير الجدلية فهي عادة تجد الخطأ واقعا حصرا عند هذا الطرف دون الآخر.

ولوحظ بالنسبة إلى نزاع الأمهات ـ بناتهن أن ٧٢ في المائة من إجابات الصينيين أدرجت ضمن الإجابات الجدلية وأن ٢٦ في المائة فقط من إجابات الأمريكيين هي التي أخذت هذه الصفة. كذلك فيما يتعلق بالصراع بين المدرسة واللعب نجد أن نصف إجابات الصينيين جدلية ولكن ١٢ في المائة فقط من إجابات الأمريكيين هي التي كانت كذلك. الخلاصة أن غالبية إجابات الصينيين حاولت التماس طريق وسطى. بينما غالبية إجابات الأمريكيين طالبت بإحداث تغيير في اتجاه واحد فقط.

وعمدت أنا وبنج أيضا، في دراسة أخرى، إلى بحث تفضيل أبناء شرق آسيا والغربيين للحجج المنطقية مقابل الجدلية؛ طلبنا من المشاركين أن يحددوا أيا من الحجتين يفضلون ضد فرض أرسطو القائل إن الجسم الأثقل وزنا يسقط إلى الأرض أولا. وكان جميع المشاركين من خريجي الجامعة في العلوم الطبيعية بجامعة ميتشيجان ولكن لم يكن أي منهم فيزيائيا. وبدأت كل من الحجتين بما يلي: «اعتقد أرسطو أن الجسم الأثقل وزنا هو الأسرع في السقوط إلى الأرض. إلى أي مدى يمكن أن يكون هذا الفرض خاطئا؟».

الحجة المنطقية الأولى وهي أساسا الحجة الكلاسيكية التي قال بها جاليليو، تمضي على النحو التالي: لنفترض أن معنا جسمين، جسم ثقيل هو «ث» وآخر خفيف هو «خ». حسب فرضية أرسطو فإن «ث» سيسقط إلى الأرض أسرع من «خ». والآن لنفترض أن «ث» و«خ» التصقا ببعضهما... ما الذي سيحدث؟ «ث» زائد «خ» أثقل من «ث» إذن حسب الافتراض الأول سيسقط أسرع من «ث» وحده. ولكن في الجسم الملتصق... «خ» [أخف من و] ستعمل عمل الكابحة في تأثيرها على «ث»؛ و«خ» زائد «ث» سيسقطان أبطأ



من «ث» وحده. يلزم عن هذا تأسيسا على الفرض الأول أن «خ» زائد «ث» سيسقطان معا بأسرع وأبطأ من «ث» وحده. وحيث إن هذا خطأ، إذن لابد أن الفرض الأول خطأ أيضا.

وتمضي الحجة الثانية الكلية أو الجدلية على النحو التالي: «... ينبني هذا الفرض على اعتقاد بأن الموضوع الفيزيقي متحرر من أي تأثيرات تؤثر فيها عوامل سياقية أخرى ... وهو أمر مستحيل في الواقع. لنفترض أن معنا جسمين، جسم ثقيل الوزن هو «ث» وجسم خفيف هو «خ». إذا وضعنا الاثنين في ظرفين مختلفين كأن نضع «ث» على سبيل المثال في طقس عاصف (ع) ووضعنا «خ» في طقس هادئ (هـ) ... فإن «ع» أو «هـ» ستحدث فارقا. وحيث إن هذه الأنواع من المؤثرات السياقية موجودة دائما فإن لنا أن نستنتج أن الفرض الأولي بالضرورة خطأ».

وسألنا المشاركين أي من الحجتين يفضلونها لإثبات وجود مفارق، الحجة المنطقية أم الكلية. إن الحجة «المنطقية» نسخة من الحجة الكوزمولوجية القديمة، التي تبدأ كل موجود له سبب ... والتحرك من النتيجة إلى السبب أو العلة دائما. وهنا يكون المرء إزاء خيارين. أن يمضي إلى ما لا نهاية في تعقب الآثار ... دون أن يصل إلى علة نهائية على الإطلاق: أو أن يلوذ بسبب ما مفترض، أي سبب موجود بالضرورة ... ولكن إذا كانت كل سلسلة التتابع، إذا ما أخذناها جملة، لم يحددها أو يسببها شيء، وهذا باطل ... إذن لا مناص من المسار العكسي ... وجود يحمل سبب وجوده، وليس من سبيل لفرض عدم وجوده وإلا وقعنا في تناقض.

لوحظ أن غالبية الأمريكيين فضلوا حجة جاليليو المنطقية دون فرض أرسطو عن الجاذبية. هذا بينما فضل غالبية الصينيين الحجة الجدلية الكلية. وفضل غالبية الأمريكيين الحجة «المنطقية» التي تناقش الوجود المفارق دون الحجة الكلية، بينما فضل غالبية الصينيين الحجة الكلية. ورأى زملائي الغربيين العلميين أن تفضيل الصينيين للحجة الكلية دون آراء أرسطو أمر مثير للدهشة نظرا لأنهم يرون حجة جاليليو بمنزلة الضربة القاضية. ولهذا أرى أن أوضح أن ٦٠ بالمائة فقط من الأمريكيين فضلوا حجة جاليليو.

ترى ماذا يحدث لو واجه أبناء شرق آسيا والغربيون قضايا واضحة التناقض؟ يبدو أن النهج المنطقي يستلزم رفض قضية لمصلحة الأخرى تجنبا للتناقض المحتمل. ولكن النهج الجدلي يؤثر التماس بعض الصدق في كل



منهما، سعيا للوصول إلى طريق وسطي. ورغبة منا في بحث هذه المسألة طلبنا، أنا وبنج، من بعض طلاب جامعتي ميتشيجان وبكين أن يقرأوا ما وصفناه بأنه ملخصات نتائج عديد من دراسات في العلوم الاجتماعية. وتضمنت خمس موضوعات مختلفة. وطلبنا من المشاركين إما أن يقرأوا عن دراسة تقرر اكتشافا بذاته، وإما دراسة تؤكد ضمنا شيئا مختلفا تماما، وإما كليهما. وجدير بالذكر أن الدراستين المتضادتين لا تناقض إحداهما الأخرى بالضرورة، حسب المعنى المنطقي، ولكنها على الأرجح تتسم بطابع معين وهو إذا ما كانت إحداهما صادقة، فإن الأخرى غير مرجحة الصدق. ونعرض فيما يلي قضيتين هما نموذج لقضيتين متناقضتين بوضوح أكثر.

القضية أ: كشفت دراسة استقصائية أن النزلاء المسنين هم على الأرجح من قضوا فترة أحكام طويلة بسبب ارتكابهم جرائم عنف شديدة. وخلص كاتبو التقرير إلى ضرورة امتداد سجنهم حتى في حالة أزمة اكتظاظ السجن بنزلائه.

القضية ب: يرى تقرير عن مسألة اكتظاظ السجن بنزلائه أن النزلاء المسنين ليس من المرجح كثيرا أن يقدموا على ارتكاب جرائم جديدة. لذلك إذا كان السجن يعاني أزمة اكتظاظ لكثرة نزلائه فإن بالإمكان الإفراج عنهم أولا.

القضيتان نموذج للقضايا غير المتناقضة بالمعنى المنطقي.

القضية أ: درس عالم نفس اجتماعي حالة الشباب وقرر أن من يشعرون منهم أنهم ألصق بأسرهم يتمتعون بعلاقات اجتماعية مشبعة.

القضية ب: درس عالم مختص بعلم نفس النمو حالة عدد من المراهقين وأكد أن من هم أقل اعتمادا على أبويهم، وروابطهم الأسرية أضعف هم أكثر نضجا بوجه عام.

إذا كان الأمر كذلك حقا وهو أن الشباب الذين يشعرون بأنهم لصيقون بأسرهم يتمتعون بعلاقات اجتماعية مشبعة، إذن ليس من المرجح أن ترى أن الأمر صحيح أيضا أن المراهقين ذوي الروابط الأسرية الأضعف هم الأكثر نضجا، هذا على الرغم من أن من المسلم به أن هذا لا يفضي إلى تناقض منطقي.

وضع المشاركون تقديرهم لمدى صدقية القضايا. وتألف كل زوج من القضايا من قضية أكثر معقولية (لدى كل من الصينيين والأمريكيين) من الأخرى، والتي نعرفها بمجرد النظر إلى تقديرات المشاركين الذين قرأوا فقط إحدى القضيتين دون الأخرى.



ترى، ما الاستدلالات التي عسى أن يتوصل إليها المشاركون؟ يبدو الأمر واضحا للغاية. فإنه حري بالمشاركين الذين واجهوا قضيتين، بينهما تناقض ظاهري، أن يكون تصديقهم لأي منهما أقل من تصديق أولئك الذين عرفوا عن واحدة فقط. ويصدق هذا تحديدا بالنسبة للقضايا الأقل استساغة التي ناهضتها قضايا أكثر قبولا واستساغة. ولكن لا الأمريكيين ولا الصينيين استنوا هذا النهج. إذ إن الصينيين الذين طالعوا القضيتين معا كشفوا عن إيمان متعادل بكليهما. وعملوا على تقييم القضية الأقل استساغة على أساس أنها أقل قابلية للتصديق إذا ما رأوا ما يناقضها عما لو لم يروا النقيض. وإن هذا الاستدلال غير الملائم نتيجة الإحساس بضرورة التماس الصدق في كل من القضيتين المتناقضتين. ولكن الأمريكيين بدلا من النزوع إلى التقارب في الإيمان بالقضيتين تباعدوا فعليا مؤمنين بالقضية الأكثر استساغة إذ يرون نقيضها أكثر مما لو لم يروا النقيض. ويبدو أن هذا على الأرجح نتيجة للشعور بأن حسم أي من القضيتين المتصارعتين هو الصواب. بيد أن هذه ممارسة للاستدلال مثيرة للريب، أن تزداد مصداقية قضية حين يزداد تناقضها وليس العكس. أحسب أن الأمريكيين استنوا النهج الذي استنوه نظرا لبراعتهم في توليد حجج مناهضة - وهذه مهارة وليدة ممارسة على مدى الحياة. إذ الملاحظ أنهم عند مواجهتهم لحجة ضعيفة ضد قضية ما يكونون أميل إلى التصديق وليست ثمة مشكلة تحول دون إسقاطها. وتتمثل المشكلة في أن سهولة توليدهم للحجج المناهضة يمكن أن يفيد في دعم تصديقهم لقضية ما... كان يبدو أن بالإمكان أن تزعزع إيمانهم، إذا ما كان هناك نقيضها عما لو كانت بدون نقيض لها. ونجد من الدلائل في الحقيقة ما يؤكد أن الأمريكيين ينزعون بالفعل إلى توليد حجج مناقضة أكثر مما هي الحال بالنسبة إلى الصينيين. والنتيجة أن الأمريكيين ربما لا يدركون قوتهم الذاتية، ويفشلون في فهم كم هو يسير عليهم التصدي لحجة يرونها غير مستساغة.

ويبدو أن الميل الأمريكي لتحاشي التناقض مرتبط بالنزوع الغربي العريق إلى البحث عن مبادئ تبرر المعتقدات. إنني إذا ما استطعت أن أبين أن مبدأ ما يوجه معتقداتي، إذن يمكنني أن أبرهن على أن معتقداتي متسقة مع بعضها مهما ظهر ما يناقض ذلك. إن الغربيين بحاجة إلى



إثبات أن معتقداتهم توجهها مبادئ تنطبق أيضا، في ظاهرها، على الخيارات العملية. وقد درس علماء علم النفس التنظيمي برايلي وموريس وسيمونسون الاختيارات الاستهلاكية لأمريكيين أوروبيين ولأشخاص من هونج كونج. وانحصرت جميع الاختيارات في ثلاث موضوعات - أجهزة الكمبيوتر كمثال - التي جرى تقديمها في ضوء بعدين اثنين. ظهر جهاز آي. بي. إم. هو الأكثر تفوقا على كل من «سوني» و«آبل» في بعد معين بينما كان «آبل» هو الأكثر تفوقا على كل من «آي. بي. إم.» و«سوني» في ضوء البعد الثاني. وظل سوني دائما في الوسط بين آي. بي. إم. و«آبل» بالنسبة للبعدين. ولوحظ أن الأمريكيين والشرق آسيويين في حالة ضابطة كادوا أن يتعادلوا في اختيارهم لسوني الذي يحتل موقعا وسطا. وأجرى برايلي وزملاؤه تجربة أخرى يتعين فيها على المشاركين إبداء الأسباب في اختيارهم. وكان في تقديرهم مسبقا أن هذا سيحفز الأمريكيين على البحث عن قاعدة تبرر اختيارهم. (كأن يقولوا إن ذاكرة الوصول في الكمبيوتر RAM أهم من حيز القرص الصلب hard drive space، ولكنه يحفز أبناء ثقافة شرق آسيا إلى التماس حل توفيقي (كل من ذاكرة الوصول RAM وحيز القرص الصلب hard drive space متكافئان من حيث الأهمية). وحين طلبوا من الأمريكيين تبرير اختياراتهم، انتقل الأمريكيون إلى تفضيل واحد من الموضوعات المتطرفة الذي يمكن تبرير اختيارهم له بالرجوع إلى قاعدة بسيطة، بينما انتقل المشاركون من أبناء شرق آسيا إلى زيادة في تفضيل حل توفيقي للموضوع. وقدم المشاركون تبريرات تتسق مع اختياراتهم: الأمريكيون أميل إلى تبريرات تستند إلى قاعدة، والصينيون أميل إلى تبريرات تستند إلى حل وسط توفيقي.

وهكذا توجد دلائل كثيرة تشير إلى أن الشرق آسيويين غير معنيين بالتناقض على النحو ذاته الذي يستنه الغرب. إنهم يفضلون أكثر الحلول التوفيقية والحجج الكلية الشمولية وأميل إلى تعزيز كل من الحجتين المتناقضتين في ظاهرهما. وإذا ما طلبنا منهم تبرير اختياراتهم فإنهم يتجهون إلى التوفيق واتخاذ موقف يعبر عن الطريق الوسطى بدلا من الرجوع إلى مبدأ له السيادة والهيمنة. ويبدو أن النزوع الواضح لدى الأمريكيين إلى مناصرة مبدأ عدم التناقض لا يعطي ضمانا ضد أي استدلالات مشكوك



فـيـهـا. وإنما على العكس إذ إن حـالة الرهـاب من التناقض التي تصـيـب الأمـريكيين يمكن أن تكون سببا دافعا بهم أحيـانا إلى مزيد من التطرف في أحكامـهم في ظل ظروف كانت تقتـضي منهم أن يكونوا أقل تطرفـا. ويـعكس هذا الميل صورة الشكاوى من عادات العقل الغـربي المغرقة في المنطق إلى حد التطرف، وهي الشكاوى التي عبر عنها فلاسفة ونقاد اجتماعيون من الشرق والغرب على السواء.

الدجل والعاطفة والرياضيات

تمثل ظاهـرة بارنوم Barnum effect واحـدة من أكـثـر ظواهـر علم النفس الاجتماعي مصداقية، وهي الظاهرة التي سميت باسم صاحب السيرك الذي أطلق التعبير التالي: هناك رضيع يولد كل دقيقة. وإذا شئت أن تجعل أي شخص يظن أنك صاحب بصيرة مذهلة تسبر غور شخصيته ما عليك إلا أن تحكي له شيئا من مثل ما يلي: «على الرغم من أنك بوجه عام تملك شخصية متفائلة، إلا أنك أحيانا تعلوك كآبة ـ دون أن تكون لديك فكرة واضحة لماذا. وبينما يراك غالبية الناس منبسطا على نحو مقبول إلا أنك في حقيقة أمرك خجولا حتى النخاع».

يظن كل إنسان في الغالب الأعم أنه متفائل على نحو معتدل ولكن ينوشه الحزن أحيانا، ويبدو أنـه اجتمـاعـي ولكنـه خجـول في حقيقتـه ـ وإن مـا لا يدركه الناس هو مـدى شيـوع هذه المدركات عن النفس ولهذا يظنون أن عالم النفس، أو العراف، أيا من كان، قد سبر غور روحه واكتشف الحقيقة. ودفع انكيول شوى بأن هذا يكون أيسر حين يعجز الناس عن التعرف على التناقضات القريبة التي صيغت بحذر وعناية وسط هذه الأوصاف الزائفة عن الشخصية وأضفت عليها معقولية مهما كان رأي المرء عن شخصيته. وإذا كان الأمر كذلك فإن لنا أن نتوقع أن أبناء شرق آسيا أكثر قابلية لظاهرة بارنوم فيقبلون عن أنفسهم أوصافا ظاهرة التعارض لشخصياتهم. وأراد تشوي أن يختبر هذا الفرض. ووصولا إلى هذا طلب من عدد من الكوريين والأمريكيين أن يصنفوا شخصياتهم وفق عدد من الجداول. وتم تصميم الجداول المختلفة بحيث تستكشف السمات المتضادة التي يقولها الناس. وطلب تشوي من المشاركين أن يقيموا كم كانوا غلاظا، وأن يذكروا



في جزء آخر من الاستبيان كم كانوا مهذبين. ولوحظ أن الكوريين الذين قالوا إنهم كانوا أكثر تهذبا من آخرين كانوا ميالين إلى القول بأنهم أوشكوا أن يكونوا غلاظا شأن الآخرين. كذلك فإن الأمريكيين الذين قالوا إنهم كانوا أكثر تهذبا قالوا إنهم كانوا أقل غلظة أو إذا ما قالوا إنهم كانوا أقل تهذبا فإنهم كانوا يميلون إلى القول إنهم كانوا أكثر غلظة. وارتفعت عالية راية حمراء للأمريكيين تشير إلى تناقض محتمل ولكن كان الأمر أقل احتمالا بالنسبة إلى الكوريين.

وقدم تشوي برهانا مذهلا أكثر عن التناقض الذاتي. أعطى مشاركين كوريين وأمريكيين عددا كبيرا من القضايا هي، حرفيا أو شبه حرفي، قضايا بينها تضاد.

- شخصية المرء مصيره، أو
  شخصية المرء ليست مصيره.
- كلما ازدادت معارف المرء ازداد إيمانه، أو
  كلما ازدادت معارف المرء قل إيمانه.

أعطى تشوي لبعض المشاركين قضية من الاثنتين المتضادتين، وأعطى الأخرى للبعض الآخر. ولوحظ أن الأمريكيين الذين أخذوا القضية الأولى إذا نزعوا إلى قبولها فإن الأمريكيين الذين أخذوا القضية الأخرى نزعوا إلى رفضها. ولكن هذا لم يكن صحيحا بالضرورة بالنسبة للكوريين الذين كانوا أميل إلى قبول أي من القضيتين المعروضتين عليهم.

وثمة قصيدة للشاعر وليام بتلر ييتس عنوانها «اللازورد». يصف فيها جوهرة عليها حفر يمثل عجوزين صينيين تحت سقف باجودا (معبد) مقام على سفح الجبل. يقول فيها:

هناك فوق قمة الجبل وفي عنان السماء
إلى كل المشهد المأساوي يحملقون.
أحدهما استغرقه لحن حزين؛
والأصابع الماهرة شرعت في العزف
عيونهما وسط تغضنات كثيرة؛ عيونهما
الجليلة العنيفة اللألاءتين تفيضان بهجة.



ربما كان بيتس على صواب في رؤيته للشخصين الصينيين نظرا لوجود دليل على أن الخبرة الآتية بالعواطف المتصارعة أكثر شيوعا بين أبناء شرق آسيا منها بين الغربيين. وحدث أن طلب كايينج بنج وزملاؤه من المشاركين اليابانيين والأمريكيين أن ينظروا إلى عيون بعضهم بعضا ويسجلون نوع العواطف التي تعبر عنها نظراتهم. رأى الأمريكيون الوجوه سعيدة أو حزينة، غاضبة أو خائفة. ولوحظ أنهم كلما زاد ما أفادوا به عن رؤيتهم لعواطف إيجابية قل ما سجلوه عن رؤيتهم لعواطف سلبية. وجدير بالذكر أن الحس المشترك [الغربي] وقدرا كبيرا من البيانات التي جمعها علماء النفس على مدى سنين، كل هذا يشير إلى أن الأمور نادرا ما تكون على غير هذا النحو. ولكنها كانت على غير هذا النحو بالنسبة للمشاركين اليابانيين. كانوا أميل كثيرا للإفادة بأنهم يرون عواطف إيجابية وسلبية في الوجه الواحد.

ويبدو أيضا أن أبناء شرق آسيا لا يجدون مشكلة في قبول تناقضات ظاهرية في عواطفهم الذاتية. ونذكر في هذا الصدد أن عددا من علماء علم النفس التنظيمي، ريتشارد باجوزي، ونانسي وونج ويوجاي يي طلبوا من مشاركين صينيين وكوريين وأمريكيين أن يقيِّموا حالاتهم الانفعالية في اللحظة نفسها وحالاتهم الانفعالية بعامة. لوحظ أن المشاركين الأمريكيين نزعوا إلى الإفادة بأنهم يشعرون بعواطف إيجابية متماثلة أو عواطف سلبية غير متماثلة. ولكن إجابات الصينيين والكوريين كشفت عن علاقة ضعيفة بين شدة العواطف الإيجابية التي أفادوا بها، سواء الآن أو بوجه عام، وبين شدة العواطف السلبية التي أشاروا إليها. ولوحظ أن الإفادة بعواطف إيجابية قوية تتواءم مع التعبير عن عواطف سلبية قوية. ويبدو أن كونفوشيوس كان يتحدث عن قطاع كبير جدا من سكان العالم حين قال: «حين يشعر المرء بأنه الأسعد فإنه حتما سيشعر بالحزن في الوقت نفسه».

أنا متهم أحيانا بالتناقض. لماذا الشرق آسيويون اللامنطقيون يبزون الأمريكيين في الرياضيات والعلم؟ كيف يحدث هذا إذا كان الشرق آسيويون لا يتواءمون مع المنطق؟ ثمة إجابات عديدة عن هذه الأسئلة.

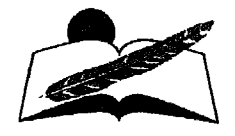
أولا، حري بنا أن ندرك أننا لا نجد عمليا وفعليا الشرق آسيويين في مشكلة مع المنطق الشكلي. نحن فقط نجدهم أقل ميلا لاستخدامه في مواقفهم الحياتية اليومية حيث تتصارع معه الخبرة أو الرغبة. ثانيا، افتقار الشرق آسيويين للاهتمام بالتناقض وتأكيدهم على الطريق الوسطي يؤدي دون ريب إلى أخطاء منطقية. ولكن حالة الرهاب الغريبة من التناقض يمكن أن تتسبب أيضا في أخطاء منطقية.

إن شهرة أبناء شرق آسيا بالمهارات الرياضية حديثة العهد، وجدير بالذكر أن الثقافة التقليدية الصينية واليابانية أكدت على الأدب والفنون والموسيقى باعتبارها الهدف الصحيح الذي ينذر له المتعلم جهده سعيا إليه. ولوحظ أننا وآخرين في بحوثنا مع صينيين وأمريكيين شبابا وشيوخا نجد أن شباب الصينيين فقط هم الذين يبزون في أدائهم نظراءهم الأمريكيين. ولكن مقارنة أداء كبار السن من الصينيين والأمريكيين المتعلمين كشفت عن أنه أداء متماثل في الرياضيات.

إن تعليم الرياضيات في شرق آسيا أفضل، كما أن طلاب شرق آسيا أكثر جدية ودأبا في العمل. كذلك فإن تدريب المعلم في شرق آسيا عملية مطردة طوال حياة المعلم العملية، ويتعين على المعلمين أن يقضوا في التعليم وقتا أقل كثيرا من نظرائهم الأمريكيين، كما أن التقنيات شائعة الاستخدام أعلى من مستوى نظيراتها في أمريكا. (تفوق تعلم الرياضيات في شرق آسيا عن نظيره في أوروبا في هذه المجالات أقل وضوحا). ونلحظ في كل من أمريكا وشرق آسيا أن الأطفال ذوي الخلفية الشرق آسيوية يعملون بدأب وجدية أكثر في مجال الرياضيات والعلم من الأمريكيين الأوروبيين. وأن الفارق في مدى جدية ودأب الأطفال في دراستهم للرياضيات ربما يرجع جزئيا على الأقل إلى ميل الغربيين أكثر إلى الإيمان بأن السلوك نتيجة لسمات ثابتة. وينزع الأمريكان إلى الإيمان بأن المهارات صفات يملكها أو لا يملكها المرء، لذلك لا تفكير في محاولة اصطناع المستحيل. وينزع الشرق آسيويون إلى الإيمان بأن كل إنسان، قادر على تعلم الرياضيات إذا ما توفرت له الظروف الصحيحة مع العمل الجاد الدؤوب.

الخلاصة أن تفوق الشرق آسيويين في الرياضيات والعلوم ضرب من المفارقة ظاهرة التناقض ولكنها أبعد ما تكون عن التناقض.

لقد عمدت إلى عرض قدر واف من الأدلة التي تكشف عن اختلاف الغربيين والشرق آسيويين في فروض أساسية عن طبيعة العالم، وفي بؤرة الانتباه، وفي المهارات اللازمة لإدراك العلاقات والتمييز بين الموضوعات وسط بيئة معقدة، وفي طبيعة المرجعية السببية، وفي الميل إلى تنظيم العالم على أساس تصنيف فئوي أو على أساس العلاقات، وفي الميل إلى استخدام القواعد بما في ذلك قواعد وقوانين المنطق الشكلي. ويبرز هنا سؤالان رئيسيان في ضوء هذه الدفوع. هل هذا شأن مهم له خطره؟ هل سيستمر؟ يتناول الفصل الثامن السؤال الأول، وتتناول الخاتمة السؤال الثاني.





8 وماذا لو كانت طبيعة الفكر ليست واحدة في كل العالم؟

تبين لنا عمليا في كل دراسة نهضنا بها أن الفوارق بين الشرق آسيويين والغربيين كانت ولا تزال عادة كبيرة. ووجدنا في الحقيقة، في أغلب الأوقات أن الشرق آسيويين والغربيين يسلكون على نحو متمايز كيفيا. إذ لوحظ أن الأمريكيين في المتوسط يجدون صعوبة أكثر في اكتشاف التغيرات الحادثة في خلفية المشاهد، بينما يجد اليابانيون صعوبة أكثر في اكتشاف الموضوعات في الصدارة. وفشل الأمريكيون بعامة في تمييز دور القيود والضغوط الموقفية على سلوك المتكلم، بينما استطاع الكوريون ذلك. واستطاعت غالبية الكوريين أن تصدر رأيا بأن موضوعا ما يكون أقرب شبها بمجموعة يشترك معها في تشابه فصيلي وثيق بينما أصدرت غالبية، ربما أكبر من هذه، بين الأمريكيين رأيا يقرر أن موضوعا ما يكون أقرب شبها بمجموعة يمكن نسبته إليها بناء على قاعدة الحتمية. وحين نكون بصدد قضيتين ظاهرتي التناقض فإن الأمريكيين يميلون إلى استقطاب معتقداتهم حول قضية دون الأخرى، بينما يتجه الصينيون

«نقيضتان غربيتان تتمثلان في فصل الشكل عن المحتوى وفي الإصرار على المناهج المنطقية أدتا معا في غالب الأحيان إلى إنتاج قدر كبير من الهراء الأكاديمي»

المؤلف



إلى القبول المتكافئ للقضيتين معا. وإذا رأى اليابانيون شيئا فإنهم يكونون ضعف الأمريكيين من حيث ميلهم إلى النظر إلى الشيء باعتباره جوهرا ـ كتلة متصلة من المادة ـ بينما يكون الأمريكيون ضعف اليابانيين من حيث ميلهم إلى النظر إليه باعتباره موضوعا، أي شيئا مستقلا منفصلا غير متصل وليس جوهرا. وهكذا دواليك.

إن الدرس الذي يستخلصه علماء النفس من هذه الفوارق الكيفية يتمثل في الآتي. إذ لو أن التجارب موضوع البحث أجريت على غربيين فقط لانتهوا إلى نتائج عن العمليات الإدراكية والمعرفية التي ليست عامة بحال من الأحوال والحقيقة أن مثل هذه النتائج الخاطئة عن الكلية الشاملة هي بالفعل ما سبق التوصل إليه بالنسبة إلى عمليات كثيرة سجلها هذا الكتاب. ويبدو واضحا الآن أننا بحاجة إلى إعادة تفكير الآن لنتبين أي العمليات الإدراكية والفكرية هي الأساسية، وأيها يطرأ عليها تغير جوهري من مجموعة بشرية إلى مجموعة أخرى. والجدير ذكره أن خطوط النزاع مآلها إلى أن تكون أعمق كثيرا وفي مواقع مختلفة على عكس ما ذهب إليه الظن حتى الآن.

هل هذا مهم؟

ولكن النتائج الواردة في متن الكتاب مبنية في أغلبها على اختبارات معملية: لماذا نفترض أن النتائج ما هي إلا نباتات مستزرعة داخل دفيئة (صوبة) وليس لها نظير في عالم الواقع فكرا أو سلوكا؟

السؤال جدير بأن نسأله وسيكون مفيدا أن نحاول الإجابة عنه. توجد في الحقيقة مجالات كثيرة في الحياة التي يفكر ويسلك فيها الشرق ـ آسيويون والغربيون على نحو مختلف تماما. وهذه الفوارق بدت مفهومة بوضوح في ضوء دعاوانا عن النظرة الكلية مقابل الفكر التحليلي.

الطب: يلتزم الطب في الغرب نهجا تحليليا وموجها نحو الموضوع وتدخليا، وهذه أساليب تناول شاعت على مدى آلاف السنين: الكشف عن الجزء المسبب للمرض أو المزاج الضار، ويعمل على إزالته أو تغييره. ولكن الطب في شرق آسيا مغرق في النظرة الكلية ولم يتجه أبدا، حتى العصر الحديث، إلى الجراحة أو غير ذلك من تدخلات جريئة. فالصحة هي نتاج توازن بين قوى



حميدة داخل الجسم، والمرض سببه تفاعل معقد بين القوى وهو ما يتعين التصدي له بأدوية وتدخلات متساوية معه من حيث تعقده، وهي عادة أدوية وتدخلات طبيعية، وغالبيتها من الأعشاب. ونعرف أن تشريح الأبدان إلى الأجزاء المكونة لها عمل مارسه الإغريق القدامى، ثم حدثت قطيعة خلال العصور الوسطى، ليعود ثانية ويمارسه الغرب ثانية على مدى القرون الخمسة الأخيرة. ولم ينتقل التشريح عن طريق الغرب إلى الطب في شرق آسيا حتى القرن التاسع عشر.

القانون: لنتأمل المعادلة التالية: أولا، نحن نحدد إيثار المجتمع للمحامين على المهندسين كنسبة:

عدد المحامين في المجتمع
―――――――――――
عدد المهندسين في المجتمع

ثانيا، نحدد نسبة إلى هذه النسب في ضوء التفضيلات النسبية لبلدين للمحامين على المهندسين.

عدد المحامين/المهندسين في المجتمع أ
―――――――――――――――
عدد المحامين/المهندسين في المجتمع ب

العدد حاصل قسمة نسبة تفضيل المحامين في الولايات المتحدة عن نسبة تفضيل المحامين في اليابان هو أربعون - واحد.

المحامون في الولايات المتحدة يفيد منهم المجتمع. ذلك أن النزاع بين الأفراد في بلدان الغرب تجري معالجة القسط الأكبر منه عن طريق المواجهات القانونية، بينما الأمر المرجح جدا في شرق آسيا هو الوساطة. ويلاحظ أن الهدف في الغرب هو تطبيق مبدأ العدالة، وافتراض التوجه إلى ساحة القضاء لحسم النزاع هو مثال جيد لمعنى أن ثمة حقا وخطأ، وسيكون هناك خاسر وفائز. ولكن الهدف من حسم النزاع في شرق آسيا هو على الأرجح خفض مستوى العداوة، كما أن التوفيق هو النتيجة المرجحة. ويلتزم الغربيون بمبادئ كلية عن العدالة لمواصلة السعي نحو أهدافهم، ويشعر القضاة والمحلفون بأنهم ملزمون باتخاذ قرارات يؤمنون بأنها ستطبق على كل إنسان في ظروف متماثلة تقريبا. ولكن على العكس



في شرق آسيا، إذ نجد المرونة والانتباه واسعي النطاق إزاء الظروف والملابسات الخاصة بالقضية، إذ يمثل هذان السمات المميزة للحكمة في حسم النزاع. وهذا ما عبر عنه مواطن صيني في فترة ما قبل الثورة الصينية حين قال: «... القاضي الصيني لا يسعه التفكير في القانون ككيان مجرد، بل باعتباره كمّا مرنا عند تطبيقه شخصيا على العميد هوانج أو الرائد لي. ومن ثم فإن أي قانون غير شخصي بما فيه الكفاية بحيث يستجيب لشخصية العميد هوانج أو الرائد لي هو قانون غير إنساني، ومن ثم ليس قانونا على الإطلاق. إن العدالة الصينية فن وليست علما».

الجدل: عمليات اتخاذ القرارات في قاعات مجالس الإدارات والمجالس التنفيذية في اليابان هدفها تجنب النزاع والتنافر والانشقاق. ويلاحظ أن الاجتماعات غالبا ما تكون أكثر قليلا من مجرد التصديق على توافق للآراء حققه مقدما الرئيس. ويجنح المديرون اليابانيون إلى التعامل مع نزاع بينهم وبين مديرين آخرين عن طريق تجنب الموقف ببساطة، بينما نجد الأمريكيين أميل كثيرا من اليابانيين إلى محاولة الإقناع. وإن ما يعتبره الشرق - آسيويون تدخلا ونهجا خطرا يراه الغرب وسيلة للوصول إلى الحق. ويضفي الغربيون ما يرقى إلى مستوى الإيمان الديني على ساحة الحوار الحر للأفكار. إن الأفكار السيئة ليست خطرا على المدى البعيد على أقل تقدير. إذ سيتضح آنذاك هدفها حين تتيسر مناقشتها صراحة بين الناس. ولم يعرف شرق آسيا مثل هذا الافتراض وغير معروف به حتى الآن.

العلم: في عقد التسعينيات من القرن العشرين حصل العلماء المقيمون في الولايات المتحدة على أربع وأربعين جائزة نوبل، وحصل اليابانيون على جائزة واحدة فقط، هذا على الرغم من حقيقة واقعة تتمثل في أن ما ترصده اليابان من أموال للبحث العلمي يبلغ نصف ما ترصده الولايات المتحدة. كذلك بالنسبة إلى ألمانيا الغربية التي تنفق نصف ما تنفقه اليابان على العلم، حصل علماؤها على خمس جوائز. ونذكر أيضا فرنسا التي تنفق على العلم أقل مما تنفقه ألمانيا، ومع هذا حصلت على ثلاث جوائز. ويمكن جزئيا رد أسباب الإنجازات الضئيلة نسبيا لليابان في مجال العلم إلى ما



تفرضه الكونفوشية من احترام لكبار السن، وهو ما يؤدي إلى توجيه الدعم والمساندة إلى العلماء كبار السن ذوي المستوى المتواضع دون شباب العلماء الموهوبين. ولكن بعض العلماء اليابانيين يعزون القصور جزئيا إلى غياب الحوار والمواجهات الفكرية؛ إذ يلاحظ أن المراجعة والنقد بين الأكفاء شأن نادر في اليابان، حيث يعتبر ضربا من التجرؤ والغلظة، وحيث لا يسود قبول واسع النطاق لدورهما في توضيح وتقدم الفكر في ما يتعلق بالشؤون العلمية. وعبر عن هذا عالم ياباني بقوله: «عملت في معهد كارنيجي في واشنطن وعرفت عالمين بارزين كانا نعم الصديقين. ولكنني لاحظت إذا تعلق الأمر بعملهما فربما يدور بينهما نقاش حاد قاس حتى لو كان علنيا على صفحات الصحف. هذا النوع من السلوك يقع داخل الولايات المتحدة ولكنه لا يحدث أبدا في اليابان».

الخطابة مقاومة النقاش والجدل ليست مجرد مسألة اجتماعية أو أيديولوجية، ولا هي مقصورة على نتائج كمية خالصة من مثل عدد أوراق الأبحاث العلمية المنتجة. وإنما الإحجام عن النقاش يتسع نطاقه ليشمل طبيعة الاتصال والخطابة ذواتهما. والجدير ذكره أن الخطابة الغربية - التي تشكل البنية الأساسية لكل شيء، ابتداء من التقارير العلمية وحتى أوراق البحث المتعلقة بالسياسة - تأخذ عادة أشكالا متباينة على النحو التالي:

- الخلفية
- المشكلة
- الفرض أو القضية المقترحة
- وسائل الاختبار
- الدليل
- حجج تبين وتدعم الدليل وما يفضي إليه
- تفنيد أي حجج مضادة محتملة
- النتيجة والتوصيات

والجدير ذكره أن غالبية الغربيين الذين تحدثت إليهم بشأن هذا القالب للبحث يأخذونه مأخذ التسليم كقالب كلي شامل: أنى لنا عن غير هذا، أن ننقل معلوماتنا عن اكتشافاتنا وأن نقدم توصياتنا بصورة مقنعة أو حتى أن



نفكر بوضوح فيما يفعله المرء؟ بيد أن الحقيقة أن هذه الصيغة الخطابية الخطية على امتداد مسار أحادي ليست أبدا شائعة في شرق آسيا. لقد تبين لي أن الصيغة الخطية الخطابية بالنسبة إلى طلابي من شرق آسيا هي آخر شيء حاسم يتعلمونه في طريقهم ليصبحوا علماء اجتماعيين أكفاء في أداء دورهم.

العقود: يرى العقل الغربي أن أي صفقة يجري الاتفاق عليها لا سبيل إلى تعديلها؛ الصفقة صفقة والكلام بشأنها نهائي. ولكن أبناء شرق آسيا غالبا ما يعتبرون الاتفاقات اتفاقات مبدئية مع وضع أحداث المستقبل في الاعتبار. وطبيعي أن هذه الآراء المتعارضة غالبا ما تسببت في نزاعات بين أبناء شرق آسيا والغربيين. ولعلنا نتذكر المرارة بين رجال الأعمال اليابانيين والأستراليين بسبب رفض أستراليا إعادة التفاوض بشأن عقد توريد سكر، وذلك حين انخفض سعر السكر انخفاضا حادا في السوق العالمية. لم يكن اليابانيون في موقفهم هذا مرائين، ولا يسعون إلى خدمة أنفسهم على نحو أناني خالص. ذلك أن الموردين اليابانيين يضعون مثل هذه الأمور موضع الاعتبار في تعاملهم مع عملائهم. والمعروف أنه إذا تساقط الثلج وغطى طوكيو فإن موزعي الأفلام يعملون على الأرجح من أجل تعويض أصحاب دور السينما بسبب نقص عدد الجمهور. وأشار إلى هذا أستاذا الأعمال هامبدن ـ تورنر وترومبينارس إذ قالا: «المتابعة التحليلية ـ بندا بندا ـ ليست فعالة من حيث التكاليف. ولكن المتابعة بهدف تعزيز العلاقة بين العميل والمورد أمر مفهوم تماما». والخلاصة أن اليابانيين ينظرون إلى علاقات العمل نظرة في إطار كلي تشمل السياق مع مضي الزمن.

العلاقات الدولية: حدث نزاع دولي بين الصين والولايات المتحدة نجم عن اختلاف المفاهيم بشأن الأسباب، وذلك حين اصطدمت طائرة مقاتلة صينية بطائرة استطلاع أمريكية، واضطرت طائرة الاستطلاع إلى الهبوط فوق جزيرة صينية دون الحصول على إذن من المنطقة. أسر الصينيون ملاحي طائرة الاستطلاع وطلبوا من الولايات المتحدة الاعتذار عن الحادث. ورفض الأمريكيون مؤكدين أن سبب الحادث تهور طيار الطائرة المقاتلة. ولحظ العالم السياسي بيتر جراييس وعالم النفس الاجتماعي



كايينج بنج أنه بالنسبة إلى الصينيين، الإصرار على أن ثمة شيئا اسمه السبب الذي أدى للحادثة ومحصور في إطارها فقط أمر شبه مستحيل؛ إذ إن الحادثة وثيقة الصلة بعدد كبير من الاعتبارات بما في ذلك حقيقة أن الولايات المتحدة بعد كل شيء تتجسس على الصين، وأن هناك تاريخا للتفاعل بين طائرة الاستطلاع والطائرة المقاتلة،... وهكذا دواليك. وتأسيسا على تعقد وغموض السببية ـ مع تسليم الصينيين بأن الأمر هنا مثله مثل أحداث أخرى ـ فإن أقل ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة هو التعبير عن أسفها لوقوع الحادث. وطبيعي أن الغموض المفترض مسبقا بشأن السببية يمكن أن يكون أحد أسس إصرار الشرق آسيويين على الاعتذار عن أي عمل يضر بآخر، سواء حدث عن غير قصد أو على نحو غير مباشر (واستعداد المديرين اليابانيين للاستقالة حين يفقدون السيطرة على مسار الأمور وتأخذ منحى خاطئا). وأخيرا كانت «صيغة» الاعتذار هي ما اتفقت عليه الولايات المتحدة والصين لإنهاء الورطة. ولكن يبدو ـ على الأرجح ـ أن كثيرين من الجانبين لم يفهموا دور اختلاف مفاهيم السببية في النزاع، وهو ما أوضحه وحدده جراييس وينج.

حقوق الإنسان: ينزع الغربيون ـ فيما يبدو ـ إلى الاعتقاد بأن ثمة نوعا واحدا فقط للعلاقة بين الفرد والدولة، وأنه وحده الصحيح الملائم. الأفراد وحدات منفصلة ويدخلون معا في عقد اجتماعي بينهم وبين الدولة، وبين بعضهم وبعض، مما يترتب عليه حقوق معينة وحريات والتزامات. ولكن غالبية الشعوب ـ بما في ذلك شعوب شرق آسيا ـ لا ترى المجتمعات حاصل جمع أفراد بل جمعا من جسيمات أو كائنات. ونتيجة لذلك فإن مفهوم حقوق الإنسان كشيء أصيل للفرد نادر أو غير موجود. ويرى الصينيون أن أي مفهوم عن الحقوق ينبني على أساس الجزء ـ الكل مقابل مفهوم المجتمع واحد ـ كثير. وبقدر ما يكون للمرء حقوق بقدر ما تتألف حصته من الحقوق جملة. والملاحظ أن الغربيين حين يرون الشرق آسيويين يعاملون الناس كأن لا حقوق لهم، إنما يرون ذلك في ضوء الأخلاق فقط. وأيا كانت الملاءمة الأخلاقية لسلوك الرسميين في شرق آسيا فإن من المهم أن نفهم أن سلوك المرء على نحو مغاير لا يستلزم فقط قانونا أخلاقيا مغايرا، بل وأيضا مفهوما مغايرا عن طبيعة الفرد. (أقول هذا وإن كنت

أشارك غالبية الغربيين في الرأي بأن ثمة ما نسميه الحقوق الإنسانية للفرد وأن هذه الحقوق تصادف أحيانا انتهاكا في شرق آسيا). وطبيعي أن أي مفهوم مغاير عن الفرد سوف ينبني في النهاية على نزوع للتفكير في العالم في ضوء وحدات فردية، وليس على أساس جواهر متصلة، تمثل على ا- ىن الفروض المستوى الميتافيزيقي الأساسي.

ومن المهم كذلك أن ندرك أن شعوب شرق آسيا وغيرها من الشعوب المؤمنة بالتكامل لها اعتراضاتها الأخلاقية على السلوك الغربي. والملاحظ أن طلاب شرق آسيا حين يصبحون على سجيتهم قادرين على التحدث دون حرج داخل قاعات الدرس، فإنهم غالبا ما يعبرون عن حيرتهم إزاء الكم الكبير من الفوضى والجريمة والعنف والصور الفاضحة جنسيا في وسائل الإعلام الغربية، والتي تذيعها وتروجها باسم الحرية والتسامح. إنهم يدركون أن هذه المسائل وليدة حقوق الإنسان، ذلك لأنهم يرون الحقوق أصيلة في الروح الجمعية دون الفردية.

الدين: إن بعض الاختلافات الدينية، وهي كثيرة، يمكن فهمها في ضوء ذهنية الغرب «الصواب/ الخطأ» مقابل التوجه الشرق آسيوي «كلا من/ و». تتسم ديانات شرق آسيا بالتسامح وتداخل الأفكار الدينية. إذ يمكن للمرء أن يكون كونفوشيا وبوذيا ومسيحيا في كوريا واليابان (وفي الصين قبل الثورة). والجدير ذكره أن الحروب الدينية في شرق آسيا نادرة نسبيا، بينما كانت داء متوطنا في الغرب على مدى قرون: ذلك أن العقيدة السائدة تصر على ضرورة دخول الآخرين إليها والالتزام برؤيتها عن الرب. ونجد من يدفع بأن الإغريق لا يلامون على هذا، وربما يكون صحيحا (إذ لم يكونوا موحدين بل آمنوا بأرباب كثيرين، ولا يعنيهم أي الأرباب أثير عند المرء دون الأرباب الأخرى). ولكن الديانة التوراتية الإبراهيمية وما تولد عنها من ديانات هي التي سادها نزوع نحو شن حروب دينية. ولكن هناك من زعم، من ناحية أخرى، أن المسيحية هي العقيدة الدينية الوحيدة التي رأت من الضروري تأسيس فقه لاهوتي يحدد الصفات الجوهرية للرب. ويستطرد أصحاب هذا الزعم قائلين: إن هذا الإصرار على تحديد مقولات الرب وعلى التجريد نهج يمكن تتبع جذوره تاريخيا عند الإغريق.



الدورات والعود المطرد يمثلان جزءا واحدا من كثير من ديانات شرق آسيا ولكنهما أقل شيوعا في الغرب. والميلاد المتجدد جزء من بعض ديانات شرق آسيا، ونادرا ما نراه في الغرب. وترى ديانات شرق آسيا أن الخطيئة حالة مزمنة ويمكن التكفير عنها (مثلما هي الحال في الكاثوليكية إلى حد ما). ولكن الخطيئة في التراث البروتستانتي عسير التكفير عنها، أو أن لا سبيل إلى الخلاص منها بالمعنى الحرفي.

أخيرا حري ألا ننسى أن أكثر الأدلة التي ناقشناها في هذا الكتاب مستمدة من حل مشكلات الحياة اليومية. إن المديرين اليابانيين يبدأون حياتهم العملية من قاع شركاتهم، ويطوفون بين أقسامها مرات ومرات حتى تتوافر لديهم رؤية شاملة لأنشطة شركاتهم. والمعروف أن المباني في الصين - بما في ذلك ناطحات السحاب في هونج كونج - لم يبدأ بناؤها إلا بعد مسح كامل وشامل على أيدى خبراء فنج شوي الذين يدرسون كل قسمة ممكنة، إيكولوجية وطوبوغرافية ومناخية وهندسية، للمنطقة وللمباني المقترح بناؤها في الوقت نفسه وفي علاقتها بعضها ببعض. ولكن الغربيين، وخصوصا الأمريكيين، هم رواد النهج المعياري الذري التبادلي المتماثل في الصناعة والتجارة...، وهكذا إلى آخره. وليست دعواي أن الفوارق المعرفية التي كشفنا عنها في المعمل هي سبب اختلاف المواقف والاتجاهات والقيم والسلوك، بل إن الفوارق المعرفية غير منفصلة عن الفوارق الاجتماعية وعوامل الحفز. إن الناس يؤمنون بالعقيدة التي يؤمنون بها بسبب أسلوبهم في التفكير، وهم يفكرون بالأسلوب الذي يفكرون به بسبب طبيعة المجتمعات التي يعيشون فيها.

كيف يجب أن يفكر الناس؟

في مطلع القرن العشرين اقتسم الفلاسفة وعلماء النفس العمل فيما بينهم. أخذ علماء النفس المهمة الوصفية لاكتشاف كيف يفكر ويسلك الناس. وتولى الفلاسفة مهمة إرشادية ليقولوا للناس كيف ينبغي عليهم أن يفكروا ويسلكوا. وحدث أحيانا، وإن لم يكن كثيرا كما هو مستصوب، أن يتأمل الفلاسفة عمل علماء النفس ليعرفوا ما الذي يفعله الناس في الواقع العملي. ولكن حتى لو حرص الفلاسفة على الاهتمام عن كثب بجهود علماء النفس لما

وجدوا غير النزر اليسير الذي يحررهم من وهم قناعاتهم بشأن النزعة الكلية الشاملة. وأعتقد أن الجهد الذي يعرضه هذا الكتاب سيكون له آثره في علماء النفس وبالتالي على الفلاسفة أيضا.

وإذا شئنا آن نعرف كيف يمكن أن تتأثر الفلسفة بما عرضناه من براهين تؤكد الرؤية غير الكلية، أي تنفي الشمولية الكلية المطلقة، ندعو القارئ إلى أن يتأمل معنا لغز الاستقراء كما عرضه دافيد هيوم في القرن الثامن عشر. تساءل هيوم ما الذي يبرر لنا أن الطعام الذي نتغذى عليه اليوم سوف يكون غذاء لنا غدا. لا سبيل إلى حل استنتاجي للمشكلة. إن عبارة «هذا الطعام كان غذاء لي اليوم، ولذلك سيكون غذاء لي غدا» هي عبارة احتمالية خالصة تفتقر إلى اليقين اللازم للقياس.

وذهب الفيلسوف نيلسون جودمان إلى أن حل لغز الاستقراء يتمثل في التماس توازن انعكاسي Reflective equilibrium بين قواعد الاستدلال الاستقرائي والاستدلالات المحددة التي نجريها فعليا. وهذا هو ما نفعله بالنسبة إلى قواعد الاستدلال: حري أن نسقط أي قاعدة استدلالية تستلزم منا إجازة استدلالات رأينا أنها غير مقبولة، وأن نرفض أي نتيجة تحظرها قاعدة نريد التخلي عنها. ولكن لنفترض وجود ثقافات لا تفكر كما «نفكر نحن»، علاوة على أنهم لا يدعمون مبادئ التفكير نفسها التي نلتزم بها! ورأى الفيلسوف ستيفن ستيك أن هذا من شأنه أن يقطع أوصال مبدأ التوازن الانعكاسي. إننا إذا كنا لا نتفق بشأن ما إذا كان استدلال ما مبررا أم لا، فإننا لن نستطيع أن نفيد بالمبدأ كعامل توجيه يصحح تفكيرنا - إنه لن يزيد عن كونه تعبيرا عن تفضيل شخصي. أحد الحلول المقترحة هو أن نكتفي بالقول نحن لدينا ما يبرر لنا استدلالاتنا وهم لديهم ما يبرر لهم استدلالاتهم. حتى إن اختلفت استدلالاتهم تماما عن استدلالاتنا. وطبيعي كم هو يسير اتخاذ هذا الوضع النسبي المفرط، ولكن لا أحد يؤمن به واقعيا. إنك إذا قلت لي إنك تؤمن بأن كلتا القضيتين المتناقضتين فعليا صحيحتان، فإنني ربما أقول تأدبا أنا على يقين من أن هذا صحيح بالنسبة إليك، ولكنني على صواب بالنسبة إلي. هل أحدنا مقتنع بهذا؟ الاحتمال أن لا.

بيد أنني لا أريد أن استقر في هذا الفراش الخاص بالنسبية، الذي أسهمت في صنعه. إنني أرى على العكس أن أنماط التفكير عند الآسيويين تلقي ضوءا ذا قيمة عالية على بعض أخطاء التفكير لدى الغرب، كما أن الصورة المقابلة نفسها قد يكون من المفيد عكسها للنظر إلى الفكر في شرق آسيا.



وسوف أركز على عدد قليل فقط من عادات الفكر عند الغربيين، التي تتجلى واضحة عند مقابلتها بأنماط الفكر عند الشرق آسيويين.

الشكلانية formalism: يشتمل النهج المنطقي الشكلي للفكر الغربي على قوة هائلة. وواضح أن العلم والرياضيات يرتكزان عليه وان اختلفت الآراء حول مدى هذا الاعتماد. وسبق أن قال فرنسيس بيكون «المنطق لا جدوى منه، العلم هو الإبداع». وأعرب برتراند رسل عن رأيه أن القياسات المنطقية لدى رهبان القرن الثاني عشر عمل عقيم. وعلى الرغم من أنني أجنح إلى الموافقة، إلا أن هذه قضية ملغزة تأتي على لسان من آمن بأن كل مشكلات البشرية يمكن حسمها بالمنطق، ولكن بأن نطبق فقط المنطق الشكلي على قضايا العالم الواقعي. وعندي أن هذا أحال تحليله للقضايا السياسية والاجتماعية إلى شيء ساذج. إن القضية الرئيسية في مشكلته هي إصراره على الفصل بين الشكل والمحتوى، وهكذا يمكن المضي قدما بالتفكير على أساس المبادئ المنطقية الخاصة بالشكل فقط. هذا هو المرض المزمن الذي يعاني منه الغرب. ويقول في هذا الصدد الفيلسوف إس. إتش. ليو «الصينيون أعقل من أن يفصلوا الشكل عن المحتوى».

مشكلة ثانية بالنسبة إلى برتراند رسل هي أنه، شأن غالبية الغربيين، كان يعوزه إلى حد كبير ما يمكن أن نسميه «مخططات التفكير» للنزعة الجدلية. والجدير ذكره أن كثيرا من هذه المخططات حددها (دون استخدام مصطلح «النزعة الجدلية») عالما علم نفس النمو كلاوس ريجيل وميشيل باسيكس. اختلف هذان العالمان مع رأي جان بياجيه الذي يفيد بأن القسط الأكبر من التفكير يتم عن طريق ما يسمى العمليات الشكلية أو المبادئ المنطقية التي تتوافر بحلول سن البلوغ. ويرى هذان العالمان أن القسط الأكبر من التفكير عالي المستوى يجري عن طريق العمليات بعد الشكلية postformal operations. مخططات تفكير أكثر تعقدا وأشد ارتباطا بمحتوى فكري محدد عنها بالقواعد المنطقية. وسمياها «بعد شكلية»، لأن من المفترض أنها تتطور أولا بعد اكتمال العمليات الشكلية. ويعتقد كل من ريجيل وبيسيكس أن تقدم نمو العمليات بعد الشكلية يظل مستمرا مدى الحياة. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة التي وردت ضمن أعمال بيسيكس:

- مفهوم الحركة الانتقالية من الأطروحة إلى نقيضها ثم إلى المركب منهما.
- القدرة على فهم الأحداث أو المواقف باعتبارها لحظات في طور عملية ما.



- إدراك إمكان حدوث تغير كيفي نتيجة تغير كمي.
- القدرة على اتخاذ موقف فكري من النسبية السياقية.
- إدراك قيمة أطر فكرية عديدة عن مشكلة ما.
- إدراك عثرات النزعة الشكلية المبنية على الاعتماد المتبادل بين الشكل والمحتوى.
- القدرة على تمييز المفهوم العقلي للعلاقات المتقابلة في اتجاهين.
- القدرة على تمييز مفهوم المنظومات ذاتية التحول.
- القدرة على تصور المنظومات في ضوء توازنها.

والغريب أن كلا من ريجيل وبيسيكس ـ فيما يبدو ـ لم يكتشف كتابة الرابطة بين أفكارهم عن العمليات بعد الشكلية والجوانب الجدلية في فكر شرق آسيا، على الرغم من أنهما ـ على أرجح تقدير، كما يبدو ـ كانا غير مدركين لأوجه التماثل. وثمة احتمال في الواقع بأنهما اعتمدا على أفكار شرق آسيوية لاستحداث مخططاتهما.

نقيصتان غربيتان تتمثلان في فصل الشكل عن المحتوى وفي الإصرار على المناهج المنطقية أدتا معا في غالب الأحيان إلى إنتاج قدر كبير من الهراء الأكاديمي. ويشتمل مجال تخصصي في علم النفس على قدر وفير من الأمثلة التي توضح ما ذهبت إليه. وأذكر تحديدا أن قدرا كبيرا من صياغة نماذج للظواهر المنطقية النفسية على أساس المنطق الشكلي ـ وأنا واع بأغلبها ـ يفشل في توضيح الظواهر المستهدفة. إن البهجة تكمن في صياغة النماذج لذاتها وليس لفهم السلوك. وحدث أن أخبرني أصدقاء اقتصاديون أن الشيء البطولي في علم الاقتصاد هو أن ننتقي المبدأ غير المقبول عقلا ثم نستخرج منه أكبر عدد ممكن من الظواهر.

المنطق ثنائي القيمة

كثير من مفكري الغرب أنحوا باللائمة على النهج الثنائي، إما/ أو في تقييم القضايا والذي يعتبر خاصية مميزة للغرب. ولكن أيسر على المرء أن يرى المشكلات من منظور «كل من/ و» وهو النهج المتبع في شرق آسيا. مثال ذلك إصرار الغرب على أن سلوكا ما له سبب واحد بدلا من أسباب عدة، يفضي بالناس إلى النظر إلى السلوك على أساس إما أن سببه داخلي وإما



خارجي وليس الاثنان معا. وهكذا يمكن للمرء أن يتصرف بدافع من الكرم أو لإشباع دافع يخدم الذات، وليس للطرازين معا من الأسباب. والتزم آدم سميث هذا المنظور في دفاعه الشهير عن الرأسمالية إذ قال: «إن الخباز أو الجزار لا يزودك أيها العميل بطعامك من باب الرعاية والحرص عليك بل بسبب حرصه على نفسه». ولكننا عند التفكير نسأل ولماذا لا يكون الدافعان معا؟ يقينا إن تجارا كثيرين يديرون مشروعاتهم لإطعام أسرهم هم ولكن أيضا وبالمثل يسهمون في المساعدة على إطعام آخرين. لقد أدرك سميث نفسه هذه الحقيقة، ولكن أغفلها أو لم يقدرها حق قدرها كثيرون من تلامذته وتابعيه.

وهناك مفارقة ساخرة بشأن دوافع السياسيين والتي تمثل سمة مميزة للأمريكيين؛ إذ مهما كان احتمال هذه الدوافع أن تكون مفيدة للحفاظ على الحريات الشخصية إلا أن المرجح أن تتولد عنها بعض التقييمات غير الصحيحة. إن أيا من ليندون جونسون أو ريتشارد نيكسون ليس من بين السياسيين المفضلين عندي، ولكن سادت نظرة على نطاق واسع ترى أنهما أقدما على أعمال بهدف تحقيق كسب سياسي في الوقت الذي أقدما فيه على أمور اعتقدا هما أنفسهما أنها ستؤدي إلى خسائر سياسية جسيمة. تصور كثيرون أن جونسون كان يحاول تعزيز رأسماله السياسي بالنضال دفاعا عن مشروعات قوانين الحقوق المدنية التي دعا إليها كنيدي ولكنه في واقع الأمر كان يعرف - أفضل مما كان يعرف كنيدي - أنه بذلك يتخلى عن الجنوب للحزب الجمهوري على مدى جيل كامل، وظن كثيرون أن نيكسون كان يلتمس كسبا سياسيا شخصيا بفتح الطريق إلى الصين هذا في الوقت الذي كان فيه هو وكثيرون من مساعديه يخافون من أن تكون هذه المحاولة نقلة غير شعبية إلى أقصى حد.

وهناك قدر ضئيل من البراهين التي تؤكد أن الغربيين يمكن أن يكونوا أكثر تعرضا من سواهم «لخطأ الدافع الوحيد». وأذكر أن عالمي علم نفس النمو جوان ميللر ودافيد بيرسون قصا على أطفال أمريكيين ومن شرق الهند حالات ساعد فيها شخص شخصا آخر ولوحظ في بعض الحالات أن المساعد توقع مردودا مقابلا لمساعدته في بعض الأحيان ولم يتوقع ذلك في حالات أخرى. افترض الأطفال الهنود أن المساعد كان شغوفا في باطنه عن



أصالة لكي يقدم العون بغض النظر عن التوقعات بمردود مقابل. واعتقد الأطفال الأمريكيون أن هناك دافعا باطنيا أصيلا للمساعدة في حالة واحدة فقط وهو ألا يكون هناك توقع بمردود مقابل.

الخطأ الأساسي في نسبة الأسباب

ويعني الميل إلى افتراض أن سلوك شخص آخر إنما نتج عن سمات أو قدرات شخصية مع إغفال عوامل موقفية مهمة أحيانا أو التهوين منها. ويمثل الخطأ الأساسي في نسبة الأسباب واحدا من أهم الظواهر في علم النفس الاجتماعي والتي أثبتتها براهين على أفضل وجه. وذهب النقاد أحيانا إلى أن هذا الميل لا يمثل خطأ على الإطلاق. ولكن أبناء شرق آسيا أقل عرضة من الأمريكيين للوقوع في هذا الخطأ في بعض الحالات، فضلا عن أنه سرعان ما يجري تصحيح الخطأ عندما يتضح لهم الموقف بشكل أو بآخر. وليس بوسع الناقد الأخذ بالأمرين معا. إما أن يكون الغربيون على خطأ في تلك الحالات التي يغفلون فيها تأثيرات الموقف، وإما أن يكون الشرق آسيويون على خطأ عندما يضعون تأثيرات الموقف في الاعتبار. ولعل الموقف المقبول أكثر من سواه - خاصة في ضوء المعطيات التي تبين أن الأمريكيين أميل إلى الانتباه فقط للموضوعات البارزة وإغفال السياق - هو القول إن الأمريكيين هم المخطئون والشرق آسيويين هم المصيبون في هذه الحالات.

وجدير بالملاحظة أن البحوث بشأن الخطأ الأساسي في نسبة الأسباب لها دلالاتها المؤثرة فيما وراء ما يختص بالإبستومولوجيا. إن العمل مهم أيضا لعلم الأخلاق، وهذه نقطة أكدها فلاسفة عديدون نذكر من بينهم جون دوريس وجيلبرت هارمان وبيتر فراناس فضلا عن كثيرين من علماء النفس. إذ يلحظ هؤلاء أن الأخلاق عند أرسطو التي كان لها دور هائل في تاريخ الفلسفة الغربية تماثل الفيزيقا عنده. الناس مثل الموضوعات، يسلكون على النحو الذي يسلكون به بسبب خاصياتهم - الفضائل أو الرذائل في حالة الأخلاق ذات الصلة بسلوك الناس. وواضح أن «أخلاق الفضيلة» عند أرسطو أكثر اتساقا مع الفكر الغربي العامي عنه مع معتقدات شرق آسيا بشأن السلوك الأخلاقي. ويشجع مذهب أرسطو المرء على أن يفترض أن لا سبيل إلى تقويم وإصلاح الناس، أو أن يتخذ موقفا يقضي بضرورة تبديل السلوك عن طريق تغيير الخاصيات التي يتصف



بها الناس ـ وهذه مهمة عسيرة على أحسن الفروض وغير مجدية على أسوأ الفروض. إنك إذا شئت أن تجعل الناس يسلكون على نحو ما تعتقد أنت أنه السلوك الذي ينبغي أن يكون: فإن أيسر سبيل تشجيعهم على التماس مواقف تولد عندهم أفضل سلوك، وأن ينأوا بأنفسهم بعيدا عن أي مواقف تحثهم على السلوك الرديء. ويلاحظ أن مثل هذا النهج للحث على السلوك الأخلاقي نراه أكثر وضوحا من زاوية النظر الشرق آسيوية عنه من زاوية النظر الغربية.

التحول عدل وإنصاف، كما أن بالإمكان أيضا أن نستخدم المبادئ الغربية كنقطة ارتكاز لنقد الفكر الشرق آسيوي. ونعرض فيما يلي تخطيطا عاما لما يمكن أن يكون عليه مثل هذا المشروع.

التناقض: إن أسلوب طرح المشكلات لاكتشاف حلول لها في صورة «هناك صدق على الجانبين» يمكن أن يكون مناسبا جدا كنهج نستخدمه أولا لفهم أي تناقض ظاهري. ويمكن أن يكون أيضا أسلوبا جيدا للإنجاز في غالب الأوقات. بيد أنه ليس إجراء حسابيا ميكانيكيا من الأفضل الالتزام به دون تردد. إذ يحدث أحيانا أن قضية ما يكون كل الصدق أو أغلبه إلى جانبها، وقدر قليل إلى جانب الأخرى. ولقد رأينا كيف أن أبناء شرق آسيا أميل من الأمريكيين إلى أن يولوا ثقتهم وتصديقهم لكل من القضيتين اللتين بينهما علاقة تناقض، وأنه يمكن أن ينتهي بهم هذا إلى الوقوع في خطأ خطير يتمثل في تصديق قضية بذاتها أكثر من الأخرى حين يرونها تناقض قضية أكثر قبولا عما لو رأوها وحدها. ويكاد يكون من المستحيل الدفاع عن هذا على أسس منطقية ولكن يمكن تبينه كنتيجة للإصرار على التماس طريق وسطي. ويؤكد لنا انكيول تشوي أن عدم الحساسية النسبية لدى أبناء شرق آسيا إزاء التناقض يحد على الأرجح من فضولهم المعرفي اللازم لكي يكونوا علماء. وسواء أكان هذا خيرا أم شرا إلا أنه رهن بالأفضلية. بيد أنه من الأمور وثيقة الصلة يقينا أن المسئولين عن إدارة شئون مجتمعات شرق آسيا الآن يسعون إلى تحقيق القدرة على إنتاج علماء.

الحوار والخطابة: أشارك الغربيين إيمانهم بفعالية الحوار وصولا إلى الصدق أو الحقيقة أو الإبقاء على فروض مطروحة للنقاش على مائدة الحوار لما قد تحمله من فائدة. ولا ريب في أن الأسلوب الغربي للحوار ـ وما يشجعه من عادات ذهنية ـ مهم للحفاظ على المجتمعات منفتحة بعقول واسعة الأفق.



ويتلازم الحوار أيضا بفن خطابة معياري على أساس الفرض ـ البينة ـ النتيجة، وهو المنهج الذي يعتمد عليه بقوة العلم والرياضيات. وسبق لي أن استشهدت باقتباس من عالم الفيزياء آلان كرومر الذي يؤكد أن «البرهان الهندسي هو الشكل الخطابي في أقصى صورة». وجدير بالذكر أن عالم النفس والإحصائي روبرت أبيلسون ألف كتابا جميلا يصف الإحصاء بأنه في جوهره خطابي. وأعتقد أن العبارات المجازية هنا عميقة الدلالة وصحيحة المعنى.

التعقد: قال مفكر غربي: «إذا كان الكون يشبه في شكله البسكويتة المعقدة Pretzel إذن لابد من أن تكون فروضنا أيضا معقدة على شاكلته». وهذا صحيح تماما. ولكننا إذا ما بدأنا بفروض معقدة الشكل، فلابد من أن يأخذ الكون شكلا معقدا، وإلا فلن تسنح لنا فرصة لنعرف على أي شكل هو. ونحن سنكون في وضع أفضل مع أي شكل آخر غير شكل العقدة، إذ نبدأ بخط مستقيم ونعدله حين يتضح لنا أن الفرض الخطي شديد البساطة. ولا ريب في أن أبناء شرق آسيا على صواب في اعتقادهم بأن العالم مكان معقد، وربما يكون من الصواب التعامل مع الحياة اليومية على أساس هذا الموقف. ومع هذا فنحن في العلم نكون أقرب إلى الحقيقة سريعا حين نتحمل قسوة التعقد عن أن نرحب في بساطة بكل عامل نتصور أنه ذو صلة.

وطبيعي أن أي ملاحظات إرشادية مثل تلك المعروضة في هذا الباب لن يكون لها معنى أو قيمة إلا إذا عرفنا أن بالإمكان تغيير عادات العقل عند الناس. هل يمكن هذا؟

التعليم والاختبار

هل ينبغي على المعلمين أن يلتمسوا السبيل لتقديم مهارات الثقافات الأخرى إلى أبنائهم أم ينبغي أن يركزوا على ما يحدده المجتمع على أنه مهم في ثقافة مجتمعهم؟

اعتاد الأمريكيون سماع أخبار عن النجاحات التعليمية التي يحققها أبناء شرق آسيا أو الأمريكيون من أصول شرق آسيوية سواء في شرق آسيا أو في الولايات المتحدة حتى ليبدو الأمر أشبه بالصدمة أن تسمع أن أبناء رجال الأعمال اليابانيين المقيمين في الولايات المتحدة يوصفون في المدارس



الأمريكية «بالمعاقين تعليميا» ويعودون إلى بلادهم. إن عجزهم عن أداء التحليل السببي - في دراسة التاريخ كمثال - وفقا لأكثر السبل البدائية المتوقعة من الأطفال الأمريكيين يفضي إلى الاعتقاد بأنهم ضعاف معرفيا.

وجدير بالذكر أن المهارات التحليلية السببية ليست المجال الوحيد الذي يعتقد أحيانا رجال التعليم الأمريكيين أن أبناء شرق آسيا ضعاف فيه. إن الحوار أداة تعليمية مهمة لتعليم مهارات التفكير التحليلي ولفرض وعي ذاتي بصواب أفكار المرء. وهذه نظرة يتزايد أعداد من يؤمنون بها من غير الغربيين الآن. لقد أصبح التعلم عن طريق الحوار صناعة تصديرية أمريكية ثانوية علاوة على الشباب الوافدين من جميع أنحاء العالم وبخاصة أبناء شرق آسيا للإقامة في معسكرات الحوار في الولايات المتحدة الأمريكية.

وحدث منذ بضع سنوات مضت أن طالبة كورية خريجة إحدى الجامعات، اسمها هيجونج كيم، كانت تدرس علم النفس في معهد ستانفورد. وأعربت الطالبة عن سخطها بسبب إلحاح معلميها الأمريكيين بمطالباتهم منها بأن تعبر عن رأيها داخل قاعة الدرس. وقيل لها مرارا إن عدم التعبير صراحة عن رأيها يمكن اعتباره مؤشرا على الفشل في فهم مادة الدرس فهما كاملا. وقيل لها كذلك إن التعبير عن الرأي وسماع ردود أفعال المعلم والزملاء والزميلات من شأنه أن يساعدها على فهم الدرس على نحو أفضل. ولكن الأمر على العكس، إذ كانت تشعر هي وزملاؤها الطلاب من شرق آسيا أو الأمريكيين من أصول شرق آسيوية بأنهم لن يفيدوا من الكلام لأن سبيلهم الأساسي لفهم موضوع الدرس ليس سبيلا كلاميا. إن شرق آسيا تسوده يقينا تقاليد عريقة تساوي الصمت دون الكلام بالمعرفة. وتعرف أن الحكيم الصيني لاو - تسو في القرن السادس قبل الميلاد قال: «من يعرف لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعرف». وتوضح كيم الفارق بتذكيرنا بالتمايز الذي كشفنا عنه في دراستنا بين الفكر التحليلي والفكر الكلي. إن الفكر التحليلي الذي يشرح العالم في صورة عدد محدود من الموضوعات المنفصلة ولكل موضوع صفاته الخاصة والمحددة بحيث يمكننا تصنيفها بطرق واضحة إلى فئات متمايزة إنما يعكس ذاته في اللغة نفسها. ولكن الفكر الكلي الذي يستجيب لمجموعات أكبر وأوسع نطاقا من الموضوعات وعلاقاتها، والذي يكشف عن أقل قدر من التمايزات الصارخة بين الصفات أو الفئات - المقولات هو فكر يتلاءم في أدنى حد مع التمثيل اللساني.

أردنا أن نختبر إمكان أن يجد الشرق آسيويون والأمريكيون من أصل شرق أسيوي أن من العسير عليهم استخدام اللغة للإعلان عن الفكر. طلبت كيم من المشاركين التحدث بصوت عال، في أثناء محاولتهم حل أنواع مختلفة من المشكلات. لم يكن لهذا أثر على أداء الأمريكيين الأوروبيين. ولكن شرط التحدث بصوت عال أضر كثيرا بأداء الشرق آسيويين والأمريكيين من أصل شرق آسيوي. وطبيعي أن هذا العمل مقنع، شأن جميع الاختبارات التي عرضها هذا الكتاب عن الطبيعة المختلفة للفكر عند كل من أبناء شرق آسيا من ناحية والغربيين من ناحية أخرى، وهذا أمر له دلالاته المهمة إلى أقصى حد. كيف يمكن لنا أن نعلم أبناء شرق آسيا والأمريكيين من أصول شرق آسيوية داخل قاعات الدرس الأمريكية. هل هذا شكل من أشكال «الاستعمار» أن تطالبهم بالأداء اللفظي ومشاركة زملائهم فكرهم؟ ترى هل يؤدي هذا إلى تقويض المهارات الملازمة للنهج الكلي في رؤية العالم؟ أم أن هذا مجرد حس مشترك لإعدادهم لعالم تكون فيه مهارات التعبير اللفظي ميسورة حتى وإن تعذر عليهم بلوغها؟

ثمة ميزتان واضحتان للمعرفة في شرق آسيا: (١) حقيقة أن الشرق آسيويين يرون في مشهد ما أو سياق ما أكثر مما يراه الغربيون (٢) النهج الكلي، الجدلي، القائم على التماس طريق وسطي في حل المشكلات. لندع جانبا الآن السؤال عما إذا كان ينبغي أن تعلم الغربيين هذه المهارات. وأذكر أن الدراسات التي أعدها عالما علم النفس المعرفي دافيد مايير ودافيد كييراس اشتملت على بعض الإلمامات التي تفيد بأن الأمر قد يكون يسيرا على نحو مثير للدهشة لفتح «عنق الزجاجة» فيما يتعلق بالأداء الإدراكي والأداء الحركي - الإدراكي. إذ يمكن تعليم الناس الانتباه إلى نطاق أوسع من المنبهات المختلفة والاستجابة لها على نحو أسرع وأدق وذلك بفضل كم متواضع من التدريبات. ولكنني أرى الجوانب المعرفية للنهج الكلي والجدلي في التفكير أمرا مختلفا تماما. إنها بعض سدى ولحمة الإدراك والفلسفة بل والمزاج حتى ليبدو لي أن من المشكوك فيه أن يحقق التغيير إنجازا كبيرا. ولكن يسعدني كثيرا أن أكون مخطئا.

وعرف القرن الماضي فرضا أشبه بالمسلمات بشأن اختبار الذكاء إذ يرى أن بالإمكان اختبار الذكاء بطريقة منصفة أو مبرأة من القيود الثقافية. وأجمع الخبراء على أن التحيزات الثقافية يمكن أن تتخلل



اختبارات الذكاء المعتمدة على اللغة. وأكثر من هذا ذوي المكانة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة داخل ثقافة ما لهم كلماتهم المختلفة. كذلك فإن المقارنة تصبح غير ذات معنى بين الثقافات واللغات المتباينة. ولكن ثمة توافقا في الآراء يفيد بأننا إذا اختبرنا الذكاء بدون استخدام الكلمات فإنه يصبح مقبولا عمل مقارنات بين جماعات من ثقافات مختلفة.

أرجو من القارئ أن يلقي نظرة على الرسم الموضح في الصفحة التالية الذي يشتمل على عدد كبير من الصناديق. يعرض الرسم مشكلة تماثل المشكلات التي تعرضها اختبارات مشهورة حريصة على أن لا تكون منحازة ثقافيا مثل اختبار كاتيل الذي لا تقيده الظروف الثقافية لقياس الذكاء Cattel Culture-Fair Intelligence Test واختبار رافين للمصفوفات المتتابعة Raven's Progressive Matrices Test وتتمثل مهمة الشخص موضوع الاختبار في النظر إلى الموضوعات القليلة الأولى في المصفوفة في رأس الصفحة، ويقدر ماذا عسى أن يكون الموضوع التالي من بين الخيارات الستة المعروضة تحت المصفوفة. وعُرض كل منها في دوائر ومثلثات ومربعات بحيث لا مجال للحديث عن ميزة غير منصفة. وحري أن ما يقاس هنا هو فقط ما يمكن أن نسميه الذكاء الخام raw intelligence بيد أننا إذا نظرنا إليها في ضوء الأفكار المقترحة في هذا الكتاب يمكن القول إن الاختبار يتلاءم مع قوى الغربيين ويعمل لصالحهم. إذ أنه يتألف من تحديد قسمات وثيقة الصلة ويقرر كيف يجري تصنيفها واكتشاف القاعدة التي تفسر على أحسن وجه أسلوب التعامل مع الفئات.

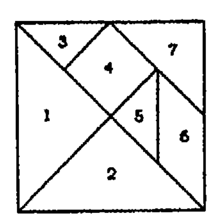
تشكل فريق عمل برئاسة دنيس بارك وتراي هيدين بجامعة ميتشيجان وفيشنج جنج من معهد علم النفس الصيني وأنا. وقام الفريق باختبار ذكاء طلاب جامعيين أمريكيين وصينيين وأشخاص من كبار السن. واتبعنا ثلاث طرق: اختبارات السرعة والذاكرة المرتبط بدرجات معامل الذكاء (على الأقل بين السكان الغربيين حيث جرت دراسة المسألة)؛ وعن طريق الدرجة المئوية للمعلومات العامة بالمقارنة بين التجمعات وثيقة الصلة. (أيضا بينها وبين درجات معامل الذكاء معامل ارتباط مرتفع) وعن طريق اختبار كاتيل لقياس الذكاء غير المقيد بالظروف الثقافية.



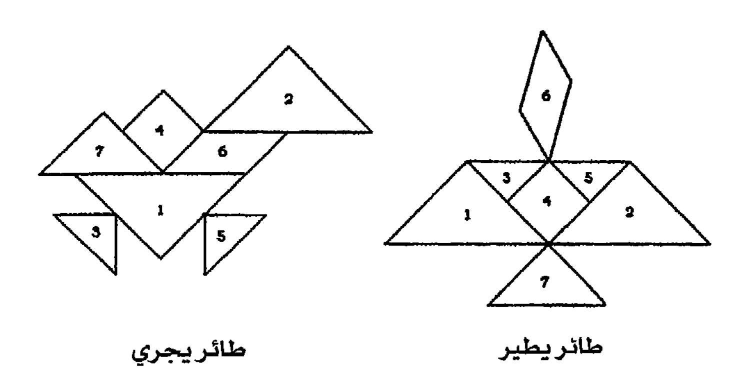
مثال لأحد بنود اختبار قياس الذكاء غير المقيد بالظروف الثقافية

عمدنا إلى ضمان تعادل الفرق من حيث السرعة والذكاء بحيث كان للشباب من الأمريكيين والصينيين درجات متطابقة في المتوسط العام، وهو ما حدث لكبار السن من الأمريكيين والصينيين أيضا. (لوحظ أن الشباب أسرع كثيرا وذاكرتهم أفضل، لذلك لم يكن ممكنا كفالة التعادل لهذه المتغيرات على أساس المجموعات العمرية). وحددنا درجات مئوية متطابقة للمعلومات أيضا (لوحظ، كما هي العادة، أن كبار السن في عيناتنا حصلوا على درجات أعلى من الشباب في المعلومات). ولكن على الرغم من هذه المباراة تأسيسا على قياسين شديدي الاختلاف للذكاء فإن الأمريكيين، سواء الشباب أو كبار السن، حصلوا على درجات أفضل موضوعيا من الصينيين في الاختبار غير المقيد بالظروف الثقافية. وكان الفارق كبيرا جدا (أكثر من أربعة أخماس الانحراف المعياري بالنسبة للقراء ذوي الألفة بالإحصاء). بيد أننا إذا أخذنا نتائج اختبار كاتيل جديا وطرحنا جانبا المعلومات الأخرى عن القدرات سنخلص إلى نتيجة محددة وهي أن الأمريكيين أذكى كثيرا من الصينيين (أو أن يكون لنا حق المطالبة بتكوين عينة عشوائية من التجمعات ذات الصلة، وهو ما لم نفعله).

والآن لنلق نظرة معا على الرسم الموضح في الصفحة التالية. طلب الباحثون من الشخص موضوع الاختبار أن ينظر إلى القالب المرسوم في رأس الصفحة وأن يستخرج صورة «طائر يجري» و«طائر يطير» عن طريق ترتيب عدد من القطع مع بعضها ترتيبا صحيحا. (وحتى نريح القارئ من مشكلة عمل هذه الصور قدمنا الإجابات أسفل الصفحة). ويشبه هذا البند ما يطالب به «مركز خدمة القياس التربوي Educational Testing Service لقياس استعداد العلاقات المكانية spatial relations aptitude لدى طلاب السنة النهائية بالمدرسة العليا. وهذه في الحقيقة مشكلة تجاوز عمرها الألف سنة والتي صممت لغرض اختيار كبار موظفي الإدارة في الصين. والمعروف أن الصينيين واليابانيين اليوم، وأيا كان السبب، يعلمون تلاميذ المدارس الابتدائية كيفية حل مشكلات كهذه. علاوة على هذا فإن الأنواع المحددة من التحليل المكاني اللازم لقراءة وكتابة اللغة التصويرية، وكذا الطبيعة الكلية للثقافات الشرق آسيوية كل هذا من شأنه، كما يبدو، غرس المهارات المكانية. والحقيقة أن أبناء شرق آسيا والأمريكيين من أصول شرق آسيوية جميعهم بوجه عام يتفوقون على الأمريكيين الأوروبيين في المهام المكانية.



المشكلة: استخراج قصاصات تصنع صورة طائر يطير وطائر يجري من الأشكال الموضحة عاليه



(الفوارق عادة كبيرة جدا - إنه نموذجيا الجزء الأفضل من الانحراف المعياري). وإذا كان ثمة سبب لافتراض أن المجموعات جرى اختيارها كعينات عشوائية (وهو ما لم يحدث) فإن هذا ربما يحث البعض على الدفع بأن أبناء شرق آسيا أكثر ذكاء من جماعات من أبناء الثقافة الأوروبية. وهذه حقيقة. ونجد مثل هذا الرأي متضمنا بين ثنايا الكثير من القضايا المبهمة في كتاب «منحنى الجرس» تأليف ريتشارد هيرنشتاين وشارلس موراي - علاوة على هذا التأكيد بأن النتيجة المكتشفة دليل قوي على الأساس الجيني للاختلاف، طالما وأن هذه الاختبارات المكانية مبرأة كما هو واضح من القيود الثقافية.

ونعرف أن التنوع العرقي أمر صادف ترحيبا لأسباب كثيرة على اختلاف أنواعها. ونذكر أن من بين هذه الأسباب أن البيئات التعليمية والعملية تثري وتغتني بفضل سكانها ذوي الخلفيات المتنوعة. وجدير



بالذكر أن دراستنا تدعم بقوة الدفع بأن الآراء المتنوعة من شأنها أن تساعد في حل المشكلة. ونعرف أن التوجهات والمهارات المعرفية لدى أبناء شرق آسيا والثقافات الأوروبية بينها اختلاف واضح. لذلك يبدو لنا أنه من المرجح جدا أنها جميعا تكمل وتثري بعضها بعضا في أي مجال يجمع بينها. ولنا أن نتوقع أن المرء إذ يتصدى لحل المشكلات سيكون في وضع أفضل وسط خليط من الناس من ذوي الثقافات المختلفة عن أن يكون كل من حوله من أبناء ثقافة واحدة.

بيد أن بقاء وصمود ميزة التنوع رهن اهتمامنا وانشغالنا بعملية تكفل إضفاء التجانس على الصعيد العالمي.



الخاتمة

نهاية علم النفس أم صدام ذهنيات؟

علماء الاجتماع في ميادين كثيرة يناقشون الآن نظرتين عن المستقبل بينهما خلاف شديد، إحداهما يتزعمها العالم السياسي فرنسيس فوكوياما، الذي يفترض تلاقي المنظومات العالمية السياسية والاقتصادية، وبالتالي منظومات القيم. وتتنبأ النظرة الأخرى باستمرار الاختلاف. كتب فوكوياما عن «نهاية التاريخ» بمعنى أن الرأسمالية والديموقراطية فازتا، ولا توجد قوى في الأفق يمكن أن تتولد عنها أحداث مهمة (كما هي حال اللعنة الصينية، ونتمنى له طول العمر في أزمنة مهمة). النظرة الأخرى يتزعمها عالم السياسة صمويل هنتنجتون ويتنبأ باستمرار الاختلاف. إن هنتنجتون أبعد ما يكون عن قبول رؤية فوكوياما عن التلاقي المجتمعي ويعلن أن العالم على حافة «صدام حضارات» بين جماعات ثقافية رئيسية من بينها شرق آسيا والإسلام والغرب. وهذه القوى محصورة داخل تضاد فيما بينها لا فكاك منه بسبب الاختلافات التي لا يمكن التوفيق بينها من حيث القيم والنظرة إلى العالم:«نحن

> «إذا كانت الممارسات والقيم والمعتقدات الاجتماعية والأفكار العلمية مآلها إلى تلاق، إذن لنا أن نتوقع أن الاختلافات في عمليات الفكر ستبدأ هي الأخرى في التلاشي»
>
> **المؤلف**



على عتبة عالم بازغ زاخر بالصراع العرقي والصدام الحضاري». وإن عقيدة الغرب المؤمنة بكونية وشمولية الثقافة الغربية تعاني في هذا العالم الآن من ثلاث مشكلات: هي زائفة ولا أخلاقية وخطرة.

وطبيعي إذا كانت أشكال النظم الاقتصادية ونظم الحكم واحدة في كل مكان في العالم، فإن هذا يشير إلى أن الخصائص النفسية للشعوب ستكون واحدة أيضا. ولكن من ناحية أخرى يشير صدام الحضارات إلى إمكان اطراد التباين في عادات الفكر. فهل هذا يعني أن الفوارق المعرفية التي وثقها هذا الكتاب ستتحول لتصبح مجرد اهتمام تاريخي؟ هل مآلها أن تختفي بعد خمسين أو مائة عام بسبب تلاقي القيم والمنظومات الاجتماعية؟ وهل سيصبح أصحاب النظرة الكونية الكلية على صواب وإن كان ذلك لأسباب خاطئة؟ (صواب لأن كل امرئ سيفكر بالطريقة نفسها، وخطأ لأن أسباب ذلك لن تكون أسبابا بيولوجية بل ثقافية). أم أن الفوارق ستبقى ـ مثلما بقيت آلاف السنين؟

هل هو التغريب؟

آراء فوكوياما تأخذ بألباب كثيرين في الغرب، ربما الأمريكيون بخاصة، ممن ينزعون إلى افتراض أن كل إنسان هو أمريكي الهوى والفكر في قلبه، وإن لم يكن كذلك فإن المسألة مسألة وقت فقط ليكون كذلك. وثمة أدلة سطحية الطابع كثيرة العدد تدعم هذا الاعتقاد. الناس في كل بلدان العالم يرتدون الجينز وال تي ـ شيرت والأحذية النايك ويشربون الكوكاكولا ويستمعون إلى الموسيقى الأمريكية، ويشاهدون سينما وبرامج تليفزيونية أمريكية (حتى فرنسا أحست أخيرا أنه من الضروري أن تسمح بنسبة من برامج التليفزيون أمريكية المنشأ تصل إلى ٢٥ في المائة من إجمالي المعروض. ونجدها من ناحية أخرى استسلمت في مجال اللغة وقررت أن يتعلم تلاميذ المدارس الابتدائية الفرنسية اللغة الإنجليزية). وأكد لي باحثون من شرق آسيا أن التعليم العالي في شرق آسيا تغلب عليه طبيعة غربية متزايدة ـ التأكيد على التحليل والنقد والمنطق والنهج الشكلي في حل المشكلات.

ونجد بعض الشواهد والأدلة على أن التنشئة الاجتماعية للأطفال في شرق آسيا تتجه نحو النمط الغربي. وسبق أن رصد هارولد ستيفنسون وزملاؤه أمهات الأطفال في مدرسة ابتدائية محددة في بكين على مدى أكثر



من عقد ابتداء من منتصف الثمانينيات. وسألوهن عما يرونه لأطفالهن. كانت الأمهات، وقت بداية هذه الدراسة، يعنيهن تنمية مهارات العلاقات لدى أطفالهن ـ قدرتهن على التلاؤم مع الآخرين في تناغم. وبعد عشر سنوات كانت الأمهات معنيات أساسا بما يعني الأمهات في الغرب: هل توافرت لابني المهارات والروح الاستقلالية ليمضي قدما في طريقه في العالم؟

ومنذ بضع سنوات خلت شرعت أنا وكايينج بنج ونانسي وونج في مشروع دراسي للتأكد من أن كثيرا من الدراسات الاستقصائية عن القيم كانت تعرض فعلا وصدقا أن أبناء شرق آسيا أفادوا بأنهم يؤمنون بقيم «غربية» ويتمسكون بها بقوة أكثر من الغربيين أنفسهم. واكتشفنا نحن أنفسنا ـ للحقيقة ـ أن طلاب جامعة بكين أفادوا بأنهم يعلون من قيمة المساواة والقدرة التخييلية Imaginativeness والاستقلال واتساع أفق التفكير والحياة المتنوعة وكانوا في تقييمهم هذا أكثر من طلاب جامعة ميتشيجان. هذا بينما أفاد طلاب ميتشيجان بأنهم يعلون من قيمة الانضباط الذاتي والولاء، بل واحترام التقليد واحترام الأبوين والمسنين؛ وكانوا في هذا أكثر مما كان طلاب جامعة بكين! (خبرتي الشخصية كأب لطالبين في جامعة ميتشيجان تجعلني أشك للغاية في هذه النتيجة). إن النتائج الغريبة ربما ترجع جزئيا إلى أن قوائم حصر القيم بل ومقاييس الاتجاهات النفسية ليست وسائل جيدة جدا للكشف عن القيم. ويلاحظ أننا حين عرضنا سيناريوهات تتضمن بشكل متكاثر قيما متعارضة وسألنا المشاركين كيف لهم أن يتصرفوا في مثل تلك المواقف؟ أو ماذا يفضلون أن يكون عليه سلوك الآخرين؟ حصلنا على نتائج تناظر توقعات الباحثين الأمريكيين والشرق آسيويين الذين يدرسون شرق آسيا. ولكن إذا كانت هناك أي درجة من الصدق في الفكرة القائلة بأن الناس ينزعون إلى أن يصبحوا بالصورة التي يحاولون أن يكونوا عليها أو أن يكونوا مرآة لما يقولونه عن أنفسهم فإن عمليات المسح القيمي يمكن أن تكون نبوءة بالمستقبل.

هل تباعد مطرد؟

يذهب هنتنجتون إلى القول بأن افتراض أن ثقافات العالم ستتمثلها وتستوعبها ثقافات الغرب هو وهم ناشئ عن قصر نظر ومحورية عرقية. ذلك أن الفوارق المجتمعية كبيرة جدا بحيث إن النزاعات الدولية مستقبلا ستكون



أقرب إلى نزاعات ثقافية المنشأ منها إلى نزاعات اقتصادية أو سياسية مثلما كانت في الماضي. إن الإسلام وشرق آسيا (وبخاصة الصين) والغرب على مسارات ثقافية متباعدة. كذلك فإن النفوذ النسبي للغرب آخذ في الانخفاض بسبب التقدم الاقتصادي في الشرق الأقصى والزيادة السكانية للإسلام. لذا ليس بالضرورة أن يكون العالم آمنا للديموقراطية وللأسواق الحرة.

هناك دليل يقينا يحفز المرء على الدعوة إلى مساندة هذا الرأي.

تطبق اليابان نظام الاقتصاد الرأسمالي منذ أكثر من مائة عام، ولنا أن نتوقع أن يدعم النظام الرأسمالي قيم الاستقلال والحرية والعقلانية. ولكن ثمة شواهد لا حصر لها تدل على أن اليابان تغيرت قليلا في كثير من المجالات الاجتماعية، ونجد اختلافات كبيرة بين طريقة كل من اليابانيين والأمريكيين في إدراك العالم والتفكير فيه. وأكثر من هذا أن النظام الرأسمالي نفسه تبدل ليتسق مع القيم الاجتماعية اليابانية. الولاء للشركة وروح الفريق والإدارة الاستشارية Consultative management والنهج التعاوني بين الصناعات، كل هذه التحولات نابعة من القيم الاجتماعية اليابانية. واعتقد كثيرون أن هذه القيم مسؤولة أساسا عن «المعجزة اليابانية» للتطوير الاقتصادي خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وسادت في الحقيقة دعوة منذ خمسة عشر عاما مضت إلى أن على الغرب أن يتحول إلى الأشكال اليابانية في الإدارة وممارسة الأعمال ليكون قادرا على المنافسة. وطبيعي أن الأزمة الاقتصادية الراهنة التي تواجهها اليابان يعزوها كثيرون في الأساس إلى هذه القيم الاجتماعية ذاتها مثلما كانت سببا في نجاحها السابق. والملاحظ أن كثيرين من المراقبين الغربيين يرون اليوم أن تلك القيم (التي كانوا يؤيدونها هم أنفسهم في السابق) بمنزلة عوائق أسفرت عن عزوف شديد عن تحجيم عدد العاملين واستعداد كبير لإقراض أصدقاء في شركات آفاقها الاقتصادية غامضة ومشكوك فيها.

وحققت اليابان لنفسها شكلا ديموقراطيا للحكم بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. ولكن دستورها كتبه الأمريكيون، وربما يقول كثيرون إن نظام الحكم يشبه إلى حد كبير نظاما أوليجاركيا (حكومة الأغنياء) أكثر منه نظام حكم ديموقراطيا ـ على الأقل حتى عهد قريب جدا. وليس واضحا على



أي حال ما هي الفترة الزمنية التي ينبغي أن يعيشها بلد ما في ظل الديموقراطية قبل أن يقرر المرء أن هذا البلد سيلتزم هذه السبيل خاصة حين يواجه توترات اقتصادية خطرة.

وتبدي الصين، بطبيعة الحال، اهتماما ضئيلا بالديموقراطية في هذه المرحلة ـ أو لنقل إنها في جميع الأحوال، تبدو وكأن قسطا كبيرا جرى اقتطاعه لأنصارها. هذا كما أن تبني الصين للرأسمالية أمر غير مقنع حتى هذه اللحظة. ويبدو أن كوريا أقبلت بقلب مفتوح على ممارسات السوق الحرة ولكن الديموقراطية لم يزد عمرها على خمس سنوات في هذا البلد. وغير خاف أن كلا البلدين يظلان في الأساس بطبيعة الحال بلدين شرق آسيويين بالمعنى المعرفي.

وكما لحظ هنتنجتون فإن الغربيين ينزعون إلى الخلط بين التحديث ـ بمعنى التصنيع ومزيد من البنية المهنية المعقدة وزيادة في الثروة والحراك الاجتماعي ومحو أوسع نطاق من الأمية والتوسع في المدن ـ والتغريب. ولكن ثمة مجتمعات أخرى غير اليابان أصبحت حديثة دون أن تصبح غربية. نذكر من بينها سنغافورة وتايوان، وهناك إيران ولكن بدرجة أقل. وإن أي إنسان يفترض أن التحديث يفضي فقط إلى مزيد من التغريب حري به أن يتمهل إزاء التقديرات الراهنة التي ترى أنه بحلول عام ٢٠٠٧ ستكون الأكثر شيوعا واستعمالا في شبكة الإنترنت هي اللغة الصينية. وحري أن يتمهل ثانية إزاء تنبؤ بعض الاقتصاديين بأنه خلال بضع سنوات فقط ستكون نصف الرحلات الجوية العالمية عبر المحيط الهادي.

صفوة القول أن القيم سيطرد تباعدها وأن أي إنسان يرى غير ذلك إنما يخلط ما بين شرب الكوكاكولا وبناء الكمبيوتر وبين التغريب.

هل من تلاق؟

ولكن ثمة رؤية ثالثة يجدر أن نفكر فيها، وهي أن العالم يمكن أن يكون على طريق التلاقي وليس اطراد التباعد، غير أنه تلاق ليس مبنيا على أساس التغريب الخالص بل وأيضا التشريق، علاوة على صور معرفية جديدة هي مزيج من المنظومات والقيم الاجتماعية.



وتوجد مؤشرات مؤكدة على أن الغرب يصادف قبولا وهوى في الشرق. إذ بينما يشرب بقية العالم الكوكاكولا ويرتدي الجينز نجد الغربيين يضيفون إلى أطعمتهم أطعمة شرقية. وها هي كوريا أصبح ثلث سكانها مسيحيين، غير أن منتجعات لا حصر لها في جبال كاتسكيل كانت في السابق توفر الطعام لزبائن يهود من الطبقة الوسطى تتحول سريعا الآن إلى مراكز لدراسة البوذية - التي تكسب أنصارا لها في الولايات المتحدة يتزايدون بمعدل أسرع من المذهب البروتستانتي الرئيسي. ونرى الآن كثيرا من الأطباء الغربيين يقبلون بعض الأفكار العامة عن الطب الكلي؛ أي الذي يعتمد على النظرة الكلية للإنسان والبيئة. وأكثر من هذا أن الأطباء يوصون الآن بطرق علاج شرق آسيوية قديمة بديلا عن وسائل العلاج الغربية الحديثة لعلاج أمراض تبدأ من الصداع وحتى الغثيان. وأهم من ذلك شيوع الحاجة إلى علاج الإنسان ككيان شامل بدلا من مهاجمة المشكلة الجزئية. ويمارس ملايين الأمريكيين الآن رياضة اليوجا وتاي تشي. كما أن أمريكيين كثيرين ممن رأوا تقاليد النزعة الفردية تفضي بهم إلى حالة من الاغتراب بدأوا يتطلعون إلى أشكال تراثية في المجتمعات الشرق آسيوية ويرونها علاجا لحالة الخواء أو الأنوميا الاجتماعية. وتطبق مؤسسات صناعية كاملة أشكال العلاقات الجامعة بين أصحاب الأعمال والعاملين والتي كانت اليابان رائدة لها. وبينما يتعلم أبناء شرق آسيا التأكيد على الحوار والمناقشة في التعليم، يجري الغربيون تجارب مع المنظومات المنطقية التي لا تستلزم أن تكون القضية إما خطأ أو صوابا. وجدير بالذكر أن علماء الفيزياء العظام في القرن العشرين من أمثال نلز بور إنما حققوا إسهاماتهم والتقدم في ميكانيكا الكوانطا نتيجة تقييمهم لأفكار شرق آسيوية، وبينما كان علماء الرئيسات في الغرب يؤمنون بأن رابطة الأم - الطفل هي وحدها العلاقة المهمة بالنسبة إلى قردة الشمبانزي، كان علماء الرئيسات من اليابانيين يرون أن ثمة علاقات متداخلة ومعقدة داخل مجتمعات الشمبانزي المستقرة. ورفض الغرب بداية هذه النظرة اليابانية التي أصبحت مقبولة الآن بالإجماع في هذا المجال. وأود أن أوضح أيضا نقطة لم أركز عليها، وهي أنني مدين بأفكاري في هذا الكتاب لمفكرين ومجربين من شرق آسيا بقدر ما أنا مدين لمفكرين ومجربين من الغرب. وإني على ثقة من أن دخول شرق آسيا إلى مجال العلوم الاجتماعية سيؤدي إلى تحول جذري في طريقة تفكيرنا ورؤيتنا عن الفكر والسلوك البشريين.



وإذا كانت الممارسات والقيم والمعتقدات الاجتماعية والأفكار العلمية مآلها إلى تلاق، إذن لنا أن نتوقع أن الاختلافات في عمليات الفكر ستبدأ هي الأخرى في التلاشي. وثمة شواهد في الحقيقة تدل على حدوث تغيرات في الممارسات الاجتماعية، بل وتغيرات طرأت على الحالات الوقتية للتوجه الاجتماعي، وهو من شأنه أن يغير طريقة الإدراك الحسي والتفكير عند الناس.

ولنتذكر أن دراساتنا شارك فيها أمريكيون آسيويون، ونظرا إلى أن لهم خبراتهم الاجتماعية المختلفة أشد الاختلاف عن خبرات أبناء شرق آسيا، فإن لنا أن نتوقع أن مدركاتهم وأنماط فكرهم ستشبه مدركات وأنماط فكر غيرهم من الغربيين بدرجة كبيرة. وحقيقة الأمر أن أنماط الإدراك وأساليب التفكير عند هؤلاء المشاركين كانت دائما في موقع وسط بين أبناء شرق آسيا والأمريكيين الأوروبيين، وأحيانا نكاد لا نميزها عن أنماط الإدراك وأساليب التفكير عند الأمريكيين الأوروبيين.

وثمة دراسة أخرى لشعوب هي أصلا ثنائية الثقافة تفيد بأن قابلية التعديل المعرفية أمر ممكن. وتشير الدلائل إلى أن هذه الشعوب لا تسودها فقط قيم ومعتقدات تتوسط بين ثقافتين بل إن عملياتها المعرفية يمكن أن تحتل أيضا موقعا وسطا ـ أو أنها على الأقل تستطيع أن تتناوب بين شكلين للتفكير كل منهما يميز ثقافة عن الأخرى. وجدير أن نتذكر هنا دراستنا عن الإدراك السببي التي أوضحت أن جماعات من هونج كونج بإمكانهم أن «يتفوقوا» عندما نعرض عليهم رموزا غربية مثل ميكي ماوس ومبنى الكابيتول في الولايات المتحدة، وأن هذا يحفزهم على الإجابة عن المسائل المتعلقة بالأسباب بأسلوب يغلب عليه الطابع الغربي بأفضل مما لو كنا عرضنا عليهم رموزا من شرق آسيا مثل المعابد أو حيوان التنين. وأجاب الأمريكيون الآسيويون، هم بالمثل أيضا، عن أسئلة تتعلق بالسببية الفيزيقية بأسلوب يغلب عليه الطابع الغربي حين طلبنا منهم بداية أن يتذكروا خبرة تجعل هويتهم كأمريكيين واضحة، عما لو كنا طلبنا منهم أن يتذكروا خبرة تبرز هويتهم كشرق آسيويين.

ووجد كل من شينوبو كيتاياما وزملائه براهين تثبت إمكان تعديل العمليات المعرفية حتى بعد مضي فترة زمنية محدودة نسبيا في ظل ثقافة أخرى. وأجروا تجربة رائعة، إذ عرضوا على مشاركين يابانيين وأمريكيين أمثلة



عديدة لخط مرسوم داخل مربع. ثم اصطحبوهم إلى ناحية أخرى من القاعة وعرضوا عليهم صورة مربع مختلف الحجم عن الأول. وطلبوا منهم رسم خط داخل المربع بالطول نفسه للخط الذي رأوه أو أقرب ما يكون إليه. كان الأمريكيون أدق في رسم الخط إذ كان مساويا تماما في طوله، مما يدل على أنهم كانوا أقدر من اليابانيين على إغفال السياق. وكان اليابانيون أدق في رسم خط له الطول نفسه نسبيا، مما يكشف عن أنهم كانوا أقدر على الربط بين الموضوع والسياق. خطا بعد ذلك كيتاياما وزملاؤه خطوة أبعد وتأملوا سلوك الأمريكيين الذين عاشوا في اليابان لفترة من الزمن (بضعة شهور عادة) وإلى اليابانيين الذين عاشوا في أمريكا لفترة من الزمن (بضعة شهور عادة). لوحظ أن الأمريكيين تحولوا إلى اتجاه ياباني دون أي شك. كذلك كانت حال اليابانيين الذين عاشوا في أمريكا، لم يكن بالإمكان عمليا تمييزهم عن الأمريكيين أبناء البلد. وغني عن البيان أن الدراسة لا تثبت حقيقة أن قضاء وقت في ظل ثقافة أخرى يؤدي إلى مثل هذه التغيرات الدرامية في السلوك. إذ ثمة تفسيرات أخرى من بينها مثلا احتمال أن يكون من ذهبوا للعيش في ثقافة أخرى كانوا يحبونها جدا أصلا قبل رحيلهم إليها. بيد أن النتائج تشير بقوة إلى أن العمليات المعرفية يمكن أن تتعدل لمجرد أن يعايش المرء ثقافة أخرى لفترة من الزمن.

ويمكن القول بمعنى ما إننا جميعا «ثنائيو الثقافة» بالنسبة إلى القيود الاجتماعية والمصلحة الاجتماعية. إن إدراكنا للروابط مع الآخرين، وحجم رغبتنا في الارتباط بالآخرين مسألة تتباين من وقت إلى آخر. هل هذه الاختلافات المتأرجحة في مدى الصلة الوثيقة بالآخرين مقترنة بالاختلافات في الإدراك وفي الفكر؟ أذكر هنا أن عالم علم النفس الاجتماعي أولريتش كوهنين وزملاءه أشرفوا على بعض الدراسات المهمة التي تشير إلى أن التغيرات المعملية البسيطة في التوجه الاجتماعي لها أثرها في الطريقة التي نفكر بها. مثال ذلك حاولوا «غرس» توجه تكافلي جمعي عن طريق مطالبتهم للمشاركين في التجربة بأن يقرأوا فقرة ويضعوا دائرة حول ضمائر الجمع للمتكلمين (نحن، نا ...إلخ) كما حاولوا غرس توجه مستقل فردي بأن طلبوا من المشاركين رسم دائرة حول ضمائر المفرد المتكلم (أنا، «ي» المتكلم ...إلخ) ووجدوا أن المشاركين الذين غرسوا فيهم توجه التكافل كانوا ممن يعتمدون

على المجال في إدراكهم أكثر من المشاركين الذين غرسوا فيهم توجه الاستقلال كما يوضح اختبار الأشكال المطمورة Embedded Figures Test معنى هذا أنهم وجدوا أن من الصعوبة بمكان إدراك شكل بسيط وسط سياق أكثر تعقدا. واستخدم كوهنين ودافنا أويزرمان أسلوب المعالجة اليدوية ذاته ووجدا أن الناس لديهم القدرة على تذكر السياقات التي رأوا فيها موضوعات محددة ـ نتيجة الربط الإدراكي بين الموضوع والمجال ـ وأن قدرتهم بعد غرس توجه التكافل أفضل منها بعد غرس توجه الاستقلال.

وهكذا نحن جميعا نكون في مجالات ما أكثر شبها بأبناء شرق آسيا حينا من الوقت، وأكثر شبها بالغربيين حينا آخر. لذلك لنا أن نتوقع أن تحولا يطرأ على الممارسات الاجتماعية المميزة من شأنه أن يؤدي إلى تحول في الأنماط القياسية للإدراك والفكر.

لهذا أومن بأن الاثنين سيلتقيان بفضل تحرك كل منهما في اتجاه الآخر. الشرق والغرب يمكن أن يسهما في نشوء عالم مزيج حيث تتمثل الجوانب الاجتماعية والمعرفية لكل من الإقليمين، ولكن في صورة متحولة، تماما مثل المكونات الفردية لطعام ما حيث يمكن تمييزها وإن تغيرت وتغير معها الكل. ولعلنا لا نبالغ في الأمل بأن هذا الطعام سيحتوي على أفضل ما في الثقافتين.




المراجـــع

Abelson, R. P.(1995). Statistics as Principled Argument. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Allen, S.W., and Brooks, L. R. (1991). Specializing in the operation of an explicit rule. Journal of Experimental Social Psychology, General 120, 3-19.

Atran, S. (1998)."Folk biology and the anthropology of science: Cognitive universals and cultural particulars." Behavioral and Brain Sciences 21, 547-569.

Azuma, H. (1994). Education and Socialization in Japan. Tokyo: University of Tokyo Press.

Bagozzi, R .P .,Wong, N, and Yi, Y.(1999)."The role of culture and gender in the relationship between positive and negative affect." Cognition and Emotion 13, 641-672.

Barry, H., Child, I., and Bacon, M. (1959). Relation of child training to subsistence economy. American Anthropologist 61, 51- 63.

Basseches, M. (1980)."Dialectical schemata: A framework for the empirical study of the development of dialectical thinking." Human Development 23, 400-421.

------------- (1984). Dialectical Thinking and Adult Development. New Jersey: Ablex.

Becker, C. B. (1986). "Reasons for the lack of argumentation and debate in the Far East." International Journal of Intercultural Relations 10, 75-92.

Bellah, R. (1957/1985). Tokagawa Religion: The Cultural Roots of Modem Japan. New York: Free Press.

Berry, J. W. (1976). Human Ecology and Cognitive Style: Comparative Studies in Cultural and Psychological Adaptation. New York: Sage/Halsted.

Berry, J. W., and Annis, R. C. (1974). "Ecology, culture and differentiation." International Journal of Psychology 9, 173-193.

Bond, M. H., and Cheung, T. S. (1983). "College students' spontaneous self-concept: The effect of culture among respondents in Hong Kong, Japan, and the United States." Journal of Cross-Cultural Psychology 14, 153-171.

Borges, J. L. (1966). Other Inquisitions 1937-1952. New York: Washington Square Press.



Briley, D. A., Morris, M., and Simonson, I. (2000). "Reasons as carriers of culture: Dynamic vs. dispositional models of cultural influence on decision making." Journal of Consumer Research 27, 157-178.

Cao, C. J. (1982). Explanation of Zhung Zi. Beijing: Zhong Hua Publishing House.

Chalfonte, B. L., and Johnson, M. K. (1996). "Feature memory and binding in young and older adults." Memory and Cognition 24, 403-416.

Chan, W. T. (1967). "The story of Chinese philosophy." In C. A. Moore (ed.), The Chinese Mind: Essentials of Chinese Philosophy and Culture. Honolulu: East-West Center Press.

------------ (1967). "Chinese theory and practice, with special reference to humanism." In C. A. Moore (ed.), The Chinese Mind: Essentials of Chinese Philosophy and Culture. Honolulu: East-West Center Press.

Cheung, F. M., Leung, K., Fang, R. M., Song, W. Z., Zhang, J. X., and Zhang, J. P. (in press). "Development of the Chinese personality assessment inventory." Journal of Cross-Cultural Psychology.

Cheung, F. M., Leung, K., Law, J. S., and Zhang, J. X. (1996). "Indigenous Chinese Personality Constructs." Paper presented at the XXVI International Congress of Psychology, Montreal, Canada.

Chiu, L.-H. (1972). "A cross-cultural comparison of cognitive styles in Chinese and American children." International Journal of Psychology 7, 235-242.

Choi, I. (1998). The cultural psychology of surprise: Holistic theories, contradiction, and epistemic curiosity. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor.

------------ (2001). The conflicted culture or who reads fortune-telling? Unpublished manuscript, Seoul National University.

Choi, I., Dalal, R., and Kim-Prieto, C. (2000). Information search in causal attribution: Analytic vs. holistic. Unpublished manuscript, Seoul National University.

Choi, I., and Nisbett, R. E. (1998). "Situational salience and cultural differences in the correspondence bias and in the actor-observer bias." Personality and Social Psychology Bulletin 24, 949-960.



------------ (2000). "The cultural psychology of surprise: Holistic theories and recognition of contradiction." Journal of Personality and Social Psychology 79, 890-905.

Choi, I., Nisbett, R. E., and Smith, E. E. (1997). "Culture, categorization and inductive reasoning." Cognition 65, 15-32.

Cohen, D., and Gunz, A. (2002). As seen by the other . . . : The self from the "outside in" and the "inside out" in the memories and emotional perceptions of Easterners and Westerners. Unpublished manuscript: University of Illinois.

Cohen, R. (1997). Negotiating Across Cultures: International Communication in an Interdependent World. Washington, D.C.: United States Institute of Peace Press.

Cole, M., Gay, J., Glick, J. A., and Sharp, D. W. (1971). The Cultural Context of Learning and Thinking. New York: Basic Books.

Cole, M., and Scribner, S. (1974). Culture and Thought: A Psychological Introduction. New York: Wiley.

Cousins, S. D. (1989). "Culture and self-perception in Japan and the United States." Journal of Personality and Social Psychology 56, 124-131.

Cromer, A. (1993). Uncommon Sense: The Heretical Nature of Science. New York: Oxford University Press.

Darley, J. M., and Batson, C. D. (1973). "From Jerusalem to Jericho: A study of situational and dispositional variables in helping behavior." Journal of Personality and Social Psychology 27, 100-119.

Dershowitz, Z. (1971). "Jewish subcultural patterns and psychological differentiation." International Journal of Psychology 6, 223-231.

Diamond, J. (1997). Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies. New York: Norton.

Dien, D. S.-f. (1997). Confucianism and Cultural Psychology: Comparing the Chinese and the Japanese. Hayward, CA: California State University.

------------. (1999). "Chinese authority-directed orientation and Japanese peer-group orientation: Questioning the notion of collectivism." Review of General Psychology 3, 372-385.



Disheng, Y. (1990-91). "China's traditional mode of thought and science: A critique of the" theory that China's traditional thought was primitive thought." Chinese Studies in Philosophy, Winter, 43-62.

Dot, L.T. (1971/1981). The Anatomy of Dependence (2nd ed.). Tokyo: Kodansha.

------------. (1974). "Amae: A key concept for understanding Japanese personality structure." In R. J. Smith and R. K. Beardsley (eds.), Japanese Culture: Its Development and Characteristics. Chicago: Aldine.

Doris, J. M. (2002). Lack of Character: Personality and Moral Behavior. New York: Cambridge University Press.

Dyson, F. J. (1998, May 28). "Is God in the Lab?" New York Review of Books, pp. 8-10.

Eagle, M., Goldberger, L., and Breitman, M. (1969). "Field dependence and memory for social vs. neutral and relevant vs. irrelevant incidental stimuli." Perceptual and Motor Skills 29, 903-910.

Earley, P. C. (1989). "East meets west meets mideast: Further explorations of collectivistic and individualistic work groups." Academy of Management Journal 36, 565-581.

Erdley, C. A., and Dweck, C. S. (1993). "Children's implicit personality theories as predictors of their social judgments." Child. Development 64, 863-878.

Ervin, S. M., and Osgood, C. E. (1954). "Second language learning and bilin-gualism." Journal of Abnormal and Social Psychology 49, Supplement, 139-146.

Fernald, A., and Morikawa, H. (1993). "Common themes and cultural variations in Japanese and American mothers' speech to infants." Child Development 64, 637-656.

Fischhoff, B. (1975). "Hindsight ? Foresight: The effect of outcome knowledge on judgment under uncertainty." Journal of Experimental Psychology: Human Perception and Performance 1, 288-299.

Fiske, A. P., Kitayama, S., Markus, H. R., and Nisbett, R. E. (1998). "The cultural matrix of social psychology." In D. T. Gilbert, S. T. Fiske, and G. Lindzey (eds.), Handbook of Social Psychology (4th ed.), pp. 915-981. Boston: McGraw-Hill.



French, H. W. (2000, May 2). "Japan debates culture of covering up." New York Times, p. A12.

Fukuyama, F. (1992). The End of History and the Last Man. New York: Free Press.

Fung, Y. (1983). A History of Chinese Philosophy (D. Bodde, trans., vol. 1-2). Princeton: Princeton University Press.

Galtung, J. (1981). "Structure, culture, and intellectual style: An essay comparing saxonic, teutonic, gallic and nipponic approaches." Social Science Information 20, 817-856.

Gardner, W. L., Gabriel, S., and Lee, A. Y. (1999). " 'I' value freedom, but 'we' value relationships: Self-construal priming mirrors cultural differences in judgment." Psychological Science 10, 321-326.

Geary, D. Q, Salthouse, T. A., Chen, G-P., and Fan, L. (1996). "Are East Asian versus American differences in arithmetical ability a recent phenomenon?" Developmental Psychology 32, 254-262.

Gelman, S. A., and Tardif, T. (1998). "A cross-linguistic comparison of generic noun phrases in English and Mandarin." Cognition 66, 215-248.

Gentner, D. (1981). "Some interesting differences between nouns and verbs." Cognition and Brain Theory 4,161-178.

------------ (1982). "Why nouns are learned before verbs: Linguistic relativity vs. natural partitioning." In S. A. Kuczaj, ed., Language Development: Vol. 2. Language, Thought and Culture. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Gilbert, D. T, and Malone, P. S. (1995). "The correspondence bias." Psychological Bulletin 117, 21-38.

Glass, D. C., and Singer, J. E. (1973). "Experimental studies of uncontrollable and unpredictable noise." Representative Research in Psychology 4, 165-183.

Goodman, N. (1965). Fact, Fiction and Forecast (2nd ed.). Indianapolis: Bobbs-Merrill.

Gopnik, A., and Choi, S. (1990). "Do linguistic differences lead to cognitive differences? A cross-linguistic study of semantic and cognitive development." First Language JO, 199-215.



Graham, A. C. (1989). Disputers of the Tao. La Salle: Open Court Press.

Greene, L. R. (1973). "Effects of field independence, physical proximity and evaluative feedback, affective reactions and compliance in a dyadic interaction." Dissertation Abstracts International 34, 2284-2285.

Gries, P. H., and Peng, K. (2002). "Culture clash? Apologies East and West." Journal of Contemporary China 11, 173-178.

Hadingham, E. (1994). "The mummies of Xinjiang." Discover 15, 68-77.

Hall, E. T. (1976). Beyond Culture. New York: Anchor Books.

Hamilton, E. (1930/1973). The Greek Way. New York: Avon.

Hampden-Turner, C., and Trompenaars, A. (1993). The Seven Cultures of Capitalism: Value Systems for Creating Wealth in the United States, Japan, Germany, France, Britain, Sweden, and the Netherlands. New York: Doubleday.

Han, J. J., Leichtman, M. D., and Wang, Q. (1998). "Autobiographical memory in Korean, Chinese, and American children." Developmental Psychology 34, 701-713.

Han, S., and Shavitt, S. (1994). "Persuasion and culture: Advertising appeals in individualistic and collectivistic societies." Journal of Experimental Social Psychology 30, 326-350.

Hansen, C. (1983). Language and Logic in Ancient China. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Harman, G. (1998-1999). "Moral philosophy meets social psychology: Virtue ethics and the fundamental attribution error." Proceedings of the Aristotelian Society 1998-99, pp. 315-331.

Heath, S. B. (1982). "What no bedtime story means: Narrative skills at home and school." Language in Society 11, 49-79.

Hedden, T, Ji, L., Jing, Q., Jiao, S., Yao, C., Nisbett, R. E., and Park, D. C. (2000). Culture and age differences in recognition memory for social dimensions. Paper presented at the Cognitive Aging Conference, Atlanta.



Hedden, T, Park, D. C., Nisbett, R. E., Ji, L., Jing, Q., and Jiao, S. (2002). "Cultural variation in verbal versus spatial neuropsychological function across the lifespan." Neuropsychology 16, 65-73.

Heine, S. J., Kitayama, S., Lehman, D. R., Takata, T., Ide, E., Leung, C., and Matsumoto, H. (2001). "Divergent consequences of success and failure in Japan and North America: An investigation of self-improving motivation." Journal of Personality and Social Psychology 81, 599-615.

Heine, S. J., and Lehman, D. R. (1997). Acculturation and self-esteem change: Evidence for a Western cultural foundation in the construct of self-esteem. Paper presented at the second meeting of the Asian Association of Social Psychology, Kyoto, Japan.

Heine, S. J., Lehman, D. R., Markus, H. R., and Kitayama, S. (1999). "Is there a universal need for positive self-regard?" Psychological Review 106, 766-794.

Heine, S. J., Lehman, D. R., Peng, K., and Greenholtz, J. (2002). What's Wrong with Cross-cultural Comparisons of Subjective Likert Scales?: The Reference Group Effect. Unpublished manuscript, University of British Columbia, Vancouver, B.C..

Herrnstein, R. J., and Murray, C. (1994). The Bell Curve: Intelligence and Class Structure in American Life. New York: The Free Press.

Hofstede, G. (1980). Culture's Consequences: International Differences in Work-related Values. Beverly Hills: Sage.

Holmberg, D., Markus, H., Herzog, A. R., and Franks, M. (1997). Self-making in American Adults: Content, Structure and Function. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.

Hong, Y, Chiu, C., and Kung, T. (1997). "Bringing culture out in front: Effects of cultural meaning system activation on social cognition." In K. Leung, Y. Kashima, U. Kim, and S. Yamaguchi, eds., Progress in Asian Social Psychology 1. Singapore: Wiley, 135-146.

Hsu, F. L. K. (1953). Americans and Chinese: Two Ways of Life. New York: Schuman.



----------- (1981). "The self in cross-cultural perspective." In A. J. Marsella, B. D. Vos, and F. L. K. Hsu, eds., Culture and Self (pp. 24-55). London: Tavistock.

Huntington, S. P. (1996). The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order. New York: Simon & Schuster.

Imai, M., and Gentner, D. (1994). "A cross-linguistic study of early word meaning: Universal ontology and linguistic influence." Cognition 62, 169-200.

Ip, G. W. M., and Bond, M. H. (1995). "Culture, values, and the spontaneous self-concept." Asian Journal of Psychology 1, 29-35.

Iyengar, S. S., and Lepper, M. R. (1999). "Rethinking the role of choice: A cultural perspective on intrinsic motivation." Journal of Personality and Social Psychology 76, 349-366.

Iyengar, S. S., Lepper, M. R., and Ross, L. (1999). "Independence from whom? Interdependence from whom? Cultural perspectives on ingroups versus outgroups." In D. A. Prentice and D. T. Miller, eds., Cultural Divides: Understanding and Overcoming Group Conflict. New York: Russell Sage Foundation.

Ji, L., Peng, K., and Nisbett, R. E. (2000). "Culture, control, and perception of relationships in the environment." Journal of Personality and Social Psychology 78, 943-955.

Ji, L., Schwarz, N., and Nisbett, R. E. (2000). "Culture, autobiographical memory, and social comparison: Measurement issues in cross-cultural studies." Personality and Social Psychology Bulletin 26, 585-593.

Ji, L., Su, Y., and Nisbett, R. E. (2001). "Culture, prediction, and change." Psychological Science 12, 450-456.

Ji, L., Zhang, Z., and Nisbett, R. E. (2002). Culture, language and categorization. Unpublished manuscript, Queens University, Kingston, Ontario.

Jones, E. E., and Harris, V. A. (1967). "The attribution of attitudes." Journal of Experimental Social Psychology 3, 1-24.

Kaplan, R. D. (2001, December). "Looking the world in the eye." Atlantic Monthly, 68-82.



Kim, H. (in press). "We talk, therefore we think? A cultural analysis of the effect of talking on thinking." Journal of Personality and Social Psychology.

Kim, H., and Markus, H. R. (1999). "Deviance or uniqueness, harmony or conformity?: A cultural analysis." Journal of Personality and Social Psychology 77, 785-800.

King, A. Y.-c. (1991). "Kuan-hsi and network building: A sociological interpretation." Daedelus 120, 60-84.

Kinhide, M. (1976). "The cultural premises of Japanese diplomacy." In J. C. f. I. Exchange, ed., The Silent Power: Japan's Identity and World Role. Tokyo: Simul Press.

Kitayama, S., Duffy, S., and Kawamura, T. (2003). Perceiving an object in its context in different cultures: A cultural look at the New Look. Unpublished manuscript, Kyoto University, Kyoto.

Kitayama, S., Markus, H. R., and Lieberman, C. (1995). "The collective construction of self-esteem: Implications for culture, self, and emotion." In J. Russell, J. Fernandez-Dols, T. Manstead, and J. Wellenkamp, eds., Everyday Conceptions of Emotion: An Introduction to the Psychology, Anthropology, and Linguistics of Emotion. Dordrecht: Kluwer Academic Publishers.

Kitayama, S., Markus, H. R., Matsumoto, H., and Norasakkunit, V. (1997). "Individual and collective processes in the construction of the self: Self-enhancement in the United States and self-depreciation in Japan." Journal of Personality and Social Psychology 72, 1245-1267.

Kitayama, S., and Masuda, T. (1997). "Shaiaiteki ninshiki no bunkateki baikai model: taiousei bias no bunkashinrigakuteki kentou. [Cultural psychology of social inference: The correspondence bias in Japan.)." In K. Kashiwagi, S. Kitayama, and H. Azuma, eds., Bunkashinrigaju: riron to jisho. (Cultural Psychology: Theory and Evidence). Tokyo: University of Tokyo Press.

Kojima, H. (1984). "A significant stride toward the comparative study of control." American Psychologist 39, 972-973.



Korzybyski, A. (1933/1994). Science and Sanity: An Introduction to non-Aristotelian Systems and General Semantics. Englewood, NJ: Institute of General Semantics.

Krull, D. S, Loy, M., Lin, J, Wang, C.-F., Chen, S., and Zhao, X. (1996). The fundamental attribution error: Correspondence bias in independent and interdependent cultures. Paper presented at the 13th Congress of the International Association for Cross-Cultural Psychology, Montreal, Quebec, Canada.

Kühnen, U., Hannover, B., R?der, U., Schubert, B., Shah, A. A., and Zakaria, S. (2000). "Cross-cultural variations in identifying embedded figures: Comparisons from the U.S., Germany, Russia and Malaysia." Journal of Cross-Cultural Psychology 32, 365-371.

Kuhnen, U., Hannover, B., and Schubert, B. (2001). "The semantic-procedural interface model of the self: The role of self-knowledge for context-dependent versus context-independent modes of thinking." Journal of Personality and Social Psychology 80, 397-409.

Kuhnen, U., and Oyserman, D. (2002). Thinking About the Self Influences Thinking in General: Cognitive Consequences of Salient Self-concept. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.

Lambert, W. E., Havelka, J., and Crosby, C. (1958). "The influence of language acquisition contexts on bilingualism." Journal of Abnormal and Social Psychology 56, 239-244.

Langer, E. (1975). "The illusion of control." Journal of Personality and Social Psychology 32 ,311 -328.

Lao-Zi. (1993). The Book of Lao Zi. Beijing: Foreign Language Press.

Lee, F, Hallahan, M., and Herzog, T. (1996). "Explaining real life events: How culture and domain shape attributions." Personality and Social Psychology Bulletin 22, 732-741.

Leung, K. (1987). "Some determinants of reactions to procedural models for conflict resolution: A cross-national study." Journal of Personality and Social Psychology 53, 898-908.



Leung, K., Cheung, F. M., Zhang, J. X., Song, W. Z., and Dong, X. (in press). "The five factor model of personality in China." In K. Leung, Y. Kashima, U. Kim, and S. Yamaguchi, eds., Progress in Asian Social Psychology 1. Singapore: John Wiley.

Lin, Y. (1936). My Country and My People. London: William Heinemann.

Liu, S. H. (1974). "The use of analogy and symbolism in traditional Chinese philosophy." Journal of Chinese Philosophy 1, 313-338.

Liu, X. G. (1988). The Philosophy of Zhung Zi and Its Evolution. Beijing: The Social Science Press of China.

Lloyd, G. E. R. (1990). Demystifying Mentalities. New York: Cambridge University Press.

------------ (1991). "The invention of nature." In G. E. R. Lloyd, ed., Methods and Problems in Greek Science. Cambridge: Cambridge University Press.

Logan, R. F. (1986). The Alphabet Effect. New York: Morrow.

Lucy, J. A. (1992). Grammatical Categories and Cognition: A Case Study of the Linguistic Relativity Hypothesis. New York: Cambridge University Press.

Mao, T.-t. (1937/1962). Four Essays on Philosophy. Beijing: People's Press.

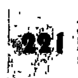
Markus, H., and Kitayama, S. (199la). "Cultural variation in the self-concept." In J. Strauss and G. R. Goethals, eds., The Self: Interdisciplinary Approaches. New York: Springer-Verlag.

------------ (1991b). "Culture and the self: Implications for cognition, emotion, and motivation." Psychological Review 98, 224-253.

Masuda, T, and Nisbett, R. E. (2001). "Attending holistically vs. analytically: Comparing the context sensitivity of Japanese and Americans." Journal of Personality and Social Psychology 81, 922-934.

------------ (2002). Change blindness in Japanese and Americans. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.

McGuire, W. J. (1967). "Cognitive consistency and attitude change." In M. Fishbein, ed., Attitude Theory and Measurement (pp. 357-365). New York: John Wiley.



McNeil, W. H. (1962). The Rise of the West: A History of the Human Community. Chicago: University of Chicago Press.

McRae, R. R., Costa, P. T, and Yik, M. S. M. (1996). "Universal aspects of Chinese personality structure." In M. H. Bond, ed., The Handbook of Chinese Psychology. Hong Kong: Oxford University Press.

Meyer, D. E., and Kieras, D. E. (1997). "A computational theory of executive cognitive processes and multiple-task performance: I. Basic mechanisms." Psychological Review 104, 3-65.

Miller, J. G. (1984). "Culture and the development of everyday social explanation." Journal of Personality and Social Psychology 46, 961-978.

Miller, J. G., and Bersoff, D. M. (1995). "Development in the context of everyday family relationships: Culture, interpersonal morality, and adaptation." In M. Killen and D. Hart, eds., Morality of Everyday Life: A Developmental Perspective (pp. 259-282). Cambridge: Cambridge University Press.

Morling, B., Kitayama, S., and Miyamoto, Y. (in press). "Cultural practices emphasize influence in the U.S. and adjustment in Japan." Personality and Social Psychology Bulletin.

Morris, M., Leung, K., and Sethi, S. (1999). Person perception in the heat of conflict: Perceptions of opponents' traits and conflict resolution in two cultures. Unpublished manuscript, Stanford University.

Morris, M. W., and Peng, K. (1994). "Culture and cause: American and Chinese attributions for social and physical events." Journal of Personality and Social Psychology 67, 949-971.

Moser, D. J. (1996). Abstract thinking and thought in ancient Chinese and early Greek societies. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor.

Mote, F. W. (1971). Intellectual Foundations of China. New York: Knopf.

Munro, D. (1985). Introduction. In D. Munro, ed., Individualism and Holism: Studies in Confucian and Taoist Values (pp. 1-34). Ann Arbor: Center for Chinese Studies, University of Michigan.



Munro, D. J. (1969). The Concept of Man in Early China. Stanford, CA: Stanford University Press.

Nagashima, N. (1973). "A reversed world: Or is it?" In R. Horton and R. Finnegan, eds.. Modes of Thought. London: Faber and Faber.

Nakamura, H. (1964/1985). Ways of Thinking of Eastern Peoples. Honolulu: University of Hawaii Press.

Nakayama, S. (1969). A History of Japanese Astronomy. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Needham, J. (1954). Science and Civilisation in China, Vol. 1. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

------------ (1962). Science and Civilisation in China: Physics and Physical Technology, Vol. 4. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Nisbett, R. E. (1992). Rules for Reasoning. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Nisbett, R. E., Caputo, C., Legant, P., and Maracek, J. (1973). "Behavior as seen by the actor and as seen by the observer." Journal of Personality and Social Psychology 27, 154-164.

Nisbett, R. E., Fong, G. T, Lehman, D. R., and Cheng, P. W. (1987). "Teaching reasoning." Science 238, 625-631.

Nisbett, R. E., Peng, K., Choi, I., and Norenzayan, A. (2001). "Culture and systems of thought: Holistic vs. analytic cognition." Psychological Review 108.291-310.

Nisbett, R. E., and Ross, L. (1980). Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Norenzayan, A. (1999). Rule-based and experience-based thinking: The cognitive consequences of intellectual traditions. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Norenzayan, A., Choi, I., and Nisbett, R. E. (2002). "Cultural similarities and differences in social inference: Evidence from behavioral predictions and lay theories of behavior." Personality and Social Psychology Bulletin 28, 109-120.



Norenzayan, A., and Kim, B. J. (2002). A cross-cultural comparison of regulatory focus and its effect on the logical consistency of beliefs. Unpublished manuscript, University of British Columbia, Vancouver, B.C.

Norenzayan, A., Smith, E. E., Kim, B. J., and Nisbett, R. E. (in press). "Cultural preferences for formal versus intuitive reasoning." Cognitive Science.

Ohbuchi, K. I., and Takahashi, Y. (1994). "Cultural styles of conflict management in Japanese and Americans: Passivity, covertness, and effectiveness of strategies." Journal of Applied Psychology 24, 1345-1366.

Osherson, D. N., Smith, E. E., Wilkie, O., Lopez, A., and Shafir, E. (1990). "Category-based induction." Psychological Review 97, 185-200.

Park, D., Hedden, T, Jing, Q., Shulan, J., Yao, C., and Nisbett, R. E. (2002). Culture and the aging mind. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Peng, K. (1997). Naive dialecticism and its effects on reasoning and judgment about contradiction. Unpublished Ph.D. thesis. University of Michigan, Ann Arbor, MI.

----------- (2001). "Psychology of dialectical thinking." In N. J. Smelser and P. B. Baltes, eds., International Encylopedia of the Social and Behavioral Sciences, Vol. 6 (pp. 3634-3637). Oxford: Elsevier Science.

Peng, K., Keltner, D., and Morikawa, S. (2002). Culture and judgment of facial expression. Unpublished manuscript, University of California, Berkeley.

Peng, K., and Knowles, E. (in press). "Culture, ethnicity and the attribution of physical causality." Personality and Social Psychology Bulletin.

Peng, K., and Nisbett, R. E. (1999). "Culture, dialectics, and reasoning about contradiction." American Psychologist 54, 741-754.

Peng, K., and Nisbett, R. E. (2000). Cross-cultural Similarities and Differences in the Understanding of Physical Causality. Unpublished manuscript, University of California, Berkeley.

Peng, K., Nisbett, R. E., and Wong, N. (1997). "Validity problems of cross-cultural value comparison and possible solutions." Psychological Methods 2, 329-341.



Piedmont, R. L., and Chae, J. H. (1997). "Cross-cultural generalizability of the five-factor model of personality: Development and validation of the NEO-PI-R for Koreans." Journal of Cross-Cultural Psychology 28, 131-155.

Riegel, K. F. (1973). "Dialectical operations: The final period of cognitive development." Human Development 18, 430-443.

Rosemont, H., Jr. (1991). "Rights-bearing individuals and role-bearing persons." In M. I. Bockover, ed., Rules, Rituals and Responsibility: Essays Dedicated to Herbert Fingarette. LaSalle, Il: Open Court Press.

Ross, L. (1977). "The intuitive psychologist and his shortcomings." In L. Berkowitz, ed., Advances in Experimental Social Psychology, Vol. 10 (pp. 173-220). New York: Academic Press.

Sanchez-Burks, J., Lee, R, Choi, I., Nisbett, R. E., Zhao, S., and Koo, J. (2002). Conversing across cultural ideologies: East-West communication styles in work and non-work contexts. Unpublished manuscript. University of Southern California.

Sastry, J., and Ross, C. E. (1998). "Asian ethnicity and the sense of personal control." Social Psychology (Quarterly 61) 101-120.

Saul, J. R. (1992). Voltaire's Bastards: The Dictatorship of Reason in the West. New York: Random House.

Shih, H. (1919). Chung-kuo che-hsueh shi ta-kang (An Outline of the History of Chinese Philosophy). Shanghai: Commercial Press.

Shore, B. (1996). Culture in Mind: Cognition, Culture and the Problem of Meaning. New York: Oxford University Press.

Shweder, R., Balle-Jensen, L., and Goldstein, W. (in press). "Who sleeps by whom revisited: A method for extracting the moral goods implicit in praxis." In P. J. Miller, J. J. Goodnow, and F. Kessell, eds., Cultural Practices as Contexts for Development. San Francisco: Jossey-Bass.

Simons, D. J., and Levin, D. T (1997). "Change blindness." Trends in Cognitive Sciences 1, 261-267.



Sloman, S. (1996). "The empirical case for two systems of reasoning." Psychological Bulletin 119, 22 - 30.

Smith, L. B., Jones, S. S., Landau, B., Gershkoff-Stowe, L., and Samuelson, L. (2002). "Object name learning provides on-the-job training for attention." Psychological Science 13, 13-19.

Sowell, T, ed. (1978). Essays and Data on American Ethnic Groups. New York: The Urban Institute.

Stevenson, H. W., and Lee, S. (1996). "The academic achievement of Chinese students." In M. H. Bond, ed., The Handbook of Chinese Psychology (pp. 124-142). New York: Oxford University Press.

Stevenson, H. W., and Stigler, J. W. (1992). The Learning Gap: Why Our Schools Are Failing and What We Can Leam from Japanese and Chinese Education. New York: Summit Books.

Stich, S. (1990). The Fragmentation of Reason. Cambridge, MA: MIT Press.

Tardif, T. (1996). "Nouns are not always learned before verbs: Evidence from Mandarin-speakers early vocabularies." Developmental Psychology 32, 492-504.

Toulmin, S., and Goodfield, J. (1961). The Fabric of the Heavens: The Development of Astronomy and Physics. New York: Harper & Row.

Tonnies, F. (1887/1988). Community and Society. New Brunswick, Oxford: Transaction Books.

Trafimow, D., Triandis, H. C, and Goto, S. G. (1991). "Some tests of the distinction between the private self and the collective self." Journal of Personality and Social Psychology 60, 649-655.

Triandis, H. C. (1972). The Analysis of Subjective Culture. New York: Wiley.

----------- (1994). Culture and Social Behavior. New York: McGraw-Hill.

----------- (1995). Individualism and Collectivism. Boulder, CO: Westview Press.

Tweed, R. G., and Lehman, D. (2002). "Learning considered within a cultural context: Confucian and Socratic approaches." American Psychologist 57, 89-99.



Vranas, P. B. M. (2001). Respect for persons: An epistemic and pragmatic investigation. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Vygotsky, L. S. (1930/1971). "The development of higher psychological functions." In J. Wertsch, ed., Soviet Activity Theory. Armonk, NY: Sharpe.

----------- (1978). Mind in Society: The Development of Higher Psychological Processes. Cambridge: Harvard University Press.

Wang, D. J. (1979). The History of Chinese Logical Thought. Shanghai: People's Press of Shanghai.

Watanabe, M. (1998). Styles of reasoning in Japan and the United States: Logic of education in two cultures. Paper presented at the American Sociological Association, San Francisco, CA.

Weisz, J. R., Rothbaum, F. M., and Blackburn, T. C. (1984). "Standing out and standing in: The psychology of control in America and Japan." American Psychologist 39, 955-969.

Whiting, B. B., and Whiting, J. W. M. (1975). Children of Six Cultures: A Psycho-cultural Analysis. Cambridge: Harvard University Press.

Whorf, B. L. (1956). Language, Thought and Reality. New York: Wiley.

Wilgoren, J. (2001, August 9). "World of debating grows and Vermont is the lab." New York Times, p. A12.

Witkin, H. A. (1969). Social Influences in the Development of Cognitive Style. New York: Rand McNally.

Witkin, H. A., and Berry, J. W. (1975). "Psychological differentiation in cross-cultural perspective." Journal of Cross Cultural Psychology 6, 4-87.

Witkin, H. A., Dyk, R. B., Faterson, H. F., Goodenough, D. R., and Karp, S. A. (1974). Psychological Differentiation. Potomac: Lawrence Eribaum Associates.

Witkin, H. A., and Goodenough, D. R. (1977). "Field dependence and interpersonal behavior." Psychological Bulletin 84, 661 -689.

Witkin, H. A., Lewis, H. B., Hertzman, M., Machover, K., Meissner, P. B., and Karp, S.A. (1954). Personality Through Perception. New York: Harper.



Yamaguchi, S., Gelfand, M., Mizuno, M., and Zemba, Y. (1997). Illusion of collective control or illusion of personal control: Biased judgment about a chance event in Japan and the U. S. Paper presented at the second conference of the Asian Association of Social Psychology, Kyoto, Japan.

Yang, K. S., and Bond, M. H. (1990). "Exploring implicit personality theories with indigenous or imported constructs: The Chinese case." Journal of Personality and Social Psychology 58, 1087-1095.

Yates, J. F, and Curley, S. P. (1996). "Contingency judgment: Primacy effects and attention decrement." Acta Psychologica 62, 293-302.

Yates, J. F, Lee, J., and Bush, J. (1997). "General knowledge overconfidence: Cross-national variation." Organizational Behavior and Human Decision Processes 63, 138-147





ثبت المصطلحات والأعلام

Abelson, Robert	أبيلسون، روبرت
Action at a distance	التأثير عن بعد
Acupuncture	العلاج بوخز الإبر
Agency	الفعالية
Air-port Site Movie Test	اختبار سينما موقع المطار
Alienation	اغتراب
Amae Relationship	علاقة أماي
Analytical Approach	النهج التحليلي
Animism	العقيدة الإحيائية
Approach	نهج
Aptitude	استعداد، أهلية
Aristotle	أرسطو
Assembly line	خط التجميع
Atomism	المذهب الذري
Awase style	أسلوب «أواس» التناغم أو التلاؤم
Bacon, Francis	بيكون، فرنسيس
Bagozzi, Richard	باجوتزي، ريتشارد
Basseches, Michael	باسيكيس، ميشيل
Bell curve	منحنى الجرس
Bellah, Robert	بيلاه، روبرت
Bersoff, David	بيرسوف، دافيد
Biculturalism	الثنائية الثقافية
Bilingualism	الثنائية اللغوية
Body Adjustment test	اختبار توافق وضع الجسم
Body-soul Dichotomy	ثنائية الروح ـ الجسد
Bohr, Mils	بور، نلز
Bond, Michael	بوند، ميشيل
Borges, Jorge Luis	بورخيس، جورج لوي
Briley, D.A.	برايلي، دي. إيه.



البوذية	Buddhism
علاقات عمل	Business Relationships
الكالفينية	Calvinism
معهد كارنيجي	Carnegie Institution
اختبار كاتيل للذكاء غير المقيد بالثقافة	Cattell Culture-Fair intelligence test
اختبار كاتيل غير المقيد بالظروف الثقافية لقياس الذكاء	Cattell Culture-fair intelligence test
سببية	Causality
دراسات تسجيل تلازم التغير	Covariation-detection studies
شيو، ليانج ـ هوانج	Chiu, liang-hwang
شوي، إنكيول	Choi, incheol
شوي سونجا	Choi, Soonja
أسرة تشو	Chou dynasty
شو إن لاي	Chou En-Lai
شوان من [ممارسة بمعنى لتكن الأبواب سلسلة]	Chuan men
شوانج تسو	Chuang tzu
حركة الحقوق المدنية	Civil Right movement
معرفة	Cognition
عمليات معرفية	Cognitive processes
كوهين، دوف	Cohen, Dov
فعالية جمعية	Collective agency
تعقد	Complexity
الكونفوشية	Confucianism
كونفوشيوس	Confucius
الحساسية الضميرية	Conscientiousness
كونت، أوجست	Conte, August
النسبية السياقية	Contextual relativism
تحليل الكلفة والعائد	Cost-benefit analysis



English	العربية
Cromer, Alan	كرومر، آلان
Dax experiment	تجربة صورة التكوين
Dershowitz, Zachary	درشوفتز، زاخاري
Descartes, René	ديكارت، رينيه
Diamond, jared	دياموند، جاريد
Dichotomies	التقسيمات الثنائية
Dien, Dora	دايين، دورا
Doi, Takeo	دوي، تاكيو
Doris, John	دوريس، جون
Downsizing	إنقاص أو تحجيم عدد العاملين
Earley, P. Christopher	إيرلي، بي. كرستوفر
Educational testing service	مركز خدمة القياس التربوي
Egalitarianism	المساواتية
Ellsworth, Phoebe	إيلزوورث، فويب
Embedded Figures Test	اختبار الأشكال المطمورة
Erabi style	أسلوب إيرابي
Easternization	تشريق
Ethical system	منظومة أخلاقية
Ethnic Diversity	التنوع الإثني
Ethnicity	الإثنية ـ العرقية
Ethnocentrism	المحورية الإثنية ـ العرقية
Evolution	تطور
Extraversion	الانبساط النفسي
Feng shui	فنج شوي
Fernald, Anne	فيرنالد، آن
Fichte, johann Gottlieb	فيشته، جوهان جوتلييب
Field dependence	الاعتماد على المجال
Fischhoff, Baruch	فيشوف، باروخ
Ford, Henry	فورد، هنري



الشكلانية	Formalism
فرويد، سيجموند	Freud, Sigmund
فوكوياما، فرنسيس	Fukuyama, Francis
الخطأ الأساسي في تحديد الأسباب	Fundamental attribution Error FAE
فونج، يو ـ لان	Fung, yu-lan
جابرييل، شيرا	Gabriel, Shira
جاليليو، جاليلي	Galileo, Galilei
جاردنر، وندي	Gardner, Wendi
جلمان، سوزان	Gelman, Susan
علم الدلالات العامة	General Semantics
الأساس الجيني ـ الوراثي	Genetic basis
جنتتر، ديدر	Gentner, Dedre
الوسط الذهبي	Golden mean
جودمان، نلسون	Goodman, Nelson
جوبنيك، أليسون	Gopnik, Alison
جراهام، أنجوس	Graham, Angus
جرييس، بيتر هايس	Gries, Peter Hays
جونز، أليكس	Gunz, Alex
هول، إدوارد تي.	Hall, Edward T.
هامبدن ـ تيرنر، شارلس	Hampden-Turner, Charles
هان، ياسيكا	Han, jessica
هانج، سانج ـ بيل	Hang, Sang-pil
هارمان، جيلبرت	Harman, Gilbert
هاياكاوا، إس. آي.	Hayakawa, S. I.
هيث، شيرلي برايس	Heath, Shirley Brice
هيدين، تري	Hedden, Trey
هيجيل، جورج ويلهلم فريدريك	Hegel, George Wilhelm Friedrich
هايدر، فريتز	Heider, Fritz
هاين، ستيفن	Heine, Steven



Herrnstein, Richard	هيرنشتين، ريشار
Hindsight Fallacy	خطأ الإدراك المتأخر
Hinduism	الهندوسية
Hofstede, Geert	هوفستيد، جيرت
Holism	الكلية، النظرة الكلية
Holistic world view	النظرة الكلية إلى العالم
Homeostatic system	منظومة الاتزان الحيوي
Homer	هوميروس
Hong, Ying-yi	هونج، ينج - يي
Hu Shih	هو شيه
Human-animal dichotomy	التقسيم الثنائي بين إنسان - حيوان
Hume, David	هيوم، دافيد
Hunter-gatherers	مجتمعات القنص وجمع الثمار
Huntington, Samuel	هنتنجتون، صمويل
Hypotheses	فرض
I ching	الآي شنج (كتاب التحولات)
Identity, law of	الهوية، قانون
ideographs	اللغة التصويرية
Imai, Mutsumi	إيماي، موتسومي
Immoral	لا أخلاقي
Individualism	الفردية
Inference	استدلال
Infinity	لانهائية
In-groups	الجماعات الداخلة
Intelligence measurement	قياس الذكاء
Intelligence testing	اختبارات الذكاء
Irrational	لا عقلاني
Iyengar, sheena sethi	إينجار، شينا سيثي
Jefferson, Thomas	جيفرسون، توماس



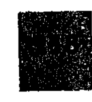
جن (الخيرية)	Jen
جي، لي - جون	Ji, Li-jun
جنج، قيشنج	Jing, Qicheng
جونس، إدوارد إي.	Jones, Edward E.
جوفينال، برتراند دو	Jouvenal, Bertrand de
كين، جوردون	Kane, Gordon
كانط، عمانويل	Kant, Immanuel
كييراس، دافيد	Kieras, David
كيم، بيوم جون	Kim, Beom jun
كيم، هي - جونج	Kim, Hee-jung
كيتاياما، شينوبو	Kitayama, Shinobu
نوليس، اريك	Knowles, Eric
كورزيبسكي، آلفريد	Korzybyski, Alfred
كوهنين، أولريتش	Kuhnen, ulrich
لانجر، آلين	Langer, Ellen
لاو - تسو	Lao-tsu
لي، فيونا	Lee, Fiona
لي - أنجيلا	Lee-Angela
ليختمان، ميشيل	Leichtman, Michelle
ليبر، مارك	Lepper, Mark
ليونج، كووك	Leung, Kwok
ليوين، كيرت	Lewin, Kurt
لين، يوتانج	Lin, Yutang
ليو، تشو - هسيين	Liu, Shu-hsien
لويد، جيوفري	Lloyd, Geoffrey
لوك، جون	Lock, John
لوجان، روبرت	Logan, Robert
لو، جانج	Lu, Gang
لوريا، آلكسندر	Luria, Alexander



Luther, Martin	لوثر، مارتن
Mao tse-tung	ماو تسي تونج
Markus, Hazel	ماركوس، هازيل
Masuda, Taka	ماسودا، تاكا
Mc Guire, William	ماكجوير، وليام
Mc Livane, Thomas	ماكليفان، توماس
Merton, Robert	ميرتون، روبرت
Meyer, David	ماییر، دافید
Miamoto, Yuri	مياموتو، يوري
Middle kingdom	المملكة الوسطى
Middle way	الطريق الوسطى
Mill, John Stuart	ميل، جون ستيوارت
Miller, Arthur	ميللر، آرثر
Miller, Joan	ميللر، جون
Mind-body dichotomy	ثنائية العقل ـ الجسد
Ming jia	مينج جيا (مناطقة)
Modularization	المعايرة
Modus Ponens	الطريقة أو النموذج الأبسط
Mohists	الموهيون
Monotheism	التوحيدية
Moral values	قيم أخلاقية
More, Thomas	مور، توماس
Morikawa, Hiromi	موريكاوا، هيرومي
Morling, Beth	مورلنج، بيث
Morris, Michael	موريس، ميشيل
Moser, David	موزر، دافيد
Mo-tzu	مو ـ تسو
Munro, Donald	مونرو، دونالد
Murray, Charles	موراي، تشارلس



Nagashima, Nobuhiro	ناجاشيما، نوبوهيرو
Nakamura, Hajime	ناكامورا، هاجيمي
Nature-nurture dichotomy	ثنائية الطبيعة - التنشئة
Needham, Joseph	نيدهام، جوزيف
Neuroticism	العصابية
Newton, Isaac	نيوتن، إسحق
Norenzayan, Ara	نورنزايان، أرا
Normative analysis	التحليل المعياري
Out-Groups	جماعات خارجية
Oyserman, Daphna	أويزرمان، دافنا
Park, Denise	بارك، دنيس
Parmenides	بارمنيدس
Peng, Kaiping	بنج، كايبنج
Perceptual-motor	حركي - إدراكي
Personal agency	فعالية ذاتية
Piaget, Jean	بياجيه، جين
Place number system	منظومة مكان العدد
Polytheism	الشرك، تعدد الآلهة
Post-formal operations	العمليات بعد الشكلية
Presbyterianism	المشيخية
Probability	احتمال
Pythagoras	فيثاغورس
Raven's Progressive Matrices Test	اختبار رافين للمصفوفات المتتابعة
Raw intelligence	الذكاء الخام
Reasoning	تفكير
Reflective equilibrium	توازن انعكاسي
Riegel, Klaus	ريجال، كلاوس
Rod and Frame Test	اختبار المؤشر والإطار
Rosemont, Henry	روزمونت، هنري



Ross, Lee	روس، لي
Russel, Bertrand	رسل، برتراند
Sanchez-Burks, Jeffrey	سانشيز - بوركس، جيفري
Sapir, Edward	سابير، إدوارد
Schwart, Norburt	شوارز، نوربرت
Shavitt, Sharon	شافيت، شارون
Shintoism	الشنتوية
Single-motive fallacy	خطأ الحافز المفرد
Situational factor	عامل موقفي
Social structure	بنية - هيكل اجتماعي
Sowell, Thomas	سوويل، توماس
Spatial Relations aptitude	استعداد العلاقات المكانية
Spatial skills	مهارات مكانية
Syllogism	قياس
Tai chi	تاي تشي
Tao Te Ching	طاو تي تشنج
Taoism	الطاوية
Tardif, Twila	تارديف، تويلا
Tonnies, Ferdinand	تونيس، فرديناند
Trompenaars, Alfons	ترومبينارس، ألفونس
Utopia	يوتوبيا
Vranas, Peter	فراناس، بيتر
Vygotsky, Lev	فيجوتسكي، ليو
Wang, Qi	وانج، قي
Wantanabe, Masako	وانتاناب، ماساكو
Weber, Max	فيبر، ماكس
Westernization	تغريب
Whorf, Benjamin	وورف، بنيامين
Witkin, Herman	وتكين، هيرمان



Wittgenstein, Ludwig	فتجنشتين، لودفيج
Wong, Nancy	وونج، نانسي
Yamaguchi, Susumu	ياماجوتشي، سوسومو
Yang, Kuo-shu	يانج، كيو ـ تشو
Yi, Youjae	يي، يوجاي
Yin-Yang principle	مبدأ الين ـ اليانج
Zeno	زينو
Zero, concept of	مفهوم الصفر
Zhang, Zhiyong	جانج، جيونج
Zuozhuan	جوجوان



المؤلف في سطور

ريتشارد إي. نيسبت

- عمل أستاذا لعلم النفس بجامعة ييل.
- يدرس الآن بجامعة ميتشيجان.
- حصل على جائزة الإسهام العلمي المتميز لرابطة علم النفس الأمريكية.
- حصل على جائزة زميل وليام جيمس لجمعية علم النفس الأمريكية.
- حصل عام ٢٠٠٢ على درجة الزمالة بمؤسسة جون سيمون جوجنهايم.
- ألف وحرر العديد من الكتب الصادرة عن الجامعة.
- يعيش في آن آربور - ميتشيجان.

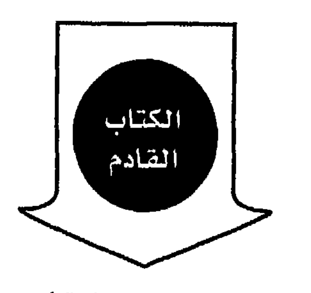
المترجم في سطور

شوقي جلال محمد

- مواليد ٣٠ أكتوبر - ١٩٣١ - القاهرة.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة - لجنة الترجمة، منذ ١٩٨٩.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة، لجنة قاموس علم النفس في السبعينيات.
- له تسعة مؤلفات، من بينها:

«العقل الأمريكي يفكر»، «التراث والتاريخ»، «الفكر العربي وسوسيولوجيا الفشل»، «الترجمة في العالم العربي: الواقع والتحدي».

- له أوراق بحث في ندوات ومؤتمرات ومقالات ثقافية وفكرية في الصحف والمجلات العربية.



سيكولوجية المقامر

تأليف: د. أكرم زيدان

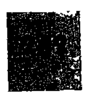


● له أكثر من ٣٥ كتابا مترجما، منها:

«المسيح يصلب من جديد» رواية نيكوس كازانتزاكس، و«الثقافات وقيم التقدم».

● ترجم لسلسلة «عالم المعرفة» عددا من الكتب، منها: «أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي»، «العالم بعد مائتي عام»، «تشكيل العقل الحديث»، «بنية الثورات العلمية»، «الآلة قوة وسلطة»، «التنين الأكبر»، «بعيدا عن اليسار واليمين»، «التنمية حرية»، وهي الأعداد: ٢٨، ٥٥، ٨٢، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٨٦، ٣٠٣ على التوالي. كما راجع عددا من كتب السلسلة أيضا.





سلسلة عالَم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام ١٩٧٨.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الأفكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية: اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات.

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة.

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. **والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها** . وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع - المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة - المؤلفة والمترجمة - من نسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة.





على القراء الذين يرغبون في استدراك ما فاتهم من إصدارات المجلس التي نشرت بدءا من سبتمبر ١٩٩١، أن يطلبوها من الموزعين المعتمدين في البلدان العربية:

دولة الكويت:

شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع

شارع جابر المبارك - بناية التجارية العقارية

ص. ب 29126 - الرمز البريدي 13150

ت 2405321 - 2417810/11 فاكس 2417809

دولة الإمارات العربية المتحدة:

شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع

دبي، ت: 9714266115 - فاكس: 2666126

ص. ب 60499 دبي

المملكة العربية السعودية:

الشركة السعودية للتوزيع

الإدارة العامة - شارع الملك فهد (الستين سابقا) - ص. ب 13195

جدة 21493 ت 6530909 - فاكس 6533191

الجمهورية العربية السورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات

سوريا - دمشق ص.ب 12035 (9631)

ت 2127797 فاكس 2122532

جمهورية مصر العربية:

مؤسسة الأهرام للتوزيع

شارع الجلاء رقم 88 - القاهرة

ت 5796326 فاكس 7703196

المملكة المغربية:

الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة

(سبريس)

70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء

ت 22249200 فاكس 22249214 (212)

دولة تونس:

الشركة التونسية للصحافة

تونس - ص. ب 4422

ت 322499 فاكس 323004 (21671)

دولة لبنان:

شركة الشرق الأوسط للتوزيع

ص. ب 11/6400 بيروت 11001/2220

ت 487999 فاكس - 488882 (9611)

دولة اليمن:

القائد للتوزيع والنشر

ص. ب 3084

ت 3201901/2/3 فاكس 3201909/7 (967)

المملكة الأردنية الهاشمية:

وكالة التوزيع الاردنية

عمان ص.ب 375 عمان - 11118

ت 5358855 فاكس 5337733 (9626)

مملكة البحرين:

مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف

ص. ب 224/ المنامة - البحرين

ت 294000 - فاكس 290580 (973)

سلطنة عمان:

المتحدة لخدمة وسائل الإعلام

مسقط ص. ب 3305 - روي الرمز البريدى 112

ت 700896 - 788344 فاكس 706512

دولة قطر:

دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع

الدوحة ص. ب 3488 - قطر

ت 4661695 فاكس 4661865 (974)

دولة فلسطين:

وكالة الشرق الأوسط للتوزيع

القدس/ شارع صلاح الدين 19

ص. ب 19098 ت 2343954 فاكس 2343955

دولة السودان:

مركز الدراسات السودانية

الخرطوم ص. ب 1441 ت 488631 (24911)

فاكس 362159 (24913)

نيويورك:

MEDIA MARKETING RESEARCHING

25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY

NY - 11101 TEL - 4725488

FAX 1718 - 4725493

لندن:

UNIVERSAL PRESS& MARKETING LIMITED

POWER ROAD. LONDON W 4SPY. TEL

020 8742 3344

FAX: 2081421280



تنويه

للاطلاع على قائمة كتب السلسلة انظر عدد ديسمبر (كانون الأول) من كل سنة، حيث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير ١٩٧٨.



قسيمة اشتراك

البيـــــان	سلسلة عالم المعرفة		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		ابداعات عالمية	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٥		١٢		١٢		٢٠	
الافراد داخل الكويت	١٥		٦		٦		١٠	
المؤسسات في دول الخليج العربي	٣٠		١٦		١٦		٢٤	
الافراد في دول الخليج العربي	١٧		٨		٨	-	١٢	
المؤسسات في الدول العربية الاخرى	-	٥٠		٣٠		٢٠		٥٠
الافراد في الدول العربية الاخرى	-	٢٥	-	١٥		١٠		٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠		٥٠	-	٤٠		١٠٠
الافراد خارج الوطن العربي	-	٥٠		٢٥	-	٢٠		٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:

العنوان:

اسم المطبوعة: مدة الاشتراك:

المبلغ المرسل: نقدا / شيك رقم:

التوقيع: التاريخ: / / ٢٠٠٢م

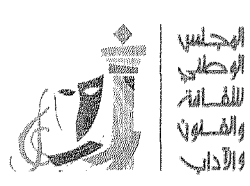
تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ٢٨٦٢٣ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13147

دولة الكويت


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب


الفنون 49
الطفولة.. والفن
عالم الفكر
الثقافة


أحدث الإصدارات الدورية

هذا الكتاب

فريد، جديد في منهجه وموضوعه وأفكاره وتنبؤاته، يتحدى بديهيات مثل أن جميع الناس يفكرون بطريقة واحدة في كل أنحاء العالم، أو أن العقل قسمة مشتركة متساوية المحتوى والمنهج بين الجميع. يبحث في الأصول الاجتماعية للعقل: كيف يفكر الناس، بل وكيف ولماذا يختلفون في إدراكهم، بل في رؤيتهم البصرية؟ ولماذا اختلفت طريقة التفكير، واختلفت النظرة إلى العالم بسبب اختلاف وتباين الهياكل الاجتماعية والإيكولوجيات والفلسفات ونظم التعليم منذ آلاف السنين وحتى اليوم مع شواهد من الإغريق والصين قديما.

ويتناول قضايا عديدة مثيرة وشائقة بأسلوب علمي مبسط وبراهين عملية واضحة:

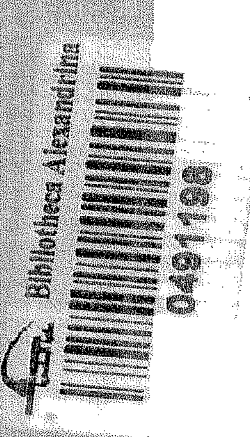
- لماذا تفوق الصينيون القدامى في الجبر والحساب دون الهندسة التي تفوق فيها الإغريق؟
- لماذا من العسير على أبناء الشرق الأقصى فصل الموضوع عن السياق المحيط به؟
- لماذا يتعلم الأطفال في الغرب الأسماء أسرع من الأفعال، بينما أطفال شرق آسيا يتعلمون الأفعال بأسرع من الأسماء؟

الكتاب خارطة توضح الفواصل بين الثقافات والرؤى أو المعرفة. خارطة تكشف أن هناك، فكريا وثقافيا ومعرفيا، عوالم لا عالم واحد. ويحدد أيضا الجسور للوصل بينها، ويعرض تنبؤاته في ضوء التحولات العالمية الجديدة.

يمثل الكتاب فتحا جديدا في بحوث علم النفس الثقافي.

إنه إسهام متميز في مجالات التعليم والعلم والصحة ومشروعات الأعمال والسياسة الدولية واللغة وفقه الأديان.

ولكنه ترك ثغرة شاغرة منوط بنا نحن أن نملأها وهي كيف يفكر العربي؟ وما مستقبل هذا الفكر في ضوء السياق الكوكبي؟



ISBN 99906-0-153-4

رقم الإيداع (٢٠٠٥/٠٠٠٠١)